نفسية المراهق

تأليف

د. رياض عسكر

الكتاب: نفسية المراهق

الكاتب: د. رياض عسكر

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المراهق، نفسية

نفسية المراهق / د. رياض عسكر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ١٠٣ – ٩٩١– ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٥٨ / ٢٠٢١

نفسية المراهق

هذا الكتاب

الحمد لله وبه نستعين. وبعد فهذا بحث مختصر، قصدنا به أن نبين للقارئ، طرفا من مشاكل النمو، التي يتعرض لها الفتيان والفتيات. وهو البحث الأول من نوعه لقراء العربية، رغما عن كثرة الأبحاث الشبيهة به، لقراء اللغات الأجنبية. فرأينا أن نقتبس، مما كتبه علماء النفس والاجتماع والمربون الأمريكيون والأوروبيون، ما يمكن تطبيقه في بلادنا ومجتمعاتنا، وأضفنا إليه ما وصلت إليه خبرتنا في دراساتنا، ببلادنا وبلاد الغرب في أمريكا وانجلترا. ومما لا شك فيه، أننا لم نزل، في عالمنا العربي على أبواب البحث العلمي، ولم تتوغل فيه توغلا يشفي الغلة، ويوفي الحاجة، فليست لدينا الإحصاءات الكافية، عن مميزات النمو أو مشاكله، وليست لدينا الدراسات الفردية، التي تلقي ضوءا على مشاكل شبابنا وشاباتنا. غير أننا مع هذا، قد جنينا خبرة وحقائق ليست بالقليلة، في علاج مشاكل المراهقة، في العيادة السيكولوجية بمعهد التربية، وفي مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة، فضلا عن خبرتنا في عيادات لندن السيكولوجية، ومعامل علم النفس، ومكاتب التوجيه والإشاد السيكولوجي في أمريكا.

وإنا لنأمل أن تكون الطبعة القادمة، محتوية لأمثلة أكثر من مشاكل المراهقة، في مصر، وعلى إحصاءات أكثر كذلك عنها، ولا أظن أن ذلك الأمل بعيد التحقيق، لما نراه من تيقظ إلى الأبحاث والإصلاحات الاجتماعية.

المؤلف

الفصل الأَول

تمهيد

المراهقة دور من أدوار حياة الإنسان، يأتي في العقد الثاني ويمتاز بسرعة النمو وكثرة التغيرات التي تنتاب جسم الإنسان وعقله.

ولكن حياة الفرد، رغم هذا، كلها وحدة متصلة، ولو أنها تظهر كأنها مكونة من أجزاء أو حلقات متعاقبة، تمتاز بمميزات خاصة، إذ أن تلك الحلقات لا يفصلها عن بعضها فوارق حادة بارزة، وإنما تتداخل في بعضها وتتحد في كثير من الصفات. فمثلا تظهر في كل أدوار حياة الفرد ميزة ظاهرة، ألا وهي نظام دوري يتمثل في تعاقب فترات خاصة، كالنوم ثم اليقظة، وكتعاقب الأسابيع وبكل منها يوم راحة، وتعاقب الفصول والسنين وهكذا. هذه الفترات ظاهرة للعيان، غير أن هناك فترات أخرى متعاقبة أقل ظهورا للملاحظة العادية، ولكنها تبدو للملاحظة الخاصة التي تترقبها. كمراحل النمو العقلي والجسمي، التي يغفلها الكثيرون من المربين في تربية الأطفال والفتيان، فينجم عن ذلك ضرر ليس بالقليل. وقد اتضح وجود فترات أو أدوار ستة في حياة الفرد بعد الولادة وهي:

أولًا – دور يسرع فيه النمو، فيزيد الفرد في الطول والوزن، ويمتد هذا الدور إلى سن السابعة.

ثانيًا – دور يستمر فيه النمو، ولكن بسرعة أقل حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة.

(ويُطلق اسم الطفولة على الفترتين السابقتين).

ثالثًا – دور يتلوه، تزيد فيه سرعة النمو حتى تصل إلى أقصاها في سن

الثالثة عشرة عند البنات، والرابعة عشرة عند البنين (ولو أن هذه الأعمار قد تختلف قليلا من أمة إلى أمة).

رابعًا – بعد ذلك يهدأ النمو، حتى يقف في السنين الأولى من العقد الثالث. ويطلق على الفترة التي بين الحادية عشرة والسابعة أو الثامنة عشرة اسم دور المراهقة. ويلاحظ فيه أن النمو يسرع في النصف الأول منه إسراعا عظيما، ثم يهدأ في النصف الثاني، وتكتسب الأعضاء النامية قوة وصلابة.

خامسًا – دور النضوج أو الرجولة

سادسًا – دور الكهولة

فالأدوار التي ذكرناها: الطفولة والمراهقة والنضوج أو الرجولة ثم الكهولة. ليست إلا فترات متعاقبة في نمو الإنسان، وتظهر في جميع أفراد النوع الإنساني على السواء وإن وجدت فوارق بسيطة، كظهورها متقدمة في البعض ومتأخرة في البعض الآخر مثلًا.

وقد ظهر للكثيرين ما لدور الشباب، وعلى الأخص في فترة المراهقة، من الأهمية بين الأدوار الأخرى لخطورته، إذ فيه تتضارب الأهواء، وتجمح بالشباب انفعالاته.

وقد بحث علماء النفس الأوروبيون والأمريكيون وغيرهم هذا الدور بحثا مستفيضا، ولكنا مع الأسف لم ننتبه إلى بحثه في مصر بعد، بل إن الكثيرين من الآباء والمربين يكادون لا يعلمون عنه شيئا يقينيا، وإن علموا فإنهم لم يقدسوا حرمته، ويتخذوا العدة لصيانته والمحافظة عليه.

ولقد خرج الأستاذ الكبير ستانلي هول من أبحاث كثيرة بالنتيجة الهامة الآتية: وهي أن السنين الأخيرة من دور الطفولة يوفق فيها الفرد بين طبيعته وطبيعة البيئة التي تحيط به.

ويقول كذلك إن المراهقة هي الدور الذي تنحل فيه الميول الإنسانية التي تكونت في الدور السابق، وتتعدل ثم تلتئم ثانية، فكأن دور المراهقة هذا دور ظهور ميول وصفات إنسانية كثيرة، إن لم يكن لأول مرة فبشكل جديد لم يعهده الفرد من قبل، فهو الدور الذي يدخل فيه الفرد ويخوض غمار حياة النوع الإنساني على حقيقتها.

ويقول الدكتور سلوتر إن طول زمن المراهقة يزداد بتقدم المدنية، وهذا فرق من أهم الفروق التي تميز الإنسان المتمدين عن غير المتمدين.

وقد وجد الكثيرون من الأبحاث التي أجروها في هذا الموضوع ما يؤيد خطورة دور المراهقة، هذا الدور الذي يزيد فيه نمو الجسم عامة، والأعضاء الجنسية خاصة. وأهمية دور المراهقة تأتي من ظهور روح جديدة في الفرد، تعبر عن نفسها في نواح مختلفة من حياته، فإذا نظمت وهذبت كانت النتيجة خيرا له، وملائمة أتم لبيئته.

وكما أن دور الطفولة يتميز بمحاولة الفرد أن يلائم بيئته الطبيعية أو المادية، فإن دور المراهقة يتميز بمحاولة الفرد أن يلائم بيئته الاجتماعية والروحية.

ولقد شعرت جميع الأمم بالتغيرات التي تنتاب الفتى والفتاة في دور البلوغ، والتي تجعلهما ينتقلان من دور الطفولة فتنشئ منهما رجلا أو امرأة، فأخذت القبائل المتوحشة تستقبل هذا الدور بمراسيم rites خاصة، تكون بمثابة اعتراف بخروج الفتى أو الفتاة من الطفولة.

وكانت تلك المراسيم عند بعض القبائل مرهقة، وأحيانا تصل إلى حد القسوة، فمثلا عند بعض قبائل استراليا تقتضي خلع واحدة أو اثنتين من أسنانه، حتى ولو افتضى الأمر بعض اللكمات. وعند بعض قبائل أمريكا

الشمالية، كانت تقتضى حبس الناشئ بضعة أسابيع، وضربه ضربا مبرحا، وإعطاءه الغذاء الضروري فقط.

كما كانت توقع على البنات مثل تلك التدابير القاسية أيضا بينهم، إذ كانت البنت تحبس في بيت صغير لمدة شهر، وأحيانا عدة شهور أو أكثر، ولا يسمح لها بالخروج منه إلا عندما يخيم الظلام. وبين بعض قبائل البرازيل، كانت البنت إذا بلغت تحجز بالبيت شهرا، وتطعم الخبز الجاف والماء، ثم يؤتي بها فيضربها أقاربها وأصدقاؤهم حتى تفقد وعيها، وكان ذلك يفضي إلى موتها أحيانا.

وبين بعض القبائل الأخرى، لم تكن تلك المراسيم بمثل هذه القسوة. فمثلا عند بعض قبائل ويلز الجديدة الجنوبية باستراليا كان يعني بتربية الفتى المراهق من الوجهة الخلقية، فيلازمه أحد كبار القبيلة فيعلمه كل مساء واجباته، ويزوده بالنصائح التي تنير طريقه في الحياة. وكانت طريقة النصح من الدقة بمكان، ويتخللها من الرحمة والتأثير ما يلين قلب الفتى، ويسيل الدموع من عينيه في كثير من الأحيان.

وفي الفصل التالي، سنتكلم عن كيفية النمو في دور المراهقة، وعن التغيرات التي تنتاب الفتى والفتاة، ليخرجا من الطفولة إلى المراهقة.

الفصل الثاني

التغيرات التي تحدث في دور المراهقة

أ- التغيرات الجسمية

لا شك أن إحاطة الآباء والمعلمين، بخصائص نمو المراهقين، تفيدهم كثيرا في معاملتهم، وفي اختيار نوع الأعمال التي يكلفونهم بها. فهي تشرح لهم سبب ما يلاحظونه فيهم، من قلة الرشاقة، وعدم التوافق في حركاتهم، وتوقفهم على السر في ثوراتهم الوجدانية، وفي قلقهم واضطرابهم، وقلة ثباتهم وسرعة تضايقهم، تلك الصفات التي تلاحظ كثيرا في تلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها.

والنمو الجسمي، هو الأساس الذي ينبني عليه النمو الوجداني، والاجتماعي، والاقتصادي. فالطفل الذي لا يقوي جسمه، ولا تنمو أعضاؤه الجنسية، ولا ينضج مخه، وتبقي أعضاؤه وأجهزته الباطنية بحجمها وسعتها لا تجاري النمو الجسمي، لا يستطيع أن يكون رجلا، ولا يصل تفكيره إلى تفكير الرجال، كما لا يستطيع أن يكسب أود نفسه.

في هذا الدور ينمو الجسم نموا سريعا، ويزيد ويزنه لدرجة قد تجعل الهيمنة على الأعضاء المختلفة صعبة لحد ما، فتصبح حركات الأطراف كالأيدي والأرجل، وحركات الجذع كذلك غير متناسقة وغير متزنة، وعلى الأخص عند الذكور، إذ تبدو فيهم هذه الظاهرة أكثر من الفتيات.

ففي عهد الطفولة تعود الطفل أن يسيطر على أعضاء جسمه وأطرافه، وعرف كيف يستخدمها في قضاء حاجاته، كالصانع الذي تعود آلاته فتكون لديه شئ من المهارة والسرعة والتوافق عندما يستعملها في يديه، ولكن إذا أعطيته آلات جديدة وطلبت منه استعمالها بعد طول تعوده على الآلات القديمة، شاهدت عليه شيئا من الاضطراب، وصعب عليه أن يؤدي بها الأعمال الدقيقة، قبل أن يتعود عليها. وكلاعب التنس الذي يستعمل مضربه الخاص، حتى إذا فقده واضطر إلى استعمال غيره، وجد ضرباته غير منتظمة، ووجد أن يده لا تستطيع أن تحكم المضرب الجديد كما كانت المضرب القديم.

ولذا يشاهد أن الفتى (أو الفتاة) في هذا الدور، يكره أن يساعد في ترتيب المائدة أو تقديم الشاي؛ لأن كثيرا من الحركات التي يشتمل عليها ذلك، تحتاج إلى توازن في الذراعين أو اليدين أو الأصابع، فهو يخاف أن يندلق الشاي على ملابس الضيوف، لعدم وثوقه من أصابعه وذراعيه، التي قد طالت فأصبحت كأنها جديدة عليه. ويزيد في خطبه أن الأعضاء حتى في نموها السريع لا تنمو بنسبة واحدة، ولا في وقت واحد، بل بعضها يصل إلى نهاية سرعته في أوقات مختلفة عن البعض الآخر، فمثلا اليدان والقدمان تنمو لحد لا يتناسب مع طول الجسم، في أوائل دور المراهقة، إذ يصل طولها عندئذ نهايته بينما أعضاء الجسم لم تصل إلى هذه الدرجة بعد. فتجد أن الصبي والفتاة لم تعد ملابسهما مناسبة لهما لقصرا كمامها بينما الأحذية القديمة أصبح لبسها مؤلما للقدمين لنموهما بسرعة.

وقد حدث أن فتى كان كلما ذهب في رحلة مدرسية، لزيارة متحف أو معرض، يجلس عدة مرات أثناء الزيارة، ويخلع حذاءه ليريح قدميه منه لضيقه،

إذ أن أباه أجبره على لبسه، ورفض أن يشتري له حذاء جديدا بينما القديم لم يستهلك بعد. ذلك النمو غير المتناسب يبعث في الفتى المراهق قلقا وحيرة، نظرا لجهله بتلك الحقيقة، إذ يخيل إليه أن يديه وقدميه سيطرد نموها بتلك السرعة، وعندئذ تصبح ذات طول شاذ. ويستحسن أن يطمأن خاطره حينئذ، بأن يقال له إن هذه الأعضاء تنمو قبل غيرها، وإنها قد وصلت إلى نهاية كما لها فلن تنمو بعد ذلك.

وكذلك الأنف تصل نهاية نموها قبل كثير من الأعضاء الأخرى، وكم يصرف المراهقون والمراهقات من ساعات طويلة أمام المرآة يلاحظون أنوفهم، التي أقلقهم نموها السريع، وهم خائفون أن تظل على ذلك فتسئ إلى شكلهم بطولها الذي لا يتناسب مع شكل الوجه وهو لم يزل بعد صغيرا، غير عالمين أنه عما قليل سينمو الوجه والأعضاء الأخرى، ويتم التناسب بينها وبين الأنف.

ومما يلاحظ، أن الجزء الأعلى من الوجه، يصل إلى كمال نموه، قبل الأسفل، ويكون الفك، آخر عظام الوجه في تمام نضوجها.ويصحب طول العظام تغير في تركيبها كلما تقدم الفرد في السن، فعظام الأطفال تختلف عن عظام الكبار، لا في حجمها فحسب، بل في كثافتها وتركيبها، فهي صغيرة لينة.

وتتسع مسام الجلد في ذلك الوقت، وقد يحدث أن بعض الغدد يختل عملها، فتنسد المسام ويحدث تشويه للوجه، نظرا لظهور بعض الحبوب والدمامل، التي يطلق عليها اسم حب الشباب، وغيرها مما يؤلم المراهقين نفسيا ويلجئهم إلى استعمال مختلف الأدوية والمساحيق وغيرها من أدوات التجميل، ويرجع سبب هذه الحبوب والدمامل في كثير من الأحيان، إلى سوء

الهضم وسوء الغذاء، وهي مهما كان سببها، تشتت انتباه التلاميذ أثناء الدراسة، ولذا تعتبر مشكلة من مشاكل المعلم، الذي يود من التلاميذ الإصغاء إليه، في حين أن البعض منهم مشغول بتلك الحبوب، التي قد تدعوه إلى حكها، أو التي تسئ إلى شكل وجهه في وقت هو شديد الرغبة فيه لاجتذاب احترام الجنس الآخر.

أما الفروق التي بين المراهقين في الطول والحجم وسرعة النمو، فترجع لحد ما إلى الوراثة، قريبة كانت أم بعيدة، وقد يكون لعوامل البيئة تأثير فيها أيضا. ولكن ما لا شك فيه، أن النسبة بين الأفراد المختلفين تظل ثابتة، بمعنى أن الطويل يظل طويلا، والقصير يظل قصيرا. أما الاعتقاد السائد أن طفلا قصيرا قد ينمو فيصبح ماردا، أو أن طفلا قد يقف نموه فجأة فيصبح من قصار القامة، فقد دلت الأبحاث على خطأه، إذ قلما يحدث أن ينعكس النمو الإنساني على هذا النحو.

ويلاحظ كثيرا أن الفتى قد يبدو صوته غريبا تارة خشنا وتارة منسجما رفيعا، وقد يتعاقب الصوتان في لفظة واحدة فلا يبدو صوته جميلا، ذلك لأن الجهاز الصوتي قد نما فجأة، ولم يستطع الفتى أن يتعود استعماله بعد، فتراه لا يعرف إن كان صوته سيكون عاليا أم منخفضا، خشنا أم رفيعا، فيزيد هذا من حيائه، فيخشى الكلام وسط الضيوف مثلا وعلى الأخص في حضرة السيدات.

ويرجع هذا التغير في الصوت إلى نمو الجهاز الصوتي، فالخيوط الصوتية يزيد طولها عندئذ إلى ما يقرب من الضعف، وهذا هو السبب في تغير الصوت من الرفيع العالي إلى الغليظ المنخفض، كما أن الحنجرة تكبر وهذا هو السبب في حدوث البروز المعروف في الرقبة.

ويختلف الفتيان عن الفتيات قليلا في هذه المسألة، فصوتهن في العادة لا يصل إلى درجة كبيرة من الخشونة، ولو أنه قد يعتريه قليل منها ويفترق صوت الفتاة البالغة عن صوت الطفلة في أنه أكثر امتلاء، من غير اختلاف بين في النغم pitch.

أما في طول القامة، فيكون البنات والصبيان متعادلين في المتوسط، حوالي العاشرة أو الحادية عشرة، مع أن الذكور كانوا يفرقون الأناث قبل ذلك، ولكن بعد الحادية عشرة، نجد أن البنات يسبقنهم، لا في طول القامة فقط، بل في الوزن أيضا، حتى يلحق بهم هؤلاء حوالي الثالثة عشرة، وقد يسبقونهن عندئذ.

والسنة التي تبدأ فيها المراهقة أو البلوغ تكون في العادة أسرع السنين نموا، فقد يزيد طول البعض في هذه السنة ما يقرب من خمسة عشر سنتيمترا. وقد يزيد الوزن في بعض الأحيان ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين رطلا، ولو أن مثل هذه الزيادات العظيمة يكون في العادة شاذا قليل الحصول.

وقد دلت الإحصاءات على أن متوسط زيادة الفتى في الوزن من سن الثانية عشرة إلى السابعة عشرة، يعادل زيادته في السنوات العشر السابقة ولذا كان النمو في العظام والعضلات أسهل مميزات المراهقة على الملاحظة العادية، وأوضحها للعيان. فعندما نرى الصبي قد اعرض كتفاه وطالت يداه، وقدماه وذراعاه وساقاه، حكمنا توا أنه أقبل على دور المراهقة.

ذلك النمو السريع يوقع المراهق وأبويه أحيانا في حيرة واضطراب، فمثلا تزداد الشهية للطعام، وقد تصل أحيانا إلى درجة غير عادية. وقد حدث مرة أن غلاما زاد طوله في سنة واحد خمسة عشر سنتيمترا، وازدادت شهيته

تبعا لذلك، حتى أنه كان يستيقظ من نومه جائعا في الليل فيملأ بطنه بالماء.

ويحدث عدا التغير في الطول الوزن، تغير في شكل الأعضاء أيضا، فيخلع الفرد رداء الطفولة، ويتخذ مظهر الراشدين من أفراد جنسه. فينمو الحوض عند البنات بدرجة تفوق نموه عند الصبيان حتى يصبح مشابها لنظيره عند النساء. كما أن صدرهن يرتفع، وتحدث فيه استدارة خاصة، بعد أن كان مستقيما. ويتسع الزور ويأخذ كذلك شكلًا مُستديرًا، كما أن الأكتاف يزداد عرضها وتمتلئ بعد أن كانت ضئيلة نحيفة في عهد الطفولة.

أما الصبيان فتظهر فيهم مميزات الرجولة، فتبرز عضلاتهم كما في الذراعين والأرجل، بعد أن كانت هذه نحيفة مُستديرة. وتعرض الأكتاف بدرجة واضحة، ويشتد الساعد، كما أن عظام الفك تصبح أكثر برزوا عن ذي قبل. وكذلك الأعضاء التناسلية، فإنها تشترك مع بقية أعضاء الجسم في النمو، وتتخذ شكلها النهائي في هذا الدور، ويحدث نموها السريع في بدء ظهور المراهقة.

وربما كان أظهر مميزات البلوغ عند البنات الحيض، وتتخذ شكلها النهائي في هذا الدور، ويحدث نموها السريع في بدء ظهور المراهقة.

وربما كان أظهر مميزات البلوغ عند البنات الحيض، ولو أن هناك صفات أخرى من صفات البلوغ تظهر قبله وتنذر بقدومه كالطول في الجسم ونمو الثديين، وظهور الشعر تحت الإبطين وبالقرب من الأعضاء الجنسية، وظهور الاستدارة في أعضاء الجسم بدلا من شكلها السابق. غير أن نمو الحوض والصدر أظهر المميزات وأسرعها ملاحظة.

ولقد حاولت الأمم المتوحشة تفسير الحيض بأسباب شتى، فمنهم من قال إن هناك ثعبانا يلدغ البنت، أو تمساحا أو طائرا مُقدسًا. ومهما كان من

أمر ذلك الحيوان، فالفكرة السائدة عندهم أن سبب تلك العادة الشهرية، جرح داخلي. وعند بعض تلك الأمم يسود الاعتقاد بأن القمر يتخذ شكل إنسان ويعانق الفتاة، فيحدث لها ما يحدث، فكأنهم ينظرون إلى أول حدوث لتلك العادة كزواج، ولذا فإنهم يضطرون الفتاة لأن تتزوج قبل البلوغ، وإلا فقدت مركزها بينهم. ولا تزال العلاقة بين القمر وتلك العادة الدورية ملاحظة معتقدا فيها في العصر العلمي الحالي.

ويختلف السن الذي تبدأ فيه تلك العادة باختلاف الأمم والأجواء وقد وجد أحد البحاثة في أمريكا أن متوسط السن الذي تبدأ فيه هو ١٣ سنة وتسعة أشهر، وذلك بعد اختبار عشرة آلاف حالة من البنات. ولكن في نفس خط العرض من أوروبا، تجد أن السن يتأخر إلى ١٥ سنة و٥ أشهر. ولكن هُناك حالات تختلف عن ذلك المتوسط، فقد يحدث أن فتاة تبدأ أول مرة لها عند سن التاسعة والنصف، أو قد تتأخر أخرى إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

ويهم القائمين بالتعليم معرفة تأثير تلك العادة على الحالة العقلية والجسمية للفتاة أثناء حدوثها. ولقد وجدنا أن البحث لم يدل على حدوث تغير في درجة الحرارة أو النبض أو ضغط الدم أثناء ذلك الدور، كما أنه لا تتأثر القدرات العقلية أثناءها عند النساء الصحيحات، وإنما المصابات بأمراض عصبية أو جنون يتأثرن بها أكثر من غيرهن.

إلا أن ذلك الموضوع لم يصل فيه أحد إلى نتيجة يقينية حاسمة. غير أن المشاهد أن كثيرا من البنات يصيبهن ألم قد يستمر طويلًا أو قليلًا، وتصيبهن آلام في الرأس وتوتر في الأعصاء وألم في الثديين وتهيج في المثانة، وقد يصيبهن إسهال، بينما البعض يصيبهن إمساك.

وبصفة عامة تقل حيوتهن فيصبحن أكثر قابلية للتعب والملل، وأقل جلدا على العمل الجثماني والعقلي.

هذه الفترات بلا شك تعوق تعليم البنت في ذلك الوقت من كل شهر، وعلى القائمين بأمرها أن لا يصروا على إجهادها عندئذ.

نعم إن الكثير من البنات يأتين الألعاب الرياضية، كالجري والسباحة والرقص، أثناء تلك العادة، إلا أن الضعيفات منهن يتأثرن بها أكثر من الصحيحات.

ويشمل النمو عند المُراهقين والمُراهقات الأجهزة والأعضاء الداخلية أيضا إذ قد يزيد حجمها، وتنشط في عملها، وعلى الأخص الغدد المتعلقة بحركة النمو، فهذه تنشط بدرجة كبيرة، وتتلاشى الغدة النكفية التي كانت موجودة أيام الطفولة، في حين أن الغدة الدرقية، التي في أسفل الرقبة، تزيد حجما، وعندئذ يبرز هذا الجزء من الرقبة، وعلى الأخص عند البنات.

وإن أثر بعض الغدد في نمو الجسم لعظيم، إذ أن عصارة البعض منها تحدد مقدار النمو، فإن زادت أصبح الشخص طويلا كالمارد، وإن قلت أصبح قصيرا كالقزم.

أما الغدد الجنسية، فتبدأ عملها لأول مرة في دور المراهقة، ويكون التطور الجنسي أظهر التغيرات التي تنتاب الفرد، فهو مع أهميته في حياة الفرد يحدث له كثيرا من القلق والدهشة. فنمو الأعضاء الجنسية، وظهور إفرازاتها، يحدث للفتى ارتباكًا واشمئزازًا، ولاسيما أنه من الصعب السيطرة عليها في بعض الأحيان نظرا لخضوعها "للأفعال المنعكسة".

وإن نضوج الغدد الجنسية، بلا شك من أظهر علامات حلول المراهقة. وليست أهميتها ناشئة من مجرد نموها في حد ذاتها فقط، بل من التغيرات

الوجدانية التي تصحبها أيضًا، وسنفصل ذلك عند الكلام على التغيرات الوجدانية.

وتفرط غدد العرق في إفرازاتها، ولذا كثيرا ما نلاحظ أيدي التلاميذ في المدارس الثانوية ووجوههم تفيض بالعرق أكثر من تلاميذ المدارس الإبتدائية، مما يسبب لهم مضايقة عظمى، لاسيما في حصص الرسم وغيرها، التي يخشون فيها تلويث كراساتهم بالعرق الذي يفيض من أيديهم.

وتزيد كمية العرق المفرز باشتداد الحر، ولكن أي عمل يثير فيهم انفعالات قوية يزيد في عرقهم أيضا، كالارتباك والخجل، أو إعمال الفكر في واجب مدرسي صعب، كمسألة حسابية صعبة، أو تمرين هندسي عويص، أو خريطة معقدة وهكذا.

وسخرية التلاميذ من أحد زملائهم تزيد في إفرازه وتزيد في ارتباكه على أن تلك الغدد لا تلبث أن تعود إلى حالتها الطبيعية بعد استقرار النمو العام للفتى أو الفتاة.

كذلك تنمو المعدة لتسد حاجة الجسم الذي نما، وتنمو بقية أعضاء الجهاز الهضمي بنفس النسبة، كما أن الرئتين والقلب تنمو ويزداد حجمها، وتستطيع الرئتان في هذا الدور تحمل العبء الذي يوضع عليها، ولو كان ثقيلا، وتتشكلان لمواجهته والقيام به، على عكس القلب الذي ينوء بالمجهود الذي لا يتناسب مع حجمه وقوته في هذا الدور.

أما المخ فلا يشاهد فيه نمو فجائي، سواء في الطول أم العرض أم الوزن، فهو والرأس يكونان قد وصلا إلى تمام نموهما تقريبا، قبيل دور المراهقة. فرأس الرضيع الحديث الولادة كبيرة جدا بالنسبة لجسمه، وتنمو من الولادة إلى سن السادسة بدرجة أبطأ من الجذع والأطراف.

ولو احتفظ إنسان بالنسبة بين رأسه وهو رضيع وبين جسمه، لكان شكله عجيبا، إذ تكون رأسه ضخمة جدًا. وعند السادسة، تكون الرأس قد بلغت حوالي تسعة أعشار حجمها عند تمام نموها، وعند الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، لم يبق لها من النمو إلا ما يعادل ٥٪ أو ٦٪ من محيطها الذي ستبلغه عند تمام نموها.

هذه التغيرات السريعة تجعل الفتيان والفتيات عرضة لبعض الأمراض والعاهات، إلا إذا عني بهم، واتخذت الحيطة الكافية لوقايتهم منها، فمثلا يزيد تعرضهم لمرض الأنيميا، واعوجاج العمود الفقري، والنزيف الأنفي، ووجع الرأس، واختلال ضربات القلب، والأمراض العصبية.

وتتضح لنا أهمية هذا الخطر من الإحصاءات التي وصل إليها السير وليم هيمر، من بحث أجراه على ٢٠٠٠ تلميذة من تلميذات المدارس الثانوية في انجلترا، إذ وجد أن ٦٨٪ عندهن أنيميا، ١٦،٧٪ عندهن اعوجاج في العمود الفقري، و١٥،٢٪ يشكون ضعف البصر.

وهذه الزيادة في نسبة الأمراض والعاهات، تدل دلالة واضحة على أن المدرسة لم تعد إعدادا صالحا للمراهقين بعد، حتى في بلد كانجلترا، يعتبر فيها التعليم أحسن مما عندنا بكثير، ولاسيما العناية بالتربية البدنية. ويتعرض الفتيان لكثير من أمراض الصدر والقلب، ولكن يلوح أن الإجهاد العقلي لا يضربهم ضرره بالفتيات.

ويقول السير وليم هيمر، إن نسبة ضعف البصر تزداد في المدارس الثانوية، من السنوات الأولى إلى السنوات الوسطى؛ أي التي في منتصف المرحلة.

هذه الأمراض والعاهات ناتجة من تلك السرعة في النمو، التي قد لا يكون الجسم مستعدا لها بعد، ولابُد لكل من يشترك في تربية النشء أن يتخذ لها العدة الكافية. فمثلًا يضطر القلب في دور المراهقة، لبذل جهد أكبر من ذي قبل نظرا لكثرة الدم الذي يجب عليه أن يرسله إلى الأورطي كل ثانية من ثواني الحياة. فعند الولادة، يقذف القلب إلى الأورطي عشرين جراما من الدم في الثانية، تزيد حتى تبلغ ثلاثا وستين جراما في سن الثالثة، ولا تزال تزيد حتى تبلغ ١٤١ جراما في سن الرابعة عشرة؛ أي أكثر من ٢٠٠٪ من المقدار الذي كان يرسله في الطفولة إلى الأورطي. هذا مع العلم بأن القلب ذاته لم يزد حجمه إلا بقدر ٣٠٪.

ومعنى هذا أن القلب يعمل بقوة أكبر مما كان يعمل في أيام الطفولة. فالواجب إذن أن لا يكلف المراهقون أو المراهقات، ببذل جهود رياضية مرهقة، حتى يتعرض القلب للتضخم، وهو كثير الحدوث في هذا الدور. كما أن الإفراط في مستلزمات الحياة الاجتماعية، قد يؤدي إلى الإضرار بصحة المراهقين والمراهقات أيضا، فالإفراط في السهر والتدخين وحفلات اللهو والشراب، كلها تستنفد من حيوية الناشئين ما لا يعوضه إلا فترات طويلة من الراحة، قد لا يجدها المراهق وهو في أعز الحاجة إليها.

هذا ويلاحظ أنه على الرغم من ازدياد تعرض المراهقين للأمراض في هذا الدور، فإن نسبة الوفيات تكون أقل عندئذ منها في أي دور آخر.

هذا عن الوفيات الطبيعية، أما الوفيات الناجمة عن الحوادث، فإنها تزداد في هذا الدور، وربما كان هذا راجعًا إلى الحرية التي اكتسبوها عندئذ، فنجد أن حوادث الغرق والسيارات والأسلحة النارية، ربما كانت أكثر في هذا الدور منها في أي دور آخر، وهذا يعزي إلى أن تلك الآلات والمخترعات

الحديثة يبدأ المراهقون في استعمالها عندئذ، من غير رقيب، على قلة خبرتهم بها.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن هناك نموا فجائيا يظهر مرة واحدة في حياة الفرد، ولذا نؤكد هنا أن النمو الذي ذكرناه لا يكون فجائيا في وقت من الأوقات، بل هو تدريجي في جميع أوقاته، وإنما يكون أسرع في آونة منه في أخرى. كما تجب ملاحظة أن النمو مع تباينه في الأعضاء المختلفة، يظل وحدة تامة مترابطة النواحي، وما يحدث لعضو من الأعضاء يكون شديد الاتصال بما يحدث لبقية الأعضاء.

وليس من شئ في أن دراسة نمو المراهقين الجثماني ذات أهمية عظمى للمشرفين على أمورهم وتربيتهم لأنها تشرح، في كثير من الأحيان، ميولهم نحو أنواع معينة من الألعاب، وظهور التآخي بين بعض الأفراد. وليس من شك في عظم أهمية هذه الدراسة لمعلمي التربية البدنية، لشدة اتصالها بالنمو الجثماني، والتوافق بين حركات أعضاء الجسم المختلفة، ولا يغيبن عن الذهن أن مشاكل النمو الجثماني شديدة الارتباط بالنمو العقلي والنفسي، وهما شديدا الاتصال بتربية الفتى والفتاة.

ب- التغيرات العقلية

لا يقتصر الأمر على التغيرات الجسمية فقط، بل هناك أيضا تغيرات عقلية ذات بال، ولها علاقة وطيدة بالتغيرات الجسمية، فقد دلت الأبحاث على وجود علاقة بين القدرات الجسمية والعقلية، ولو أن هذه العلاقة ضئيلة القدر في بعض الأحيان. فمثلا لا يوجد فرق بين ضعاف العقول وغيرهم، من حيث النمو الجثماني، اللهم إلا في علامات معينة.

ويتضح في دور المراهقة نمو في القوى العقلية، كالحكم والتعليل والفهم والذاكرة وتركيز الانتباه. ولاشك في أن بعض النمو راجع إلى نمو بعض العادات العقلية لدى الإنسان، في أثناء دور الطفولة، حتى دور المراهقة، أن بعض النمو راجع إلى السير الطبيعي للنمو الإنساني فقد دلت الأبحاث التي أجريت على عملية التعلم مثلا، على أن قدرة الشخص تأخذ في الازدياد حتى تصل إلى وقت معين تكون الزيادة فيه ضعيفة، ويظهر الخط البياني الذي يمثل عملية التعلم عندئذ، كأنه هضبة وكأنه ثابت غير آخذ في الارتفاع ثم لا يلبث بعد فترة معينة أن يعود إلى الارتفاع، دالا على ازدياد قدرة الشخص على التعلم.

وقد تعزي هذه العودة للزيادة إلى تناسق عادات المرء وثباتها وإتقانه لها وتمكنه من العمليات التي تعلمها. ويتم ذلك في فترة الركود أو (الهضبة).

ولقد استعملت الاختبارات العقلية لقياس قدرات المراهقين في أوروبا وأمريكا على نطاق واسع، وأخذت تستعمل كذلك في مصر منذ عهد قريب. وقد أصبحت نتائج تلك الاختبارات معينا لا ينضب، نستمد منه الكثير من الحقائق النفيسة عن النمو العقلي مما يعد أكبر معين للمعلمين في المدارس الثانوية، أو غيرهم ممن يهمهم أمر هذا النشء، كالآباء والأمهات ومديري المعاهد وإصلاحيات الأحداث وغيرها.

وقد أجرت الأستاذة أوليف هويلر بحثا على مائتي شخص فوجدت أن من بينهم مائة وعشرين يذكرون أنهم بدا لهم في دور المراهقة شغف عظيم بالمطالعة و١٠٩ بدت لهم الطبيعة في ثوب جديد فأحبوها وهاموا بها و٥٨ أخذوا في نظم الشعر، بينما ٤٦ منهم أحبوا الأبحاث العلمية.

كذلك تزداد الحواس دقة وإرهافا، كاللمس والذوق والسمع. وتتسع نواح خاصة من الخيال وعلى الأخص النوع المسمى " أحلام اليقظة " التي يلجأ إليها الفتى لتحقيق آماله التي لا يرى مجالا لتحقيقها في الحياة العادية، فيتصور نفسه بطلا في الألعاب الرياضية مثلا، وكل من في المدرسة يشيرون إليه بالبنان، أو يتصور نفسه محط أنظار الفتيات، وهو يتيه عليهن خيلاء وعجبًا.

وإذا اشتدت عليه أعباء الحياة المدرسية، فقد يتخيل نفسه قد بن كل أقرانه في الامتحان وأصبح حرا طليقا لا يطالب بالدراسة، أو اجتياز الامتحانات، وهكذا تبعا لظروفه الخاصة به وميوله وأمانيه. وليست أحلام اليقظة في حد ذاتها بالأمر الشاذ، فكلنا قد مارسناها يوما ما، ولكن الشاذ هو كثرة الانغماس فيها، والالتجاء إليها على الدوام، كلما واجه الشخص مشكلة أعياه حلها. فهي ملجأ مريح يهرب إليه الشخص لينسى ما يُواجهه من متاعب، ولذا يحتمل أن يستعذبه الفتى فيصبح عادة يصعب التخلص منها، فتتسع الهوة بينه وبين الحياة الحقيقية، ويتسلط عليه الخيال، ويعجز عن حل أموره الصعبة أولًا ثم السهلة بعد ذلك، فيفشل في الحياة أيما فشل ويصبح مدمنا عاجزا مسكينا، وهكذا تسوء حاله الخلقية والاجتماعية والاقتصادية.

وليس بخاف على أحد ضرورة تيقظ المعلمين والأبوين لتلك الظاهرة، ليعملوا على تلافيها قبل استفحالها. وخير وسيلة لعلاجها، هي تزويد الفتى أو الفتاة بما يشغل وقتهما وتفكيرهما، ويتفق مع ميولهما وشوقهما، حتى يجذب لبهما ويصرفهما عن الاسترسال في أحلام اليقظة.

ولذا كانت الهوايات hobbies المدرسية أو المنزلية من أفيد وسائل التربية لمن هم في دور المراهقة كالتصوير وركوب الدراجات والعزف على

الآلات الموسيقية والسباحة ومسابقات الجري وكرة القدم وغيرها، فهي كلها مفيدة، ما لم يغال فيها بحيث تشغل وقت المراهق كله وتشغله عما عداه من مصالحه الحيوية.

وتبدأ روح حب البحث والاستقصاء في هذا الدور، كما يتجه الفكر نحو الأمور الدينية ويرغب في بحثها واستقصائها. ويحسن أن تشيع ميول المراهقين في هذه الناحية، من غير استرسال في مناقشات، أو مجادلات عديمة الجدوى.

وقد دلت مقاييس الذكاء على أن ذكاء المراهقين لا ينمو نموا فجائيا، بل يسير سيرا طبيعيا. ومقاييس الذكاء عادة إما لفظية أو غير لفظية، والأولى تتركب من ألفاظ، وتقوم على فهم المختبر لمعانيها. أما الثانية فتقوم على حركات وأعمال لا كلام فيها.

وقد استعملت الأولى مع المراهقين بنوعيها وهما النوع الجمعي، والنوع الفردي. فالمقاييس الجمعية هي التي تعطي لجماعات من المختبرين دفعة واحدة، والفردية هي التي تعطي للأفراد واحدا فواحدا. ومن أشهر المقاييس الفردية مقياس (بينيه – ترمان – ميرل) ويمكن تطبيقه على الأطفال من سن الثانية حتى الكبار النوابغ، وهو من الاختبارات اللفظية. ومن الاختبارات الجمعية المستعملة مع المراهقين، اختبار ترمان، واختبار أوتس Otis واختبار برسي Pressey.

وقد وجد الدكتور بالارد باختبار المراهقين في انجلترا، أن الخط البياني الذي يبين نمو الذكاء في هذا الدور، لا تشاهد فيه نتوءات أو صعود فجائي أو هبوط فجائي. هذه النتيجة وصل إليها طبعا من إجراء اختبارات عديدة للذكاء. وقد وصل أيضا بإجراء هذه الاختبارات، كما وصل غيره من علماء

النفس، إلى نتيجة هامة، وهي إن نمو الذكاء الطبيعي يقف حوالي سن السادسة عشرة، ولو أن علماء النفس لم يجمعوا كلهم على هذه النتيجة بعد. هذه حقيقة هامة لها قيمتها في هذا الدور، فكما أن دور المراهقة يصل فيه كثير من الأعضاء إلى غاية نموها، فكذلك يصل الذكاء الطبيعي إلى غايته. أما ما يلاحظ من نمو عقلي بعد ذلك، فيفسره بعض علماء النفس بأنه نمو في الخبرة المكتسبة، وفي المقدرة على استخدام الموهبة الفطرية.

وعلى ذلك نستطيع القول، إن المقدرة العقلية تظل في الازدياد بعد وصول الذكاء الفطري إلى نهايته. ولكن يلاحظ أيضا في هذا الصدد، أن نوع الاختبار المستعمل، قد يكون ذا علاقة وطيدة بالنتيجة التي يحصل عليها مستعمل الاختبار. فقد وجد الباحثون، في أوائل أيام الاختبارات العقلية أن نمو الذكاء يقف في السنوات الأولى أو الوسطى من المراهقة. ووصل الذين اختبروا ذكاء الجيش الأمريكي، في الحرب العظمى الأولى إلى أن النمو يقف حوالي سن الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة. ولكن الأبحاث الأخيرة، دلت على أن وقوف النمو أمر ظاهري فقط يرجع في الحقيقة إلى نوع الاختبار المستعمل. فمثلًا يبين أحد اختبارات الذاكرة وقوف نموها حوالي سن الثانية عشرة. بينما الاختبارات التي تتطلب التعليل أو المعلومات العامة أو استخدام المدركات الكلية اللفظية، تبين استمرار النمو حتى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة.

وتستمر اختبارات الكلمات vocabulary والفهم وتكملة الصور في إظهار النمو، إلى ما بعد انتهاء دور المراهقة فكأن الأبحاث الحديثة تكذب النتيجة التي وصل إليها العلماء سابقا، القاتلة إن النمو العقلي يقف في معظم نواحيه بحلول دور المراهقة، أو حوالي منتصفه.

والمفروض بوجه عام، أن نسبة ذكاء المرء تبقى دائما على ما هي عليه. غير أن الأبحاث الحديثة تدل على حدوث تغيرات طفيفة، إما بمرور الزمن وإما بتغير الاختبار. والأفضل عندئذ اعتبار النتائج التي يحصل عليها الباحثون من تطبيق نفس الاختبار عدة مرات في فترات منتظمة متعاقبة.

ويقرر بعض العلماء، استمرار ذكاء المراهقين في النمو، إلى ما بعد سن السابعة عشرة. وقد أورد هذه النتيجة فريمان Freeman من اختبارات طبقت سنويا من سن الثامنة إلى السابعة عشرة.

وزيادة على ما سبق، فإن هذا الذكاء الذي زاد وقوي في دور المراهقة، يوجه وجهات جديدة؛ أي أنه بعد أن كان مجاله ضيقا في عهد الطفولة، لا يعدو البيئة المادية الضيقة التي تحيط بذلك الناشئ أصبح الآن مجاله البيئة الاجتماعية، بما فيها من أهواء وأغراض وقرائح مشحوذة، فمشكلة الحياة قد تغيرت، من مجرد إشباع أغراض أولية بسيطة، كالمحافظة على النفس، والحصول على الطعام، وإرضاء غريزة حب الاستطلاع مثلًا، إلى تفهم الأغراض والأهواء الإنسانية، والدوافع الخفية في صدور الناس.

ولا يقف الفتى عند ذلك، بل يسمو إلى محاولة تفهم منشأ الكون، وأسرار الطبيعة العويصة، فيلاحظ النجوم والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار، ويلقي عليها نظرات عديدة، لا نظرات الاستغراب والابتهاج والبساطة، التي تعود أن يلقيها في عهد الطفولة، بل نظرات بحث واستقصاء، محاولا اختراق حجب الأسرار التي تحيط بها.

ولذا فإنه يقبل على مطالعة كتب الفلك البسيطة بشغف عظيم. كما أن العالم الروحي، بله العالم الاجتماعي والعالم الطبيعي، أصبح يشغل باله، ويتطلب من ذكائه جهدا عنيفا، فتراه ينغمس في مجادلات عن الديانات،

ولاسيما بعد أن زاد محصوله من الألفاظ، إذ يقدر عدد الألفاظ التي يعرف معناها في أوائل دور المراهقة بحوالي عشرة آلاف كلمة. ويلذ للفتى الآن أن يؤثر في سامعيه بسحر بيانه، وطلاقة لسانه، كما أنه يتأثر نفسه بعظماء الرجال، ومصاقع الخطباء. ولذا فإن الإقبال على المناظرات،

في هذا الدور يشتد، ويرغب الفتى في الجمعيات المدرسية التي تعطيه فرصة لإظهار مهارته وتفوقه في تلك الناحية. وليس هنا من داع لأن نحث المدرسين في المدارس الثانوية على أن يشجعوا هذا الميل، لأنه موجود قوي لا يحتاج للحث، وكل ما يجب عليهم هو أن لا يقفوا في سبيله، وأن يمهدوا له سبل الظهور؛ لأن إشباع هذا الميل يبعث السرور في نفس الفتى، فضلا عن أنه ذو فائدة له في حياته المستقبلة.

وإنا نرى أن المجادلات الدينية عديمة الجدوى له، وتؤدي إلى إثارة الشكوك في أمور لا يكون استعداده مناسبا لها، وتجعل الفتى على قلة خبرته في الحياة، وضعف قدرته في المنطق والجدل والبيان، فريسة لذوي الأغراض الذين قد ينتهزون فرصة إقباله على الأبحاث الدينية، وسيلة إلى غوايته.

غير أننا لا ننصح أن ينهي الفتى عن الخوض في هذه الأمور كلية، أو أن يكمم فوه كلما هم بالكلام فيها، لأن هذا يصغَر من قيمة الدين في نظره، إذ قد يتطرق إلى نفسه، أن منعه من الخوض فيه إن هو إلا غطاء لمواضع ضعف يظهرها الجدل، فيصر على رأيه، ويستسلم لأوهامه، ويعمل على استقاء المعلومات من مصادر غير صحيحة، حسبما يقع في يده منها، وقد يتصل به المبشرون فيزودونه بالكتب والمجلات التي تفسد رأيه وتغير عقيدته.

ولذا نرى واجبا على المعلمين والآباء أن يناقشوه ويبينوا له مواضع الضعف في عقيدته، لا بالأوامر والنواهي العمياء، بل بالحسنى والجدل

المنطقي الذي يقبله عقله، كما يجب عليهم أن يزودوه بالكتب التي تشفي غليله، وتطفئ ظمأه إلى تلك الناحية الروحية من حياته الجديدة، وأن يفتحوا صدورهم له كلما أراد أن يتعلم شيئا.

نعم إن كثيرا من أسئلته تكون صعبة، وبعضها يتطرق بالحديث إلى الفلسفة وما وراء الطبيعة، وقد لا يستطيع كل الآباء أو كل المعلمين أن يسيروا معه في طرقاتها الصعبة الوعرة، ولكن يجب عليهم عندئذ ألا يخدعوه ويحاجوه بالأدلة الكاذبة، بل عليهم أن يثبتوا عجزهم عن الجدل، وأن يوضحوا أن فشلهم في المحاجة ناتج عن عجزهم وقصورهم، لا عن عجز الدين وقصوره، وعليهم أن يشيروا عليه بمشورة من هو راسخ في العلم ليتباحث معه، ويفضل أن يعينوا له ذلك الشخص، أو المصادر التي يجد فيها ما يريد.

وقد قامت الأستاذة أوليف هويلر Olive Wheeler ببحث، لمعرفة الوجهات التي يسير فيها النشاط العقلي في هذا الدور، فوجدت أنه يستيقظ عندئذ، ولو أنه يتخذ طرقا مختلفة في الأفراد المختلفين، فوجدت أن عددا كبيرا ممن أجرت عليهم البحث أظهروا ميلًا جديدًا للمطالعة عند المراهقة، وشغفا بالكتب، واهتمامًا بالأُمور العلمية، وأن ثلثهم بدأ فيهم عندئذ شوق للعلوم والأبحاث العلمية، كالرياضة والطبيعة وعلم الحياة والجغرافية.

هذه النتيجة التي وصلت إليها ذات مغزى، إذ تدلنا على أن الطفل الذي كانت المحسات أهم ما في خبرته، والذي كان يصعب عليه فهم المعنويات المجردة صار الآن قادرا على التخلص من ربق المحسات، وأصبح في استطاعته أن يُفكر تفكيرًا معنويًا مجردًا.

يدل على ذلك ميل الفتيان عندئذ إلى البحث العلمي، وتغلب الروح العلمية الدقيقة عليهم، واشتغالهم بالأمور الفلسفية، التي يكاد يكون كل مبحثها المعنويات المحضة، والمسائل الدينية. كذلك دل البحث على نمو الناحية الإنسانية في ذلك الدور، فيشعر المراهق بميل لآداب اللغة، وإلى قراءة القصص والروايات، وتاريخ حياة مشاهير الرجال والتاريخ بوجه عام، فضلا عن حماسه الشديد للأمور السياسية. هذا بعكس الطفل الصغير، الذي كان محبا لنفسه، لا يهمه من أمر من يحيطون به شئ، والذي كان منصرفا إلى تعرف خواص الأشياء والماديات، بدلا من خواص المجتمعات البشرية والتفكير الإنساني.

أما المراهق فقد اتسع أفقه العقلي والجسمي، وأصبح محيطه أكبر من ذي قبل واختلاطه أوسع، فيبدو لديه الميل للاشتراك في الألعاب الجمعية، ويفضلها على الألعاب الفردية، لأنها تمهد له فرصة الاختلاط واحتكاك الآراء ومقارنة نفسه بإخوانه، عقلا وجسما. وكما تلذ له المنافسة تروق له الأعمال التعاونية. وهذه الحقيقة يجب على المعلمين الاستفادة منها في المدارس الثانوية، لتربية المراهقين والمراهقات، ووضع أساس عادات والتعاون، التي لابد سيكون لها أثر بين في حياة التلاميذ بعد الانتهاء من دراساتهم.

ونظرًا لاهتمام المراهقين بالعالم الاجتماعي، نرى أن ذلك الدور مناسب لتفهيم المراهق شيئا عن السلوك الإنساني، والعلاقات الاجتماعية، ولا بأس بإعطاء بعض حقائق من علم النفس، مع عدم التعمق في النواحي النظرية، بل يحسن الاقتصار على النواحي العملية، التي تتمثل في علاقات الناس بعضهم ببعض، والتي تشرح له الدوافع النفسية، وتعينه على فهم نتائج تلك الدوافع، وتجعله أكثر تسامحا، وأقل شططا في الحكم على الناس.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن ذكاء المراهقين له أثر مباشر في ميولهم ونواحي اهتمامهم، فقد وجد أحد الباحثين فرقا بين الأذكياء والأغبياء، فيما يحبون قراءته. فوجد أن الأغبياء يحبون القراءة عما يقع في محيطهم العادي، في حين يتسع ميل الأذكياء للقراءة عما هو أبعد من حياتهم اليومية العادية. ولقد أظهر الأغبياء كذلك غراما أقل من غرام الأذكياء بالقطع الفكاهية.

وقد ثبت من بحث الأستاذة هويلر، أن المراهقين الذين ظهرت عليهم أعراض حب العلم والاطلاع، لم تكن الأمور النظرية البحتة والمشاكل الفكرية الصرفة، أهم ما يروق لهم ويأخذ بليبهم، بل حلت الرياضة البدنية، والألعاب في الهواء الطلق في المقدمة. كما أن الأعمال اليدوية كانت ذات مركز ممتاز لديهم. فالكثيرون (٥٠٪) ممن أجرى عليهم البحث ذكروا أن أهم هوية يحبونها، المشي الطويل وركوب الدراجات وفلاحة البساتين والزراعة، وبالجملة الأشياء التي تدعو العقل والجسم للاشتراك معًا.

في حين أن ٣٥٪ أحلوا الأعمال اليدوية في المقام الأول، كالحفر والنجارة والتصوير الشمسي والرسم والعزف على البيانو وشغل الإبرة والأعمال المنزلية، وحل وتركيب الأدوات الميكانيكية. وإذا أضفنا الرقمين إلى بعضهما، ثبت لنا تماما أن ١٥٪ من المراهقين يعطون المكان الأول من أنفسهم، لتلك الأعمال التي يشترك فيها العقل والجسم معا، لا الأعمال الفكرية المحضة ولا الأعمال اليدوية الآلية المحضة التي لا تحتاج إلى فكر.

ولا نود أن نألو جهدا في تذكير المعلمين والآباء والأمهات، بأن هويات المراهقين لها أثر هام في حياتهم المستقبلة، وبأن الكثير منها يتوقف عليه نجاحهم في حياتهم العملية. فالهويات التي تمثل شغف المراهقين وغرامهم، قد تحدد في كثير من الأحيان، اختيارهم لمهنتهم، واختيارهم لأصدقائهم.

فالشاب الذي يغرم بالألعاب الرياضية في المدرسة، قد يظل كذلك طيلة حياته، ويجد نفسه منجذبا لمن هم على شاكلته من رجال السباحة، أو الملاكمة أو العدو. ولقد تجده ملتحقا بالأندية الرياضية، ومتتبعا للصحف والمجلات التي تكتب عن الرياضة والرياضية، وقد يصل غرامه إلى احتراف نوع من أنواع الرياضة، وهكذا. كذلك التلميذ الذي يقوم بالتمثيل في المدرسة، قد يحقق غرامه بأن يصبح ممثلا يكسب من التمثيل أوده. وما يُقال عن الرياضة والتمثيل يقال عن بقية الهويات كالتصوير وتحرير الصحف والخطابة وغيرها. وغني عن البيان أن المدرسة المصرية لا تزال تنظر بعين الازدراء إلى الهويات، وتحلها في المحل الثاني، بعد العلوم الجدية، التي تعقد فيها الامتحانات، وتمنح فيها الشهادات، والواجب أن يفسح المجال للهويات وأنواع النشاط الحر أكثر مما هو الآن، لأنها لا تقل أهمية في حياة التلميذ، الحاضرة والمستقبلة، عن اللغات والجغرافية والهندسة والجبر وغيرها من العلوم التي تعني بها المدرسة المصرية الثانوية.

ج- التغيرات الوجدانية

ولو أن التغيرات الجسمية والعقلية التي ذكرناها ذات بال، وإهمالها يؤدي إلى خطر لا يستهان به، إلا أن التغيرات الوجدانية أهم، وأثرها أدوم في حياة المراهقين المستقبلة، فبذورها التي تبدو في النمو عندئذ، تتخذ شكل الوسط الذي تنمو فيه، وتتأثر بالتربية التي تتأصل فيها، فإن كانت صالحة صلح النبات، وإن كانت فاسدة تحولت إلى جرثومة فساد، قد يصعب اجتثاثها فيما بعد. وأهم هذه التغيرات الوجدانية هي التي تتصل بالمسائل الجنسية، ولا يخفى على أحد ما لها من خطر في حياة البشر. وكذلك يزداد حب المراهقين للطبيعة فيهتمون بها، ويقومون بالنزهات الخلوية.

ومن الأمور الهامة أيضا، بدء الشعور بالذات، وبمركز الفرد كعضو في الهيئة الاجتماعية، بعد أن كان الطفل في الأيام السالفة لا يهمه سوى إشباع رغباته، بصرف النظر عما يقوله المجتمع عنه، فإذا أراد اختطاف لعبة زميله اختطفها، ولا يهمه أن تقول إنه أناني، وإذا رأى حافظة نقودك ملقاة على المائدة، تفقدها وبحث ما فيها، ولا يهمه أن يتهم بالسرقة، أو بالفضول، أو بسوء التربية المنزلية.

أما الفتى البالغ فإنه يقدر رأي المجتمع كل التقدير، ويحاول إرضاءه بكل ما أوتي من قوة، ويحب أن يسمع المدح والثناء، فإذا اتهمته بالأنانية تأثر، وربما انقلب الأمر إلى الضد فضحَى بمصلحته في سبيل الجماعة، وإذا رأى حافظة نقودك اشمأزت نفسه من أن يمد يده إليها.

ولنضرب لك مثلا يوضح ما نقول: تعرفت في وقت من الأوقات بعائلة إنكليزية في إنكلترا، وكانت لهم طفلة من أقاربهم تزورهم كل أسبوع مرة وكثيرا ما حدثوني عنها وفخروا بها لذكائها وبراعتها في العزف على البيانو على صغر سنها، إذ كانت تبلغ التاسعة عندئذ، وما هي إلا أياما معدودة حتى أتت لزيارتهم وقت وجودي، فدعتها عمتها للعزف على البيانو أمامي لتثبت لي صحة ما ذكرته عنها، وفعلا لم تتأخر تلك الطفلة بل اتجهت توا نحو البيانو وجلست أمامه مستعدة، ثم سألتني بأي دور أريد. فاقترحت العمة دورا، سرعان ما عزفته تلك الفتاة الصغيرة، ثم ثانيا وثالثا في غير ما وجل أو استحياء.

مضت الأيام والشهور وأنا أسألها كل بضع زيارات أن تعزف دورا على البيانو وهي تفعل، ثم انقطعت الصلة لعودتي إلى مصر، ثم سافرت ثانية إلى انجلترا، وجمعتنا الظروف في مجلس، ولكنها لم تكن طفلة الأمس بل فتاة

اليوم، إذ كانت تبلغ حوالي الثالثة عشرة، فسلمت علي باستحياء لم أعهده فيها من قبل، وكان حديثها أكثر تكلفا، وكانت تطيل التفكير قبل أن تأتي عملا أمامي، ثم طلبت منها، على سبيل الفكاهة والتذكرة، أن تعزف دورا على البيانو، واشتركت معي عمتها في الطلب وألحفت في السؤال، فكان نصيبنا الرفض، وكلما ألحفنا في السؤال، زادت حياء وارتباكا وإباء، معتذرة أنها لا تجيد العزف، رغم أنها كانت تفوز في كل مسابقة تدخلها، وأنها حازت شهادة في الموسيقى، تفوقت فيها على الكثيرين ممن هم أكبر منها سنا. لم يكن هذا بمستغرب، فطفلة الأمس لم تكن لتهتم برأي الجماعة، ولذا كانت جريئة تجيب الطلب من غير تردد، أما فتاة اليوم، فهي تحب أن تظهر بالمظهر اللائق، وتحب حسن السيرة، وتهتم برأي الجماعة عنها، وعلى الأخص إذا ما كان بالجماعة أفراد من الجنس الآخر، حيث يهمها أن تظهر أمامهم بمظهر الكمال، مما يزيد في حيرتها وارتباكها، لخوفها من ان تخطئ فلا تحظى بالإعجاب.

أما عن الانفعالات الجنسية، فتطورها في هذا الدور ظاهر بيَن، وقد أيدته نتائج البحث، إذ ظهر في ٨٣،٥٪ من الأفراد الذين أجري عليهم الاختبار، فقد اعترفوا بظهور الميل نحو الجنس الآخر، وكثيرون منهم وقعوا في شراك الحب بضعة مرات، وهذا لم يكن له مجال في عهد الطفولة. ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا من الفتيان أو الفتيات في هذا الدور، أو على الأقل في مبدئه، يقعون في حب من هم أكبر منهم سنا. هذه حلقة في تطور الحب الذي كان في السابق متعلقا بالأب والأم، فيحب الفتى الناشئ معلمته مثلا التي تكون أكبر منه سنا ويكون الحب عندئذ مختلطا بشئ من الأعجاب خياليا أكثر منه عمليا، وليس كالحب الذي ينشأ مثلا بعد سن العشرين أو

الواحدة والعشرين، والذي يكون من مميزاته أن يحب الفتى من هم أقل منه سنا، وأضعف قوة وبدنا، ففي أثناء هذا الانتقال من حب الأب والأم الذي قوامه العطف والإعجاب والاعتراف بالجميل والشفقة والحنان، إلى الحب العملي، الذي قوامه تقدير الجمال وصفات الأنوثة والضعف والحاجة إلى الحماية فضلا عن الحاسة الجنسية، في أثناء هذا التطور لابد أن يمر الحب بدور يأخذ فيه من كل بعض الصفات. فالحب الأبوي يظهر في التعلق بمن هم أكبر من الفتى أو الفتاة سنا، كما أن الشعور الجنسي يبدو في التعليق بمن هم من الجنس الآخر ليس إلا، وهذا معنى ما ذكرناه من أن الحب عندئذ خيالي أكثر منه عمليا، فهو حب للصفات الجنسيه، لا للأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك الصفات. وهذا يوضح لنا ما نراه من هيام الفتيات في هذا الدور بنجوم السينما، لأنه هيام بصفات الرجولة التي تتمثل فيهم، كالقوة والشجاعة وحب المخاطرة وحماية الضعيف والأدب مع النساء والتضحية بالنفس في سبيل نصرتين، فتلك صفات لا شك تدعو إلى الحب، أي الحب الممزوج بالإعجاب، أما الناحية الجنسية، فهي لا تعدو هذا الإعجاب بصفات الرجولة، في حالة الفتيات، وبصفات الأنوثة، في حالة الفتيان. ومما هو جدير بالملاحظة، أن الخوض في المسائل الجنسية مع البالغين الحديثي البلوغ، يحدث اشمئزازا أو ضجرا لديهم أو لديهن ويمكن تشبيهه بالهبوط من حلم جديد إلى أدناس الحياة العملية الحقيقية التي ليس للخيال أو الأحلا مجال متسع فيها، ولذا نرى أن الفتاة إذا عرضت عليها أمها أمر الزواج في السنين الأولى من هذا الدور، ترتبك وتغضب، فإذا ألحت عليها، نفرت ورفضت الخوض في هذا الموضوع ثانية كأنه سبة أو أمر معيب. هذا في الوقت الذي تحلم فيه بنفسها كأميرة يخر على قدميها الأمراء يطلبون يدها.

ولقد عثرنا في بعض خطابات المراهقين على ذكر " لقبلات " ففي خطاب من فتى (إنكليزي) يبلغ الثالثة عشرة، إلى فتاة إنكليزية تبلغ حوالي هذا السن وردت العبارة الآتية: أني مخاصمك لأنك رفضت أن تعطيني تلك القبلة التي طلبتها منك " فكان الرد من الفتاة " لا يهمني أن تخاصمني، فإني لا أوزع قبلاتي ". قد يتطرق إلى ذهن القارئ أن بالأمر أكثر من ظاهر هذه الألفاظ، ولكننا لا نرى فيه أكثر من القبلات المذكورة، فإن هذا الطلب من جانب الفتى لا يعني شيئا سوى ميله إلى تقليد من هم أكبر منه سنا كوالده، أو أشخاص الروايات السينمائية، الذين يمثلون الرجولة لديه، وما دام هو رجلا ناشئا، فإنه يود أن يحتذي حذوهم. ونذكر للقارئ بهذه المناسبة، أن تلك الفتاة كانت قد سمحت فعلا لصبي آخر أن يقبلها، من خلال الحاجز الحديدي الذي يفصل الصبيان عن الفتيات. أثناء الفسح في المدرسة. وهذا كان السبب في عتاب الفتى الأول الذي ذكرناه. فلما استوضحتها الأمر، قالت إن (روني) وهو اسم الفتى الثاني، يختلف عن (جنجر) الفتى الأول. فيتضح للقارئ إذن أن هذه الفتاة، مع صغر سنها، كانت تمجد في أحدهما صفات لا تمجدها في الآخر، فعطفت عليه. ولو أن هذا العطف لم يكن ليحوي معنى قد يحويه في دور غير هذا الدور المبكر.

ويجدر بنا هنا أن ننبه الآباء والأمهات والمعلمين والمشرفين على المراهقين، إلى أن النمو الطبيعي الصحيح للغريزة الجنسية، يكون موجها نحو أفراد الجنس المقابل، فإذا لم تسنح الفرصة الطبيعية المشروعة لمثل ذلك، اعتراها شذوذ، إذ قد يتعلق المرء بمن هم من جنسه، أي الفتى بالفتى، والفتاة بالفتاة. ومثل هذا الشذوذ قد يحدث في المدارس الخاصة بجنس واحد. ولذا يجب أن لا يألو أولو الأمر جهدا في الاحتياط من مثل هذا النمو الشاذ،

ومراقبة المراهقين، وإسداء النصائح. وشرح النتائج التي تنجم عن مثل هذا الشذوذ خير من الصمت حتى وقوع الذنب ثم توقيع العقاب.

وقد أجرت إحدى الباحثات الأمريكيات استفتاء بين ١٨١ من الفتيات الأمريكيات، فاتضح لها أن ٥٠٪ منهن قد خضعن لهذا النوع من الشذوذ وفي حين أننا لا يوجد لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن نسبة الشذوذ بين نساء الشرق أقل من هذا، إلا أننا لا نظن بأي حال، أنها منعدمة تماما بينهن. كما أن وجود هذا الشذوذ بين الفتيان أمر لا شك فيه.

ولكن يلاحظ أن الدور الذي ذكرناه في بدء المراهقة، الذي يتميز بالإقبال على الجنس المضاد، يتلوه دور آخر بسيط، يتميز بالإعراض عن الجنس المضاد. وهو دور مؤقت لا يستمر طويلا، بل سرعان ما ينتهي، ويتلوه دور الحب الحقيقي، والإقبال على الجنس المضاد إقبالًا حقيقيًا بمعنى الكلمة. ويتميز ذلك الدور المؤقت بإعراض الفتيان عن الفتيات، والرغبة في عدم إشراكهن في اللعب معهم، لبطئهن وعدم مقدرتهن على مجاراتهم، فيكون في اشتراكهن تعطيل لألعابهم، التي يودون أن يظهروا فيها ما اكتسبوه من قوة وشهامة ورغبة في المخاطرة، وهي من أظهر ميزات دور البلوغ. كما أن الفتيات يكرهن الاشتراك مع الصبيان، لأن لعبهم خشن عنيف، فتجدهن دائما في شقاق معهم. وهنا نتساءل عن الحكمة في اعتراض هذا الدور للنمو الطبيعي المستمر للمراهقة. ليست الإجابة على ذلك بالعسيرة، فتلك الفترة تعطي الإنسان فرصة ليحكم تلك الانفعالات والعواطف، التي أصبحت كأنها جديدة عليه، إذ ظهرت ونمت بسرعة حتى كأنها أتت فجأة فأدهشته وأوقعته في حيرة. إذن لابد من فترة استراحة، أو فترة رد فعل، يتعلم فيها الإنسان كيف يسيطر على انفعالاته المتطورة، وكيف يعدل سلوكه نحو الجنس الآخر.

فالطفل لم يكن ليرى عيبا إذا قبله أبوه أو أمه أو إحدى الزائرات، أو إذا ضمته إحداهن إلى صدرها، أو إذا جلس على ركبتي أمه. ولكن بعدما تطورت تلك الانفعالات، وشعر بالميل نحو الجنس اللطيف، تجده يخجل من الاقتراب من أفراده، وعلى الأخص إن كن يعرفنه منذ عهد الطفولة، فتراه لا يعرف هل يسمح لهن بتقبيله وضمه، كما كن يفعلن منذ سنة أو سنتين، أم يعرض عنهن، كما تملى عليه انفعالاته الآن.

ولقد شاهدت الفتيات في بدء عهدهن بدور البلوغ لا يعرفن أي طريق يسلكن تجاه الجنس الآخر، وعلى الأخص أفراد عائلتهن، فتراهن أحيانا ينكمشن، ويعاملنهم معاملة الكلفة، أو بعبارة أخرى معاملة النساء للرجال، وتارة يرفعن الكلفة، فيسمحن لإخوانهن الكبار أو أعمامهن أو آبائهن بمعاملتهن معاملة الأطفال، وهن في كل هذا لا يعرفن أي مبدأ يتخذن لهن، حتى إذا أعطين الوقت الكافي، في فترة الاستراحة المؤقتة التي ذكرناها، علمن مركزهن في المجتمع، وتبين لهن ما أصبحن فيه، وعرفن كيف يعدلن سلوكهن. وهنا نذكر كلمة للآباء والأمهات والمربين، وهي أن هذه التطورات الجديدة في الانفعالات حتم ظهورها، ومهما تجاهلناها فلن نستطيع منعها، وكل ما نستطيع هو أن نمنع مظاهرها الخارجة من الظهور للعيان. فالأب الذي لاحظ أن ابنته قد ألفت نظرة غريبة على ابن عمها، فيضربها ويؤذيها في سمعتها وشعورها بقارص الكلم، ليس حكيمًا؛ لأنه يحاول أن يتجاهل أمام نفسه وأمام ابنته شيئا طبيعيا، إنكاره كإنكار الشمس الطالعة، وسلوكه هذا مضر، لأنه يضطر ابنته لأن تسلك طريق الخفاء بدلا من طريق العلانية، وبدلًا من أن تبوح إليه بما يعرض لها ويشغل بالها، تعمد إلى كتمانه عنه، وتلجأ إلى صاحباتها في حل ما عصى عليها.

هذا موضوع شائك، ولكنه من الأهمية بمكان، ولذا سنفرد له فصلا خاصا فيما بعد، نكتفي بالتنويه إليه هنا.

تتضح في هذا الدور أيضا ظاهرة جديدة، وهي الميل إلى اتخاذ الأصدقاء، وفي كثير من الأحيان، يكون الأصدقاء الذين يتخذون حينئذ أصدقاء حياة، أي تستمر صداقتهم مدة طويلة في حياة الفرد. كذلك يظهر حماس جديد، وحب فائق لعظماء الرجال والأبطال، الذين يمجدون تمجيدا يكاد يشبه العبادة، ويظهر الميل للتضحية بالنفس في سبيل الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، سواء كانت هذه الجماعة مدرسة أو جامعة أو قرية أو أمة. وكل هذه الميول الجديدة يمكن إرجاعها إلى الانفعالات الاجتماعية. وهذه نقطة هامة يجب على من يعهد إليهم بتربية الفتيان في هذه المرحلة أن يتدبروها ويستفيدوا منها، فالفتى يحب الحياة الاجتماعية حينئذ، ويعمل جهده لأن يظهر فيها، ويجد لذة في الاشتغال بها، وما دام الفرد في أيامنا هذه لا يمكن أن يعيش بعيدا عن الهيئة الاجتماعية، وجب علينا أن نعده لها، وأن نعمل على أن يتفوق فيها، ويصبح أهلا لها. وليس عملنا شاقا في هذه الناحية، ما دامت الطبيعة تساعدنا بإيجاد تلك الميول فيه، فهذه فرصة ثمينة لأن نعطيه النصائح اللازمة، التي تجعل سلوكه في المجتمع قريبا ما أمكن من الكمال، وتعوده العادات اللازمة لذلك.

ويترتب على اهتمام الفتى بالأمور الاجتماعية، أن يبدأ يفكر في مركزه بالنسبة لغيره من أفراد الهيئة الاجتماعية، فيقوده هذا إلى التفكير في مستقبله، وفي المهنة التي سيتخذها لنفسه، وفي العادة يكون تفكيره هذا عمليا، بعكس الطفل الذي كان تفكيره في هذه الناحية خياليا، فكثيرا ما يقول الأطفال إنهم يريدون أن يكونوا في المستقبل جنودا للبوليس، أو سائقي

قطارات الترام والسكة الحديد، أو معلمين، إلى غير ذلك مما يسترعي نظرهم أثناء الطفولة، ويقترن لديهم بشئ من ألعابهم، فهم لا يعلمون شيئا عن سائقي الترام، من حيث مركزهم في الهيئة الاجتماعية، ولا من حيث مرتباتهم، ولا من حيث المشقة التي تقترن بعملهم، ولكنهم في نظرهم يملكون شيئا ثمينا لا يملكه أحد غيرهم، ألا وهو تسيير قطار كبير يجتذب لبهم، ويقترن دائما بالسرور في أذهانهم. كذلك جندي البوليس والمعلم، كل منهما له من السلطة شئ كبير، فالأول يأمر وينهي الباعة في الطريق، فضلا عن أن بذلته الرسمية تعطيه هيبة ونفوذا، لا يملكهما أي موظف ملكي مهما علت تبته، والمعلم أقرب الرؤساء إلى الطفل نفسه، كلمته مسموعة، وعلمه لا حد له، فيتكلم متى شاء، ويسكت متى شاء، ولا يعمل إلا متى شاء، ولديه خزائن الدرجات يعطيها لمن يحب، ويحبسها عمن يكره. لا نلوم الطفل على ذلك، فخبرته قليلة. ولكن في السنين المقبلة، أي في دور المراهقة، يكون ذكاؤه قد نما، وخبرته بالحياة قد زادت، فلا تخدعه تلك المظاهر، فيعرف أن سائق الترام إن هو إلا عاملا بسيطا، وجندي البوليس عبد مأمور، والمعلم موظف مأجور، يرأسه الناظر والمفتش، وواجب عليه احترامهما وتنفيذ كلمتها، وهو يرى ذلك بعينيه فلا فائدة من خدعه. وهو في اختياره لمهنته يزن الأمور والمهن، ويضع نفسه في الموضع الذي يظن أنه يليق به. ولكن لا ينبغي علينا أن نحمله من المسئولية أكثر مما يجب، فهو في تلك السنين لا يزال حدثا لم يكتسب من الخبرة الشئ الكثير، ونظرته إلى المهن والوظائف لا تزال مشوبة بشئ من حب الظهور، من غير نظر لبعيد، ومن غير تقدير للظروف الاقتصادية والمالية، فهو قد يفضل وظيفة محترمة تحوي شيئا من السلطان، على وظيفة متعبة درها كبير.

وقد وجدت الأستاذة أوليف هويلر في بحثها، أنه بينما ٨،٥٪ ممن أجرت عليهم الاختبار فكروا جديا في المسائل الدينية أثناء طفولتهم، فإن ٦١،٥٪ منهم شغلتهم المسائل الدينية، وتعلقوا بها، وتحمسوا لها، في عهد المراهقة.

فقد قال كثيرون منهم إنهم شعروا كأنهم اعتنقوا ديانتهم من جديد، لأن عينهم انفتحت لها، فرأتها وكأنها لأول مرة.

ومن المسائل الروحية التي تبدو حينئذ، غير الديانة، حب الطبيعة والموسيقى والفنون والشعر، فقد دل الاختبار على أن عددا كبيرا من البالغين يهيمون ولو بواحد من الفنون المعروفة، دليلا على أن الانفعالات الجمالية قد بدت تظهر لديهم بشكل جديد.

وإذا أردنا أن نلخص ما مضى، قلنا: إن دور المراهقة هو الدور الذي ينقلب فيه الإنسان من الكائن الفردي المحب لذاته، إلى كائن اجتماعي تتوجه ميوله نحو المجموع الذي يعيش فيه، والذي لا يكون هو نفسه إلا جزءا منه. ويصبح شعوره موجها إلى الخارج، بعد أن كان موجها إلى داخلية نفسه، وبعبارة أخرى، في هذا الدور تولد شخصية الإنسان.

الفصل الثالث

الفروق بين الجنسين

تكلمنا في الفصل السابق، عن التغيرات التي تصحب البلوغ، أي بدء دور المراهقة بوجه عام عند البنين والبنات، ولم نشر إلى الفروق التي يختص بها كل من الجنسين.

وسنفصل الآن تلك الفروق، ونستميح القارئ عفوا إذا تكررت بعض الحقائق التي ذكرناها في الفصل السابق، فذلك لا مفر منه إذ سنضطر إلى إعادة ذكرها عند الكلام عن كل جنس على حدة. كما أن الحقائق التي سيرد ذكرها الآن عن كل منهما على حدة، تعتبر مكملة لمميزات النمو التي ذكرناها في الفصل السابق. وقد رأينا تسهيلا للموضوع، أن نقسم الفروق المذكورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية، جريا على خطتنا في الفصل السابق:

(أ) الفروق الخاصة بالجسم، ووظائف الأعضاء، والحواس، وما شابه ذلك.

(ب) الفروق الخاصة بالإدراك، والتفكير، والتذكر، ونواحي الاهتمام العقلية.

(ج) الفروق الوجدانية، الخاصة بالانفعالات والعواطف، وموقف الفرد تجاه العوامل المختلفة التي يصادفها في حياته.

أ- الفروق الجسمية

إن أهم فرق بين الجنسين يسترعي النظر هو طبعا الاختلاف في الأعضاء الجنسية، وهذه بدورها تؤثر في الحالة العقلية، ولو أنا لا نعرف

بالضبط ما هي العمليات الفسيولوجية التي تحدث هذا الفرق، ولا كيفية إجرائه، وكل ما نعرفه هو أن هناك فروقا، وأن تلك الفروق منها ما يرجع إلى اختلاف الجنسين، لا إلى اختلاف البيئة أو التربية.

ثم هُناك فرق بين الجنسين من حيث متوسط الوزن والطول، فالصبيان في المتوسط أثقل بقليل من البنات، وذلك حتى السنة الحادية عشرة تقريبا، وبعدها تزيد البنات، فيصبحن في المتوسط أثقل من الصبيان. ويكون الفرق أولا قليلا، ولكن البنات يزدن بعد ذلك زيادة مطردة حتى الثالثة عشرة. ثم يصغر الفرق في الوزن، ويزيد الصبيان فيلحقون بهن حوالي الخامسة عشرة، ولا تحل السادسة عشرة حتى يزيد الصبيان عنهن، وتظل هذه الزيادة مطردة حتى يصبح الفرق في وقت من الأوقات حوالي ثلاثين رطلا.

أما في الطول، فالصبيان يفوقون البنات حتى سن العاشرة أو الحادية عشرة حين يتساوى الجنسان، وعندئذ تزيد البنات زيادة مطردة حتى سن الثالثة عشرة، حين يكون متوسط البنات يزيد بوصة واحدة عن متوسط البنين، ولكنهن يبطؤ نموَهن ثانية ويلحق بهن البنون، حتى إذا حلت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة نجد أن البنين يزيدون عنهن حوالي بوصتين، ويظل الفرق في الزيادة حتى يصل إلى حوالي خمس بوصات.

ومن حيث حجم المخ، فمتوسط حجم مخ الرجال أكبر بقليل من متوسط حجم مخ النساء. أما من حيث مادة المخ وتركيبه، فليس هناك فرق بين الجنسين وليس من السهل أو المستحسن أن نحاول إيجاد علاقة بين حجم المخ وقوة عمله، وبناء استنتاجات على هذا الأساس، لعدم وجود معلومات وثيقة في هذا الموضوع. ومما يذكر في هذا الصدد، أن أناتول فرانس كان حجم مخه أقل من المتوسط.

ويصل البنات إلى البلوغ قبل البنين. ويختلف البحاثة في السن التي يبدأ فيها البلوغ puberty فعلًا. ويُلاحظ أنه بعد البلوغ تقل كمية الهيموجلوبين التي بالدم عند البنات، ولذا فإنهن يصبحن عرضة للتعب، وتقل قدرتهن على مواصلة العمل، وينتج عن ذلك سهولة تعرضهن للأنيميا.

ووقت المراهقة بوجه عام دور تزداد فيه الجهود العصبية. ولكن تلك الجهود يختلف زمنها في كل من الجنسين، نظرا لإختلاف زمن حلول البلوغ عند كل منهما كما أسلفنا. ويلاحظ هنا أن تلك الحقيقة، أي تعرض الفتيات لتلك المجهودات العصبية في وقت يختلف عن الفتيان، مضافة إلى تبكيرهن بالنمو وسبقهن للصبيان، تجعل تعليم الجنسين في المدارس مجتمعين أمرا صعبا، نظرا لحاجة كل منهما إلى العناية الخاصة في وقتين مختلفين. كما أن التغيرات الجنسية الدورية، التي تعتري الفتاة في أوقات منتظمة متعاقبة، تجعل الفتاة أثناءها أقل قابلية للعمل، وتقلل نوعا من إنتاجها العقلي وهناك خطر من إجهادها في تلك الفترات إذ لم تعامل بحكمة، وليس من العدل عندئذ مقارنة عملها بعمل الصبيان الذين يكونون معها في فصل واحد.

ويُمكننا تلخيص الفروق الجسمية بين الجنسين فيما يأتي:

١– أن البنات في الغالب أقل في القوة البدنية عن الصبيان.

٢– أن أعصابهن أكثر تأثروا وأسرع توترا من البنين، ولذا فإنهن أكثر تعرضا للتعب والإجهاد العصبي. وربما فسر هذا باستنفاد جزء غير قليل من الكلسيوم المختلط بالدم.

٣– أن دمهن أقل كثافة لقلة الهيموجلوبين به، مما يجعلهن أكثر تعرضا للأنيميا بعد البلوغ.

ب- الفروق العقلية بين الجنسين

جرت العادة أن يعتبر النساء أقل ذكاء من الرجال، وأن ينظر إليهن، كأنهن أقل من حيث المقدرة العقلية والاضطلاع بالأعمال، وكتب الكثيرون في ذلك الموضوع، قائلين إن مكان المرأة في المنزل، لأنه المكان الذي يتفق مع مواهبها وقدرتها العقلية.

غير أن هذه الآراء كثير منها مؤسس على الحدس والتخمين أو الملاحظة غير الدقيقة، ولا يقوم على أساس متين من الأبحاث العلمية، والمقاييس الدقيقة، التي نستطيع أن نحكم بنتائجها على وجود تلك الفروق المزعومة.

وقد شعرنا في الوقت الحاضر، الذي خرجت فيه المرأة من المنزل إلى ميدان الحياة العملية والاجتماعية والسياسية، بافتقارنا إلى معرفة كفاءتها بطريقة يقينية، حتى نثبت مما إذا كان من الحكمة أو الإنصاف أن نسند إليها مناصب خطيرة، كما أن تقدم علم التربية والتعليم جعل من المحتم أن نعرف قدرة البنات حتى نستطيع أن نجعل طرق التعليم ملائمة لهن، فيستفدن بذلك أقصى فائدة من وجودهن بالمدارس.

وإن أبسط وأسهل طريقة للتفرقة بين مقدرة الجنسين من الوجهة العقلية هي الموازنة بين نتائج كل منهما في الامتحانات المدرسية، غير أن هذه الطريقة لا يعتمد عليها في الحكم حكما صحيحا على المقدرة العقلية، وذلك لدخول عوامل كثيرة في الامتحانات، غير المقدرة العقلية، فتؤثر في إنتاج الفرد. ولقد حصل البحاثة بواسطتها على نتائج لا تزال موضع شك، نذكرها هنا على سبيل العلم بالشئ.

أجرت إحدى اللجان التي انتدبتها وزارة المعارف الإنكيزية سنة ١٩٢٢، إحصاء في امتحانات جامعة كمبردج بانجلترا، وقارنت نتائج البنين بنتائج البنات، فوجدت أن الصبيان تفوقوا في الرياضة. (بما فيها الحساب) وفي الكيمياء والطبيعة واللغة اللاتينية، وتفوقوا قليلا في الجغرافية الطبيعية أيضا. أما البنات فقد أظهرن تفوقا ظاهرا في الأدب (الإنكليزي) والإنشاء والتاريخ الإنكليزي وعلم النبات والجغرافيا واللغة الفرنسية بما فيها المحادثة الشفوية، كما تفوقن في رسم النماذج وتصميم الزخارف.

هذا وقد أجريت إحصاءات أخرى أظهرت مرة ثانية تفوق الصبيان على البنات في الرياضيات، وتفوق البنات على الصبيان في اللغة الحديثة، ولكنها لم تبين فروقا تذكر عدا هذه.

ولما كانت أغلب الإحصاءات تظهر تفوق البنين على البنات في الرياضيات، فقد حاول البعض تفسير هذا التفوق بأسباب مختلفة، كعدم ميل البنات لتلك العلوم، وعدم وجود مدرسات للرياضيات يعادلن في الكفاءة مدرسي الرياضة من الرجال، وكعدم وجود وقت كاف عند البنات للإهتمام بتلك العلوم لاهتمامهن بمواد أخرى، كالتدبير المنزلي والموسيقى وأشغال الإبرة.

غير أن بعض البحاثة ينكرون وجود فروق تذكر في هذه الناحية، ويقولون إن هذه الفروق، إن وجدت، فهي ضئيلة لا قيمة لها، وإن الفروق التي بين أفراد الجنس الواحد أكبر من الفروق التي بين الجنسين.

وأمام هذه الآراء المتناقضة، يجب علينا قبل الحكم بأفضلية أحد الجنسين أن ننتظر ظهور إحصاءات أخرى، أكثر وفرة وأكبر دقة من تلك التي بأيدينا في الوقت الحاضر.

ونخرج مما سبق بنتيجة يقينية، ألا وهي أن الامتحانات المدرسية الخالية لا يمكن الاعتماد عليها حتى الآن، في إظهار الفروق الحقيقية بين الجنسين من الوجهة العقلية. وأنه لابد لذلك من وجود اختبارات عقلية، أكثر دقة من تلك الامتحانات. وأكثر مساسًا بالقدرات العقلية المراد قياسها. وهذا لا يتوفر في تلك الامتحانات المدرسية، لأنها تقيس مع القوى العقلية عوامل أخرى خارجة عن نطاق بحثنا، قد لا تكون أساسية لنا.

ولذا فإنا ننتظر القول الفصل في موضوع الفروق العقلية بين الجنسين، لا من المعلمين أو الممتحنين، بل من علماء النفس.

وهنا يجب أن نذكر أن إيجاد تلك الفروق العقلية أمر تحفه الصعوبة لحد ما، فإنا إذا أردنا أن يكون حكمنا منزها عن التحيز. وجب أن لا نعتمد على الآراء الشخصية، وإنما على الحقائق الثابتة، المستمدة من التجارب العلمية التي لا تُؤثر فيها شخصية القائم بها ولدينا عدد لا بأس به من نتائج تلك التجارب التي أجريت على كلا الجنسين بطريقة واحدة، وفي ظروف واحدة، مما يمنع تسرب الشك إلى نتائجها.

ومن أهم الأبحاث التي من هذا القبيل، ما أجراه الأستاذ سيرل بيرت على تلاميذ وتلميذات المدارس الابتدائية بانكلترا، للموازنة بينهما من حيث مواد الدراسة المختلفة. ويمتاز مثل تلك الاختبارات عن الامتحانات العادية بدقتها وإمكان الاعتماد عليها.

ومما يُؤسف له، أن تلك الاختبارات لم تتناول إلا الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٥، ١٤، وكنا نود الحصول على نتائج تنطبق على الأعمار التي تلي ذلك، ولكنا نكتفي بما لدينا الآن.

ولنلخص نتائج تلك الاختبارات فيما يلي:

وجد أن البنات يفضلن الصبيان، في جميع السنوات (بين ٥،١٤)، فيما يختص بالمفردات وسرعة المطالعة. أما في فهم ما يقرأ، فالبنون يفوقونهن بين ٥،٧، ولكن البنات يفقنهم ما بين السابعة والرابعة عشرة.

وفي الهجاء والإملاء، تتفوق البنات في جميع السنوات المذكورة، ولو أن الزيادة طفيفة، كما في بقية الفروق، إذ لا تزيد في المتوسط عن واحد في المائة.

أما في الحساب العقلي فالبنات تقل عن البنين في جميع السنوات المذكورة، ولو أن الفرق بسيط جدا. أما في الحساب التحريري، فهن أقل كذلك، إلا أن الفرق واضح عندئذ، وعلى الأخص في حل المسائل.

وفي سرعة الكتابة وحسن الخط، تمتاز البنات عن البنين، وعلى الأخص بين سن العاشرة والحادية عشرة. أما في الرسم، فالبنات أقل من البنين حتى سن ١٢، ولكنهما يتعادلان عند ١٣، ثم يتفوقن عليهم عند سن ١٤ بمقدار ٤٪.

وفي سرعة الأعمال اليدوية، لا يكاد يكون هناك فرق. أما من حيث جودة العمل، فالأولاد أحسن من البنات بشكل ظاهر.

وفي الإنشاء، فالبنت تفوق الصبي في جميع السنوات، من حيث سرعة الكتابة وحسن الإنشاء، ويزيد الفرق أحيانا إلى ١٠٪.

مما تقدم يتضح أنه توجد فروق هنا وهناك بين البنين والبنات، فتارة ترجح كفة أحدهما، وتارة ترجح كفة الآخر، فلا يمكن القول برجحان كفة أحدهما باستمرار، والحكم بأفضليته المطلقة، لاسيما إذا تذكرنا أن الفروق عندما توجد تكون عادة طفيفة.

ومن أهم الاختبارات التي أعطيت لقياس القدرات العقلية، اختبارات الذكاء وهو غير القدرات العقلية الأخرى، كالذاكرة بأنواعها المختلفة، والانتباه إلى غير ذلك. ولقد أظهرت اختبارات الذكاء نتيجة لا تخرج في مجموعها عن النتيجة السابقة، ألا وهي أن الفروق بين الجنسين في الذكاء العام طفيفة أيضا لا تجيز التفرقة بينهما بشكل واضح.

ومن اختبارات الذكاء المشهورة مقياس (بينيه سيمون)، وقد دلت نتائجه على أن البنات يفقن البنين في كل السنوات تقريبا بين الخامسة والرابعة عشرة، إلا عند العاشرة، فالبنون يفوقون البنات بدرجة طفيفة، ويلاحظ هنا أن زيادة البنات أيضا طفيفة (لا تكاد تعدو أربعة أشهر).

غير أن البعض يعترض على المقياس المذكور، بحجة أنه بطبيعة تركيبه يعطي فرصة للبنات للتفوق، نظرا لاعتماده لحد كبير على القدرة اللغوية، وهي ميزة في صف البنات كما أسلفنا سابقا. وقد دلت الاختبارات الأخرى على عدم وجود تحيز ظاهر في صف أحد الجنسين، إذ أنهما يتسابقان ويتلاحقان وهكذا بعد سن السابعة.

ومن المقاييس المعتمدة للذكاء تلك التي ألفها الدكتور سيرل بيرت، وقد دلت نتائجه على تفوق الصبي فيما بين ١١،٨، وتفوق البنت عند الثانية عشرة والثالثة عشرة. ولكن الصبي يلحق بها ويسبقها حوالي سن الرابعة عشرة.

ويقول الدكتور بيرت تلخيصا لنتائج أبحاثه ما يأتي: "إن الفروق بين الجنسين، من حيث الذكاء، طفيفة جدا أثناء سني الدراسة. ولم يظهر البحث حتى الآن أية فروق بينهما في المدارس التي يختلطان فيها في حجر الدراسة، يعلمهما معلم واحد تبعا لمنهاج واحد".

وقد اختبر ترمان في أمريكا ما يقرب من ١٠٠٠ طفل، فوجد أن البنات بوجه عام تتفوق قليلا من حيث الذكاء على الصبيان، فيما بين سني الخامسة والثالثة عشرة. غير أن هذا الفرق كان قليلا لدرجة تبيح إهماله في الأمور العملية. وخرج ترمان من أبحاثه بنتيجة وهي أن متوسط ذكاء النساء والبنات يعادل في المتوسط ذكاء الرجال والصبيان.

وهنا نلاحظ أن النتائج التي ذكرت تنطبق على متوسط قوة كل من الجنسين أي أن الموازنات السابقة كانت معقودة بين المتوسط الناتج من اختبار عدد كبير من البنات.

ومن الواضح أن الصبيان ليسوا كلهم في قوة واحدة، كما أن البنات لسن كلهن متشابهات من حيث القوة. وكل فرد يختلف عن المتوسط العام لجنسة اختلافا قد يكون صغيرا وقد يكون كبيرا.

ومما هو جدير بالملاحظة، أن الفروق الداخلية، بين أفراد كل جنس فيما بينهم، أكبر من الفرق الذي بين متوسطي الجنسين. ولقد لوحظت ظاهرة لها معناها، وهي أن درجات بعد أفراد البنين عن متوسطهم، أكبر من درجات من البنات عن متوسطهن، أي أن هؤلاء أكثر تجمعا حول متوسطهن من البنين، الذين نجد بينهم من هو أعلا بكثير، أو أقل بكثير من ذلك المتوسط.

ومما سبق، نستطيع أن نقول إنه ما دامت الفروق العقلية بين أفراد الجنس الواحد كبيرة بهذا الشكل، فإنا نستطيع أن نهمل الفروق التي بين الجنسين، وأن نعتبرهما في مستوى واحد من حيث العقلية. فإن الفرق بين صبي وفتاة لا يكون راجعا عندئذ لمجرد الفرق بينهما في الجنس، بل هو فرق فردي ككل الفروق التي بين الأفراد، سواء كانوا من جنس واحد أم من جنسين مختلفين.

ويقول بعض العلماء: إن بين الرجال عددا من المتفوقين في الذكاء، والنوابغ، أكبر مما بين النساء، ويظهر أن ذلك الرأي به شئ كثير من الصحة. ولكن ليس هذا كل شئ، فمن المحتمل أيضا أن يكون بين الرجال من ضعاف العقول أكثر مما بين النساء، ولذلك نستطيع أن نفسر تساوي الجنسين في المتوسط العام للذكاء.

تلك النتائج التي ذكرناها ذات بال للمربين، فعليهم أن يعلموا أن النتائج السيكولوجية لا تبرر التفرقة بين الجنسين، من حيث المناهج، اعتمادا على وجود فروق في الذكاء العام.

ورأى الأستاذ ثورنديك الأمريكي في هذا الصدد صريح، لا يترك مجالا للشك في تفاهة تلك الفروق، فهو يقول: " إن الفرق في الجنس أقل أسباب الاختلاف بين فرد وآخر، فأهم ما نلاحظه في الفروق بين الجنسين هو تفاهتها إذ أن الفروق بين أفراد الجنس الواحد تربو على الفروق التي بين جنس وآخر في الأعمال العقلية والقريبة منها، حتى أننا لنستطيع أن نطمئن إلى إهمال تلك الفروق في الأحوال العملية.

وليس بخاف أن تجربة الجيل الماضي كله في تعليم المرأة، قد أظهرت كفاءتها في جميع مراحل التعليم، الدولية منها والابتدائية والثانوية والعالية. وتؤيد ذلك خبرة الجيل الحاضر أيضا، سواء في التعليم أم في الأعمال العامة. كما أن اختبارات علماء النفس تظهر أن ذلك التساوي ناجم عن تساو في القوى الموروثة، لا من مجرد اجتهاد النساء وإجهاد أنفسهن في الأعمال.

غير أن أبحاث كل من بيرت Burt وترمان Terman قد أظهرت فروقا هامة بين الجنسين، في النواحي العقلية الأخرى، غير الذكاء العام. وقد ظهرت هذه الفروق من الاختبارات العقلية التي أعطيت لكلا الجنسين. فقد

تفوق الصبيان في الاختبارات التي تتطلب تعريف شئ ما، أو إدراك التشابه بين الأشياء، أو التعليل الحسابي. بينما البنات تفوقن في الاختبارات التي بها مفردات لغوية، أو التي تتطلب إصدار حكم على القيمة الجمالية للأشياء المختلفة ولنضرب أمثلة لذلك، فقد ورد في بعض تلك الاختبارات السؤالان الآتيان:

"ماذا تفعل لو سألك أحد رأيك في شخص لا تعرفه "و" ما الذي يجب أن تفعله قبل أن تبدأ عملًا هامًا جدًا؟". وقد ظهر تفوق البنات في الإجابة عن مثل تلك الأسئلة، التي تحتاج إلى حكمة وحسن تصرف في أمور اجتماعية.

ويظهر أن الفروق العقلية التي بين الجنسين ليست في الذكاء، أو العمليات العقلية الراقية، بل في العمليات العقلية البسيطة. فمثلا من النتائج الثابتة، أن البنات يفضلن البنين في الإدراك عن طريق اللمس، والتفرقة بين الألوان وفي الذاكرة الآلية أو الميكانيكية، أي في ترديد ما يراد تذكرة ترديدا ميكانيكيا من غير أن يحتاج تذكره إلى معرفة الروابط أو التفكير. ولكن البنين تفوقوا في اختبارات الدق أو النقر Tapping ، والاختبارات التي يقاس فيها زمن الرجع.

ونريد الآن أن نوضح نقطة هامة، قبل أن نترك ذلك الموضوع، خوف اختلاط الأمر على القارئ. فنحن إذا قلنا أن الفروق العقلية بين الجنسين طفيفة، فيما يختص بالذكاء العام، فإن هذا لا يتنافى مع وجود فروق عقلية أخرى من حيث الاتجاهات العقلية المختلفة، والمشارب والأهواء والميول التي يوجه إليها كل فرد عقله، وهذه لا شك يختلف فيها الرجال والنساء.

وهنا ثانية نجد أن اختلافات الأفراد لا تقل عن اختلافات الجنسين. ومن المتفق عليه بين البحاثة في هذا الصدد، أن البنين يهتمون بالأفكار والآراء، أكثر من اهتمامهم بالأشخاص الذين صدرت عنهم هذه الأفكار والآراء، بينما البنات يهمهن الأشخاص أكثر من الآراء والأفكار. هذا طبعا في المجموع العام. وكما أن البنات تهمهن الأشياء التي تدرك بالحواس، والتي تمثلها أشياء مادية، نجد البنين يهتمون بالمعنويات التي قد نتجرد عن المحسات المادية.

أما فيما يختص بمواد الدراسة، فالبنات أكثر ميلا لأدب اللغة، بينما البنون أكثر اهتماما بالرياضيات. ولا يمنع هذا وجود بعض أفراد من كلا الجنسين ممن يخرجون عن القاعدة العامة المذكورة.

وربما كان الصبيان أكثر تقيدا بالاستنتاج المنطقي وخطواته أثناء تفكيرهم من البنات اللاتي كثيرا ما يهملن بعض خطوات التفكير، ويصلن بذلك إلى نتيجة خاطئة من جراء التسرع. أما عن الحفظ، فيلوح لنا أن البنات يفقن البنين. ولكن قد يفوقهن الصبيان في القدرة على تركيز الانتباه، وحصره في موضوع معين.

ويقول بعض الباحثين أن المرأة بوجه عام تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة ما. ونحن معاشر الرجال نهتم، على عكس النساء، بعلاقات الأشياء بعضها ببعض، أكثر من اهتمامنا بالأشياء ذاتها. واتجاه العقلية النسائية نحو الماديات والمحسات، أكثر منه نحو المعنويات.

وليس هذا الرأي السابق بمختلف عن رأي جون ستيوارت مل، الذي كان يرى أن المرأة تفكر في الأشياء على أنها جزئيات منفصلة عن بعضها، بدلا من أن تفكر فيها على هيئة مجموعات متصلة مترابطة أفرادها. وبينما

يهتم الرجال بالآراء والأفكار من حيث هي آراء وأفكار، بصرف النظر عن أشخاصها، نجد النساء يفكرن في تلك الآراء والأفكار على اعتبار أنها آراء أشخاص معينين، فهن لا يفصلن بين الرأي وقائله أو مصدره.

وقد دلت الأبحاث على أن النساء يتميزن باهتمامهن بالأشياء التي حولهن مباشرة، على عكس الرجال الذين ينصرف اهتمامهم إلى أبعد من ذلك. وبينما يهتم النساء بالشئ كما يرونه في شكله النهائي، نجد الرجال يهتمون أكثر بالطريقة التي وصل بها ذلك الشئ إلى الصبغة النهائية. وكما أن النساء يجذب ليهن كل ما هو من قبيل الزينة والتجمل، يهتم الرجال بما هو نافع مفيد.

أما عن تعليل تلك الاختلافات في الاتجاهات العقلية ونواحي الاهتمام، فالآراء متعددة. فقد تكون هذه الاختلافات راجعة لأسباب جسمية، أو فسيولوجية، وقد ترجع إلى اختلافات في قوى الغرائز الأساسية عند كل منهما.

ولسنا نريد أن نقول إن غرائز الرجال تختلف عن غرائز النساء من حيث النوع، بل نريد أن نقول إن القوى الدافعة لتلك الغرائز، هي التي تظهر اختلافا بين غريزة وأخرى. فمثلا غريزة المقاتلة pugnacity، وغريزة الجمع والادخال، وغريزة الحل والتركيب، تكون أقوى عند الرجال منها عند النساء. بينما هؤلاء تقوي فيهن غرائز الهرب والأمومة. غير أن الفرق في الغرائز أقل بكثير مما يذهب إليه البعض.

ولا ننسى أيضا أن الفروق في هذه الناحية، قد تكون راجعة إلى البيئة الخاصة لكل من الجنسين، أي الظروف المنزلية والاجتماعية، التي تحيط بكل منهما، فإذا كان هذا هو السبب الجوهري، أمكننا أن نتحكم في تلك

الفروق فنزيلها أو نزيدها، وذلك بتغيير تلك الظروف التي تحيط بكل من الجنسين.

جـ- أوجه الاختلاف الوجدانية

من المسلم به أن كلا من الجنسين يرث نفس الغرائز التي يرثها الجنس الآخر ويشعر أيضًا بنفس الانفعالات، كالخوف والغضب وإثبات الذات والإعجاب والتمجيد، والانفعالات الجمالية والدينية، التي هي موجودة لدى الجنسين، كما أنه يحدث لكل منهما عند البلوغ تطور وجداني عظيم، ولو أنه يحدث مبكرا عند البنات عنه في الصبيان.

وإن الموازنة بين الجنسين من حيث الصفات الوجدانية أمر ليس بالسهل لعدم وجود اختبارات ومقاييس لتلك الصفات الوجدانية نستطيع أن نعتمد على نتيجتها اعتمادا تاما. نعم إن هُناك مقاييس مزاجية أو خلقية، Tests of temperament، وقد استعملت فعلا في انجلترا وأمريكا، إلا أنها لا تزال حتى الآن في دور التجريب، ولا نستطيع الجزم بصحة نتائجها. فما دامت الحال هكذا، فلنحاول أن نجني بعض الحقائق عن موضوعنا هذا من جهات أخرى، وليس من ضرر في ذلك، ما دمنا متذكرين دائما أنها ليست نتائج قاطعة، إلى أن نستطيع أن نحصل يوما ما على مقاييس يقينية، بتقدم الأبحاث في هذا الشأن.

وإنا لنستطيع أن نتبين فروقا مزاجية أو خلقية بين الجنسين بالملاحظة. ويسلم الأستاذ بيرت، وهو من الثقات في هذا الموضوع، بوجود تلك الفروق كما يسلم بأنها أكبر وأكثر وضوحا من الفروق العقلية، التي سبق ذكرها في الفصل السابق، ولكنه يعود فيقول إن الفروق الوجدانية بين الجنسين أقل من الفروق الجسمية.

وعلى سبيل الموازنة، نستطيع أن نقول إن انفعالات الرجال ربما كانت أعمق وأطول أثرا من انفعالات النساء، ولكنها أقل ظهورا، بعكس النساء، الاتي تظهر عليهن انفعالاتهن الحادة الفجائية، من غير كظم أو إخفاء. والاختلاف يتناول أيضا الأشياء التي تثير تلك الانفعات لدى كل من الجنسين فهذه كما أنها تختلف من سن الآخر، تختلف عند الذكور والإناث. وسرعة تأثر النساء بالانفعالات تجعلهن أكثر تعرضا للهستيريا.

أما فيما يتعلق بالناحية المدرسية، فقد لوحظ أن البنات أقل اهتماما من الصبيان بالناحية العملية من الأشياء، وأكثر تأثرا بالانفعالات والوجدانات كما أنهن أكثر اكتراثا للمدح والثناء أو التوبيخ، وقد يصل الأمر بهن إلى البكاء، من أقل توبيخ أو إظهار لتقصير في العمل، أو عدم منح درجة تقنع وترضى. ويلاحظ أن البنت أميل إلى الهدوء والدعة في منظرها العام، بينما الصبي أميل إلى الحركة، والبنت تستمع للنصح والإرشاد من الرؤساء أو المعلمين وتتقبله من غير معارضة. أما الصبي فلا يتقبله من غير معارضة بل يناقش ويجادل قبل أن يسلم ويخضع.

ويقول بعض المربين، بناء على ملاحظته لتلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها، في السنوات الأولى منها، لمدة طويلة: " يخيل للرائي من سلوك البنت أنها أكبر سنا مما هي، في العادة. فهي تؤدي عملها بإخلاص ودقة وأناة، تفوق الصبي. وهي تقلد الكبار بسهولة، وتميل إلى الاقتناع بسرعة بأشياء قد لا يقبلها الصبي إلا بعد المناقشة.

والصبي في تفكيره أكثر ابتكارًا واستقلالًا في الرأي، وأكثر انتباهًا وحذرًا من الأخطاء المنطقية التي تتخلل مُناقشة أو مُشكلة ما. وهو أقدر على إدراك ما بين الأشياء من تشابه، وعلى اكتشاف العلاقة التي بين الحقائق أو

الظواهر، وهو أدق في ذلك من البنت. ولكنها أكثر صبرا، وأطول أناة في جمع تلك الحقائق وتبويبها وتصنيفها. كما أنها أكثر قابلية لتقبل الآراء والتشبع بها وهضمها. وذاكرتها على وجه العموم، أكثر احتفاظا بالأشياء، وعلى الأخص تفاصيلها. وهي في ترتيب عملها أدق وأكثر إتقانا، وهذا هو السبب في أنها تصرف وقتا أطول في تحرير مذكراتها واستذكارها، بينما الصبي يأنف من مضيعة الوقت في ذلك، ويفضل أن يصرف وقته وجهده في التفكير فيها وتمحيصها ونقدها. والبنت أقوى في الإنشاء الشفوي، وأسلس بيانا وأسرع إلى فهم مغزى الألفاظ والفقرات".

ذلك رأي مرب وصل إليه من خبرته في حجرات الدراسة. ومن المفيد أن نورد رأي علماء النفس الذين سلكوا طريقا آخر، فوصلوا إلى نفس النتائج. فيقول الأستاذ بيرت: " تتفوق البنات من حيث قدرتهن على الصبر والمثابرة اللذين يقتضيهما التحليل. كما أنهن يمتزن بمراعاة التفاصيل ودقائق الأمور. إلا أنهن أكثر عرضة لإهمال بعض خطوات التفكير، والوصول إلى نتائج لا تؤيدها شواهد الأحوال. وهن يستطعن فرض الفروض بشكل يجعلها ملموسة، ويستطعن تصور مواقف بغاية من الوضوح تفوق البنين، وذلك بالاستعانة بخيالهن الواضح. وإن قدرتهن على استخلاص المعنى من عبارات مكتوبة أمامهن لا شك فيها، وتبدو تلك المقدرة أيضا إذا طلب إليهن صوغ ذلك المعنى في عبارات مناسبة. أما البنون فهم أكثر ثباتا في تفكيرهم وانتقالهم من خطوة إلى أخرى أثناء التفكير، وإنهم لأكثر انتباها لما يعتري ذلك التفكير من أخطاء. أما عنايتهم بالألفاظ فأقل من البنات، ولكنهم أقل تعرضا للوقوع في شراك المغالطات المنطقية أو الاستهداف لما تحويه العبارات التي يقرأونها من إيحاء أو استهواء.

ومن الأبحاث القيمة في هذا الصدد، ما قام به الأستاذ بيرت على الأطفال المجرمين أو الأحداث delinquents. فقد بحث حالات عديدة من هذا القبيل، وأمكنه أن يقسم حالات إجرامهم إلى أقسام، على أساس الدوافع الغريزية، التي حدت بهم إلى الوقوع تحت طائلة القانون، والانفعالات المتعلقة بها. فوجد أن عددا كبيرا من جرائم الصبيان تدخل تحت الأقسام الآتية: التشاجر والقسوة على الحيوانات والتشرد. أما البنات، فنسبة كبيرة من جرائمهن، تتعلق بالأمور الجنسية والكذب ومحاولات الانتحار. ولعل القارئ قد استلفت نظره في الجرائد المصرية كثرة حوادث انتحار البنات المصريات، لأسباب مختلفة كمضايقة أهلهن لهن، أو الحيلولة بينهن وبين من يهوين من الأزواج، ومحاولة إرغامهن على أزواج لا يملن إليهم، إلى غير ذلك. ويلاحظ أن المجموعة الأولى الخاصة بجرائم الصبيان، يمكن إرجاعها إلى ضعف الهيمنة على بعض الغرائز كغريزة المقاتلة pugnacity وإثبات الذات self Assertion، وغريزة التملك، وبعبارة أخرى، الغرائز والدوافع الصادرة عن الذات The self. وأما المجموعة الثانية فيمكن إرجاعها إلى الغريزة الجنسية والدوافع الصادرة عن إنكار الذات، والخضوع self subiection، والغرائز لأخرى الاجتماعية.

تلك الموازنة الموجزة تعطينا فكرة عامة مبسطة عن الانفعالات التي قد تصعب الهيمنة عليها في كل من الجنسين، وتبين لنا أن هناك فرقا بينهما من حيث قوة الانفعالات التي تدفع الفرد وتوجهه، إما نحو الذات، وإما نحو المجتمع.

ويجدر بنا أن نذكر القارئ هنا بأن تلك الفروق ليست هائلة، وأن كلا الجنسين يخضعان بوجه عام لنفس الغرائز، وتحركهما نفس الانفعالات.

وقد أيدت نتائج بحث الأستاذة هويلر (Wheeler) النتائج التي حصل عليها الدكتور بيرت، فقد دل بحثها على أن بين النساء نسبة أكبر (من الرجال) ظهر عليهن في دور البلوغ ميل نحو الجنس الآخر، كما أن كثيرا منهن بدت عليهن بوادر الاهتمام بالمسائل الدينية، أما الانفعالات الجمالية، فقد ظهر اهتمام الذكور بها أكثر من الإناث.

ويظهر أن الإناث تكون حياتهن الوجدانية أقل استقرارًا وثباتًا وقوة من الذكور، وليس هذا بغريب، فإن الفتى أو الرجل عندما يحس بميول قوية نحو شئ ما يعمل على الحصول عليه، بما له من القوة والحق الذي تخوله له التقاليد والهيئة الاجتماعية، فهو دائب في تحقيق أطماعه وآماله، وعلى الأخص تلك الأطماع والآمال التي تتعلق بمستقبله كالزواج وغيره. أما عند الإناث فقد ينشأ تصادم بين الدوافع "الذاتية الأنانية" والدوافع "الاجتماعية" ومن المعلوم أن كلا من هذه الدوافع يتطور تطورا عظيما في دور البلوغ، فكأن هذا التضارب يبدأ من ذلك الدور. ففي هذه الأيام نجد كثيرا من النساء، تتنازعهن تلك الميول، فتارة تسيطر عليهن الميول الذاتية فينزعن نحو إثبات ذاتهن، واتخاذ مكان محترم لهن في الهيئة الاجتماعية.

ومن أمثلة ذلك، النساء اللاتي يأخذن كثيرا من الوظائف الهامة في الصحافة والتدريس والطب، واللاتي يخضن مضمار الحياة النيابية والسياسية، ففي هؤلاء بلا شك بدت الدوافع الذاتية ظاهرة جلية، حتى حققت تلك المآرب التي في تحقيقها إثبات للنفس والذات، وإرضاء لحب الظهور.

غير أن الغالبية الكبرى من النساء يتخذن طريقًا آخر، ألا وهو الزواج، وليس من شك في أن الزواج به تضحية كبيرة لتلك الميول الذاتية التي ذكرناها، فالمرأة في تضحيتها بمستقبلها ومركزها، ترضي ميولها الاجتماعية،

التي تجعل منها مأوى صالحا يركن إليه الزوج والأطفال في المنزل أو في غيره.

هذا الكفاح بين تلك الميول قد يشتد أو يضعف تبعا للظروف الاجتماعية المحيطة بالفتاة أو المرأة، ولكن ما لا شك فيه، أن بوادره تظهر في عهد البلوغ وأبسط مظهر له عندما تفكر الفتاة فيما سيئول إليه أمرها، ولكنه يشتد في حالة الفتيات أو النساء اللاتي ينفتح أمامهن مستقبل ناجح في الحياة الاجتماعية أو في المهن الحرة، أو الوظائف الحكومية، فهؤلاء ليس من السهل عليهن التضحية بمستقبل زاهر في سبيل الزواج، وعلى الأخص إذا تعارض هذا مع اشتغالهن بالأعمال الاجتماعية، أو الوظائف والمهن. ووزارة المعارف بإجبارها المعلمات المتزوجات على ترك الخدمة، تثير في نفوسهن ذلك الكفاح النفسي بأجلى معانيه.

وربما كان هذا الكفاح النفسي، وعدم الاطمئنان الاجتماعي، من الأسباب التي قللت من نوابغ النساء، بعكس الرجال الذين أمامهم سبيل الظهور ميسر مفتوح. ويؤيد ذلك ما أثبتته اختبارات الذكاء من تساوي الجنسيين من حيث الذكاء الطبيعي.

في هذا الوقت العصيب، الذي تتنازع الفتاة فيه تلك الميول المختلفة، تجد من أبيها ناصحا مرشدا وعضدا قويا تركن إليه إذا ما تجاذبتها الأنواء والعواصف، ولذا نجد أن الحياة الوجدانية للفتاة على اتفاق تام مع الوالد، بعكس الفتى الذي يجمح إلى تحقيق مطامعه الشخصية وإثبات ميوله الذاتية فيصطدم مع أبيه فتأتي أمه تحنو عليه وتنقذه من سطوة أبيه، الذي قد يميل إلى كسر شوكته، وإخضاع ميوله الذاتية.

ولا شك أن الكثير من الآباء يشتط في هذه الناحية، فيعمدون إلى إثبات نفوذهم وذاتهم على حساب أبنائهم، غير عالمين بما يجره ذلك من الضرر على هؤلاء الفتيان الناشئين، وغير عالمين أن ميل الفتى في دور البلوغ لإثبات ذاته وشخصيته أمر طبيعي، وليس تحديا لسطوة الأب أو مركزه في العائلة.

وكثيرا ما تسوء العلاقة بين الأب وابنه، من جراء جهل الأب بتلك الحقائق التي ذكرناها، ووقوفه في سبيل النمو الطبيعي لانفعالات الفتى، مما قد يؤدي به إلى ارتكاب بعض الجرائم، كالفرار من المنزل، ومحاولة السرقة لسد أوده أثناء غيبته، وغير ذلك مما قد يدخله تحت طائلة القانون، الذي هو جاهل به، فيصبح مجرما من حيث لا يدري. وواضح أن الذنب ذنب أبيه والبيئة الاجتماعية المحيطة به، التي لم تحسن التصرف معه، ولم تحسن تربيته، ولم تفهم طبائعه وميوله، فأساءت إليه كما أساءت إلى الهيئة الاجتماعية بإخراجها مجرما قد يصعب علاجه فيما بعد.

وإن معاملة المراهقين، ذكوا كانوا أو إناثا، لمن أهم الأمور التي يجب على كل أب أو أم أو معلم معرفتها نظرا لخطورتها، ولأثرها الكبير في مستقبل حياة الناشئ، ونظرا لعدم انقياده لطرق التأديب والمعاملة التي تعودها قبل ذلك الوقت، أي في عهد طفولته.

ومما هو جدير بالذكر، أن البيت تحت الظروف الحالية، هو المكان الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في تربية انفعالات المراهق وتنظيم حياته الوجدانية. أما المدرسة، فمع كبير أثرها في حياته، فإنها توجه جل عنايتها في العادة، إن صوابا وإن خطأ، نحو تربيته من الوجهتين العقلية والجسمية. وسنتكلم في أحد الفصول الآتية عن تأديب المراهق ومعاملته.

الفصل الرابع

الأنواع الرئيسية للمراهقين
أو الفروق الفردية بينهم

تكلمنا في الفصل السابق عن الفروق التي بين الجنسين، ووصلنا إلى أن الفروق بينهما ليست أكبر مما بين فرد وفرد، ولذا فإننا سنولي وجهنا في هذا الفصل نحو بحث تلك الفروق التي بين الأفراد. غير أن اختلاف الموضوع هنا سيقتضي منا طريقة تختلف في البحث، فإن كلامنا حتى الآن كان عاما ينطبق على الغالبية العظمى من المراهقين والمراهقات، والصفات التي ذكرناها هي الصفات التي تنطبق على الأكثرية المطلقة، أما الأحوال الخاصة أو الشاذة فلم تدخل في عداد حسابنا، فبحثنا كان منصبا على دور المراهقة بوجه عام، لمعرفة خصائصه التي يشترك فيها غالبية من هم في هذا الدور، بصرف النظر عن (فلان) الذي قد يشترك في بعض الصفات فقط مع الغالبية، ويشذ عنها في البعض الآخر، والطريقة التي يعتمد عليها في جمع تلك الحقائق العامة هي طريقة الإحصاء The Statistican Method. التي أصبح لها شأن عظيم في علم النفس، وفي كثير من العلوم الأخرى، لأنها تحررنا من التقيد بحالة خاصة قد تكون شاذة، فتضللنا إذا ما أطلقنا صفاتها على المجموع، وبهذه الطريقة نأمن التحيز لأفراد قلائل، قد يقعون تحت بحثنا من طريق الصدفة، أو بعامل الاختيار، بحكم وجودنا في ظروف خاصة، تجعل الحالات التي تحيط بنا وتقع تحت ملاحظتنا من نوع خاصة.

غير أن هذه الطريقة، طريقة التعميم، رغم ما بها من مزايا جليلة، والخدمات التي أدتها لعلمي النفس والتربية، لا تكفي وحدها لأن تكون أساسا لبحثنا، لأننا بانصرافنا للأغلبية نهمل الأقلية، التي هي ذات شأن في حياتنا أيضا، رغم كونها أقلية، فكون (فلان) يخالف المجموعة في صفة من الصفات، ليس معناه أن يهمل، ويترك من حسابنا، ونغض الطرف عنه في حياتنا الاجتماعية، وإلا لأهملنا المرضى وتركناهم تسطو عليهم آفاتهم وعللهم ما دامت الأغلبية صحيحة.

كذلك إذا قلنا إن ٨٠٪ أو أكثر من المراهقين يبدو عليهم الميل الجنسي، فمعنى هذا أن تلك إحدى الصفات العامة لدور المراهقة التي "نتوقع" أن تبدو على كل مراهق "عادي" غير شاذ، فاعتمادنا كلية على نتائج طريقة الإحصاء يضللنا، إذا لم نأخذ حذرنا بأن نتذكر الطريقة التي وصلنا بها إلى تلك النتائج، وإلا لأهملنا عددا غير يسر من الأفراد الذين لا يدخلون تحت الأغلبية، فضلًا عن أن الأفراد الذين يدخلون تحت الغالبية لا يشبه بعضهم البعض تماما، بل بينهم أيضا فروق طفيفة تهملها طريقة الإحصاء، حتى تستطيع تقسيمهم إلى أنواع، وحصر العدد الذي يدخل تحت كل نوع.

والحقيقة أن الشخص "العادي الكامل" لا يوجد، بل هو محض فرض، فليس هناك فرد واحد كل صفة من صفاته تنطبق على مجموع المراهقين، فالشخص الذي بلغ الكمال في كل صفة من صفاته الجسمية والنفسية لم يخلق بعد، بل كل فرد من الأفراد الذين نراهم على وجه البسيطة إن بلغ الكمال في ناحية من النواحي، وليكن في قوة ذراعيه، حتى أصبح مضرب الأمثال، قد يكون ضعيف البصر أو السمع أو الهضم، أو قد يكون ضعيف الذكاء، أو ضعيف الذاكرة، وهكذا، ففي الحقيقية كل فرد من أفراد النوع

الإنساني حالته خاصة، تحتاج إلى دراسة خاصة به، أما الصفات العامة التي تنطبق على المجموع، ففائدتها في بيان الإتجاه العام، وقيمتها في إرشاد الباحث إلى الناحية التي يحب أن يتجه نحوها ليجد ضالته المنشودة، فالطبيب الذي يعطي دواء واحدا لكل من يشكو الصداع قد يضر الكثيرين بدلا من أن ينفعهم، كما أن المعلم الذي يعطي جميع الأطفال درسا واحدا بطريقة واحدة، رغم اختلافهم في السن والاستعداد العقلي، يكون كمن يتخبط في دياجير الظلام، ولا يؤدي أمانته على الوجه المرضي، فمهما قبل من أن الأطفال الذين في سن كذا تبدو عليهم صفات عامة مشتركة في الجسم والعقل والخلق، فإن الخبرة والعلم يقولان إنه ما من طفلين يشبهان بعضهما تمام الشبه في كل شئ، فإن اتحدا في الطول فقد يختلفان في القوة البدنية، وإن إتحدا في السن فقد يختلفان في درجة النمو، وإن اتحدا في نسبة الذكاء فقد يختلفان في ميولهما الخاصة وهكذا، فإن عاملنا هؤلاء كلهم معاملة واحدة، نكون كمن يحاول صب تماثيل مختلفة الأشكال والحجوم في قالب واحد، ثم يعجب من أنها لا تلين ولا تظهر مقدرته الفنية.

ولقد كانت الاختبارات العقلية أكبر عضد لعلماء النفس في الطريقتين الطريقة العامة والطريقة الفردية، أي في جمع الحقائق والميزات العامة لغالبية الأفراد أولًا، وذلك باختبار عدد كبير منهم في نفس الزمان والمكان، ثم استخراج النسب المختلفة لكل سن ولكل نوع على حدة بطريقة الإحصاء، ثم بتطبيقها ثانيا على الأفراد في أحوالهم وظروفهم الخاصة كل فرد على حدة ومعرفة مقدار اختلافه عن الغالبية في كل ناحية من نواحيه على حدة كذلك.

ومما يزيد في قيمة الطريقة الفردية أنها لا تكتفي ببحث حالة الفرد من حيث الكم، أي كمية ما عنده من صفة خاصة، بل توجه العناية إلى "النوع"

أيضا. فالفروق بين الأفراد ليست في الكم فقط، بل في النوع أيضا، (ففلان) لا يختلف عن (فلان) في أنه أشد ميلا نحو الألعاب الرياضية، أو أنه أطول تذكرا للأشياء فقط، بل الفرق بينهما أيضا في نوع الألعاب التي يميل إليها كل منهما، وفي نوع الأشياء التي ترسخ زمنا أطول في الذاكرة، ولذا ظهرت قيمة (الاختبارات التشخيصية) Diagnostic Tests التي تشخص صفات المرء وقدراته، فلا تكتفي ببيان مقدار الضعف أو القوة بل تبين نوع ذلك الضعف، أو القوة أيضا، ففائدتها من الناحيتين الكمية والنوعية Quantitative & Qualitative

ومن اهم الاختبارات العقلية التي ساد استعمالها في علم النفس ومعامله اختبارات الذكاء Intelligence Tests، وهي ترمي إلى الوقوف على حالة الذكاء الطبيعي الموروث عند المرء، دون المعلومات والتعليم الذي حصله في حياته، إذ تلك لا دخل لها فيما ورثه يوم بزوغه إلى ذلك العالم، ولها مقاييس خاصة تسمى المقاييس التحصيلية Achievement Tests. أما الذكاء فهو منحة توهب كما يوهب الكثير من الصفات الخلقية والجسمية، وكما توهب السعادة والشقاء.

واختبارات الذكاء هي امتحانات تحوي مشاكل أو مسائل تتطلب حلا، ومواقف تتطلب تصرفا خاصا لكل منها على حدة، ولقد طبقت تلك الاختبارات على جموع كبيرة في أنحاء العالم وعلى الأخص في أمريكا وانجلترة وفرنسا، فدلت على وجود فروق شاسعة في الذكاء بين الأفراد، حتى الذين هم في سن واحدة، فإذا أخذنا مجموعة غير مختارة اختيارًا خاصًا من المراهقين في سن الثانية عشرة مثلًا، وجدنا أن "الغالبية" منهم عمرهم العقلي ١٢ سنة، أي أنهم متوسطو الذكاء، وأنهم متفقون مع الشائع والغالب، ولكنا

نجد أفرادا من تلك المجموعة ذكاؤهم يعادل ذكاء أطفال في سن السادسة، أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة أو العاشرة أو الحادية عشرة، فهم دون متوسط الذكاء لسنهم، كما مجد آخرين يعادل ذكاءهم ذكاء من في سن الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. فبينهم إذن من هو في درجة الأبله ومن هو في درجة النوابغ، رغم كونهم كلهم مراهقين، ورغم اتحادهم كلهم في السن، ومع ذلك قد تجدهم كلهم يحشدون في فصل واحد، ويخاطبون في موضوع واحد، بنفس الطريقة والأسلوب، ويعاملون معاملة واحدة، كأنما هم خشب متراصة، أو جنود في معسكر، والواجب أن يفصل بينهم، وأن يفرق بينهم في المعاملة، فيأخذ كل على قدر استعداده ومواهبه، وذلك لن يكون إلا بعد دراسة كل واحد دراسة فردية على قدر الاستطاعة.

وذلك المثل من أكبر الأدلة التي يسوقها علماء النفس والتربية للتدليل على أن المدارس المعدة لتربية المراهقين يجب أن تكون من أنواع متعددة، تبعا لتعدد ميولهم واستعداداتهم وحاجاتهم في ذلك السن، وحتى داخل كل نوع من تلك المدارس المتعددة، يجب أن تختلف الطرق من مجموعة إلى مجموعة، وأن تتاح الفرص لكل فرد لأن يأخذ ما يلائمه ويناسب طبيعته التي وهبها، إذ ليس أضر على المرء من أن تقاوم طبيعته التي وهبها له الخالق عز وجل. وليس هناك من فائدة تجنى من صب جميع الأفراد في قالب واحد

ويعبر عن نتائج اختبارات الذكاء برقم يسمى في علم النفس نسبة الذكاء I.Q. فإذا كان ذكاء الإنسان متفقا مع ذكاء من هم في سنه، رمز إليه برقم ١٠٠، وإذا كان يفوقهم رمز إليه برقم يزيد على المائة تبعا لدرجة التفوق، وإذا قل عنهم رمز إليه برقم يقل عنهم تبعا لدرجته وهكذا.

وتتراوح نتائج مقاييس الذكاء عادة بين ١٥و١٩٥ أي من الأبله الذي لا يعادل ذكاؤه أكثر من ١٥٪ من ذكاء من هم في سنه إلى النابغة الذي يكاد يعادل ذكاؤه ضعف من هم في سنه.

والأشخاص المتوسطون أو العاديون هم الذين يتراوح ذكاؤهم بين ٨٥ و ١١٥ ويعادلون حوالي ٦٥٪ من الناس الذين في سنهم. ويليهم من هم دون المتوسط الذين يتراوح ذكاؤهم بين ٧٠ و٨٠ ويكونون حوالي ١٥٪ من التلاميذ. وكذلك من هم فوق المتوسط الذين يتراوح ذكاؤهم بين ١١٥ و١٣٠ ويكونون حوالي ١٥٪ من التلاميذ.

أما الذين دون ٧٠ فقلما يصلون إلى المدرسة الثانوية، فلا يلقي المعلم عبء تعليمهم في هذا الدور، ويكونون عادة حوالي ٢،٥٪ من التلاميذ. ويُطلق اسم النوابغ على الذين يتراوح ذكاؤهم بين ١٤٠ و ١٩٠

وتشير الأبحاث إلى أن غالبية الموهوبين في الذكاء موهوبون في الصفات العقلية والجسمية الأخرى. ولا يجد المراهقون الأذكياء صعوبة في تعلم مواد الدراسة الثانوية، لتقدمهم على متوسط التلاميذ، ولهم قدرة على فهم المعنويات والأفكار المجردة، أي التي لا تتمثل في أشياء مادية محسوسة، ولهم قدرة على التعميم والحكم. وبالجملة لا يجدون صعوبة في النجاح في الامتحان. ولكن حظهم سئ مع ذلك، في الوقت الحاضر من جهة أخرى، لأن المدرسة الثانوية بنظامها الحالي لا تفهمهم، ولا تعد العدة للاستفادة من قدرتهم الفائقة ولا تمنحهم حرية الدرس المستقل، والاستزادة من الاطلاع، بل تجبرهم على السير بنفس الخطى كغيرهم من المتوسطين والأغبياء، فيحدث فيهم ذلك قلقا نفسيا، قد يزيد إلى ثورة نفسية إذا لم تجد نفوسهم الجامحة منفذا لتطلعها ونشاطها.

وتجب الحيطة في الوقت نفسه، من المغالاة في أشباع نهم المراهقين الأذكياء من الأبحاث العقلية، إلى حد إهمال قدراتهم الأخرى، سواء عقلية أو جسمية، إذ أن ذلك يجعل نموهم غير متزن، فنجعل منهم فلاسفة ضعاف الأجسام، أو رياضيين لا يعرفون شيئا عن الحياة الاجتماعية، أو موسيقيين أو فنانين عاجزين عن فهم أسرار الكون العلمية. وإنما الواجب الجمع بين أكبر عدد من تلك النواحي التي ذكرناها مع إعطاء اهتمام أكبر للنواحي الخاصة، التي يبدي فيها المراهق نبوغا واهتماما.

وعلى العكس مما سبق، نجد المراهقين الذين دون المتوسط في الذكاء، لا تلذ لهم الأفكار المعنوية المحضة، أي التي لا تتمثل في أشياء محسة أو مادية ولذا تجد أن مواد الدراسة العملية أنسب ما يكون لهم، وعلى المدرسة الثانوية أن تنشئ لهم فصولا وبرامج خاصة، تختلف عن برامج الأذكياء من المراهقين.

ولقد تبين علماء النفس الفروق الموجودة بين المراهقين، عندما وجدوا أن البعض يميلون نحو الأشياء العملية أكثر من المعنويات، أي المعاني المجردة من المحسات، فاضطروا إلى استخدام (مقاييس الذكاء العملية) performance Tests، وهي مشاكل عملية يطلب من الفرد حلها بطريقة عملية، من غير اعتماد على الألفاظ، كما في مقاييس الذكاء اللفظية التي أساسها فهم مدلول الألفاظ.

ومن أمثلة المشكلات العملية المذكورة، تقطيع صورة مجسمة (على خشب أو ورق مقوى) إلى أجزاء، ثم مطالبة الفرد المختبر بأن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة، ويضعها في أمكنتها المناسبة لإعادة تركيب الصورة. ومنها أيضا اختبارات التواهات Mazes، وهي عبارة عن طريق محفور من الخشب

معقد متشابك متداخل (على شكل بيت جحا)، ويطلب من المختبر أن يسير فيه بالقلم حتى يصل إلى نهايته. وتلك الاختبارات تتدرج من السهل البسيط الذي يستطيع الأطفال حله، إلى الصعب المعقد الذي لا يستطيع حله إلا الراشدون الأذكياء فقط. ولقد وجدت علاقة كبيرة بين ذينك النوعين من اختبارات الذكاء، أي ان نسبة عالية من الذين يتفوقون في أحد النوعين يتفوقون كذلك في النوع الآخر. ولكنا نعود فنقول إن هُناك أفرادًا يناسبهم أحد النوعين فقط دون النوع الآخر، فيتفوقون في الأول ولا يتفوقون في الثاني أو بالعكس، ولذا ننصح باستعمال النوعين جنبا لجنب في الأحوال الدقيقة، التي يراد فيها تشخيص الذكاء تشخيصا دقيقا، كما في العيادات السيكولوجية، أو في الأحوال التي يبنى على نتائجها اعتبارات خطيرة، كالقبول في الوظائف أو المدارس أو الجامعات.

ولقد أظهرت الاختبارات العقلية، غير مقاييس الذكاء، فروقا في "القدرات الخاصة " special Abilities، فقد نجد فتى قدرته الرياضية عالية جدا بينما قدرته اللفظية وضيعة، كما أن آخر قد يكون دون المتوسط في الذكاء العام، ولكنه قد يكون فوق المتوسط في الفنون والموسيقى. ولا شك أن الفروق في تلك القدرات الخاصة لها أهمية كبيرة في تكييف الدراسة، وتحوي بين ثناياها استعداد الفتى أو الفتاة للمهنة المستقبلة.

وباختبار تلك القدرات الخاصة نستطيع مساعدة الفتيان فيما يختص بمهنتهم المستقبلة، وتوجيههم نحو الطريق الذي ينتظر لهم أن يبدوا كفاءة فيه بناء على استعدادهم، إذ لا فائدة من أن يزج الفتى بنفسه في معترك الحياة في ناحية ليست عنده القدرة على السير فيها فيفشل، بينما لديه مواهب معطلة، لو وجه لاستخدمها لنبغ وأظهر كفاءة نادرة. ويسمى هذا بالتوجيه

المهني vocational Guidance ويمكن إعطاء اختبارات التوجيه في نهاية المدرسة الابتدائية، حتى يستطيع الفتى أن يعرف أي المدارس أنفع له. فالفتى الذي لديه الاستعداد العملي، وهو ضعيف في الناحية النظرية واللفظية، لا فائدة من دخوله المدرسة الثانوية التي تؤدي إلى الجامعة، وكلاهما دراسته نظرية معنوية لحد كبير، وخير له عندئذ أن يلتحق بالمدارس الصناعية أو الفنية، إذا كانت لديه مواهب من ذلك النوع. وبالعكس الفتى الذي لديه الاستعداد للأشياء المجردة المعنوية، ولمتابعة الدراسة النظرية، خير له أن يواصل دراسته حتى الجامعة، حيث يشتغل بالأمور المعنوية، ويتابع الأبحاث فيستفيد ويفيد أمته.

وتطبق تلك الاختبارات على الفتى مرة أخرى عند رغبته في اللحاق بإحدى الوظائف، لا لإرشاده هذه المرة، بل لاختيار من يصلحون لوظيفة ما، فهو اختيار مهني vocational selection. وهو يفيد الفرد من حيث أنه يوفر عنه الشقاء، الذي ينتابه من سلوك طريق لا يصلح له، ولا يكون موفقا فيه، فيبقى محروما من الترقية والتقدم، فضلا عما يناله من اللوم والتأنيب.

وهو يفيد العمل من حيث اختيار الأفراد الأكفاء لأدائه بطبعهم. وليس من شك في أن المران والدربة تفيد، ولكن الشخص الذي لديه الاستعداد الطبيعي، يتقدم أسرع ممن لا يتوفر لديه ذلك الاستعداد.

على أن الفروق بين المراهقين لا تقتصر على الناحية العقلية التي سبق ذكرها، بل تظهر أيضا في الناحية الوجدانية (Emotional) وهي ذات بال في حياة المراهق. فالطاقة الجديدة التي قد تنبعث في نفسه عند بدء عهده بذلك الدور، أجلى ما تظهر في الناحية الوحدانية، ودراسة هذه واجبة قبل أن نستطيع تحديد ميوله ونزعاته.

ولقد أجرت الأستاذة أوليف هويلر بحثا مفيدا، بطريقة الاستفتاء، على جماعتين من الأفراد، الأولى من العمل، والثانية من طلبة الجامعة، ووجهة إليهم أسئلة لخصت نتائجها، بطريقة الإحصاء في الجدول الآتي، نثبته للقراء للفائدة:

س١– النسبة المئوية للذين كانوا أثناء مراهقتهم مغرمين ويمضون بعض وقتهم في:

	العُمال	الطلبة
	نسب مئوية	
المطالعة والأدب	٥٩	٦٤
الرياضة البدنية	١١	٣٣,٥
أعمال في الهواء الطلق (كالمشي وركوب العجلات والفلاحة وأعمال الكشافة.. إلخ)	٢٢	٢٦
الأعمال اليدوية والفنية (كالتجارة وشغل الإبرة والرسم والموسيقى)	٦١	٣٥
نُظم الشعر	صفر	٦
التاريخ و(السياسة)	١٠	٢٤
الرياضيات	صفر	٣١
العلوم الطبيعية والعلمية	صفر	٣٣
الجغرافيا	صفر	١٠
الفلسفة والفقه	١٨	٦,٥
س٢– نسبة الذين يذكرون انغماسهم في أحلام اليقظة أثناء المراهقة	٣٨	٦٤

س٣- نسبة الذين شعروا أثناء المراهقة بازدياد تقديرهم وحبهم نحو:

	العُمال	الطلبة
الطبيعة	٧١	٥٤,٥
الموسيقى	٤٠	٥٩
التصوير	٤٠	٤٢,٥
الشعر	٢٩	٦٣

س٥- نسبة الذي اتجهوا نحو الدين:

	العُمال	الطلبة
أولًا: في الطفولة	٩	٨,٥
ثانيًا: في المراهقة	٥٠	٦١,٥
س٨- نسبة الذين شعروا بالميل نحو الجنس المقابل في المراهقة	٩١	٨٣,٥
س٩- نسبة الذين أسسوا صداقة جديرة بالتذكر في المراهقة	٩٠	٧٣,٥
س١٠- نسبة الذين شغفوا بحب بعض الأبطال	٨٠	٥٠,٥
س١١- نسبة الذين شغفوا باستطلاع خبايا الحياة وأسرارها في الطفولة	٢٩	٢٤
س١٢- نسبة الذي شغفوا باستطلاع خبايا الحياة وأسرارها في المراهقة	٧٣	٨٨

يُمكننا أن نستدل من الأرقام السابقة على بعض حقائق عامة، تُؤيد ما هو معروف عن دور المراهقة بوجه عام:

١- أن دور المراهقة يتميز بإقبال الفرد على الاطلاع، وزيادة معلوماته، وباتساع أفقه العقلي، وشغفه بالعلوم، كما تدل على ذلك أرقام السؤال الأول وهي (٥٩٪ و ٦٤٪).

٢- يزداد حب المراهقين للطبيعة، وعلى الأخص الطبيعة الخلوية، ويقدرون جمالها وما فيها من فن، كما تدل أرقام السؤال الثالث (٧١٪ و ٥٤،٥٪).

٣- تتفتح أعين المراهق للدين، ويبدأ يتفهمه كأنه يعتنقه من جديد، ويتضح هذا من مقارنة أرقام الطفولة والمراهقة في السؤال الخامس.

٤- أما الميل نحو الجنس المقابل، فيتضح من أرقام السؤالين الثامن والتاسع.

٥- حب المراهقين للأبطال وتمجيدهم يدلنا على اتساع دائرة التفكير والنشاط عندهم، وحبهم للظهور والاقتداء بمن حصلوا على شهرة واسعة.

واتباعًا لما قلناه في أول ذلك الفصل، سنقرن تلك النتائج العامة التي ذكرناها، والتي حصلنا عليها من طريقة الإحصاء، بنتائج البحث الفردي. ولذا سنقتطف بضعة حالات ندرس كلًا منها على حدة، ولا شك أن هذا يعطينا فكرة أوضح عما يجري في نفس المراهق والمراهقة.

خذ مثلًا الحالة الآتية:

ولنرمز للإسم بالرمز (و٢) رجل عمره ٣٩ سنة. كان أبواه على قيد الحياة أثناء مراهقته، وكان له اخوان وأخت واحدة. ترك المدرسة في سن الحادية عشرة، واشتغل في مخازن أحد مصانع القطن، فيما بين سن الحادية

عشرة والثامنة عشرة. وقد شعر أثناء مراهقته بميل نحو التاريخ، ولكن هويته الخاصة التي كان يحبها كانت إصلاح اللعب الميكانيكية والساعات.

وهو لا يذكر انغماسه في أحلام اليقظة بدرجة كبيرة. وكان يحب الطبيعة، ولكنه لم يغرم بالموسيقى أو التصوير أو الشعر.

أما من حيث الدين، فلم يشعر بانتقال فجائي، ولكنه جعل يتحول نحوه تدريجيا.

ولقد شعر بميل نحو الجنس المقابل، وأحب فتاة وهو في سن السابعة عشر، وتزوجها في سن الرابعة والعشرين.

واتخذ كثيرا من الأصدقاء، وأحب بطلا من أبطال السباحة. أما عن رغبته في الاستطلاع، فتمثلت في حصوله على بعض كتب في البيولوجيا والتشريح ووظائف الأعضاء، واكتسب منها كثيرا من المعلومات.

نرى من دراسة الحالة السابقة، أن النمو كان طبيعيا متزنا بوجه عام، وكانت اتجاهاته كلها معقولة في طرقها العادية الطبيعية. كما أن اتجاهاته نحو الزوجة والحياة الاجتماعية والعالم بوجه عام، لم يعترضها أو يعق نموها شئ ما. والقوة أو الطاقة الجديدة التي ظهرت في دور البلوغ، كانت موزعة توزيعا حسنا من غير اعتراض، كما يدل على ذلك قلة انغماسه في أحلام اليقظة.

ولنأخذ حالة أخرى تختلف قليلا عن السابقة:

(م٢١) امرأة سنها ٢٦ سنة. كان أبواها على قيد الحياة في دور المراهقة وكان لها ثلاث إخوة وأخت واحدة. استمرت في الدراسة الثانوية والجامعة. وكان أهم ما تمضي فيه وقتها في دور المراهقة هو القراءة. وكانت تنغمس في أحلام اليقظة كثيرا، ولنقتطف من كلامها ما يأتي، وصفا لحالتها عندئذ:

كنت في دور المراهقة أتخيل نفسي دائما كأم لعائلة. أما هؤلاء الأبناء الخياليون، فلم أرهم أبدا كأطفال، بل كصبية وبنات، يتراوحون بين الحادية عشرة والخامسة عشرة. وكنت أتصورهم في حاجة إلى معونتي ومساعدتي، وكانت صورهم واضحة جد الوضوح في ذهني، فمنهم واحد كان قويا بدينا أعرفه جيدا، وآخر خيالي كأنه منغمس في احلام، والثالث كان شقيا ثم بنتان. أما أب تلك العائلة فلم يكن واضحا تمام الوضوح في مخيلتي، وكانت صورته تتغير من آونة لأخرى. ولقد انتهت هذه الأحلام حوالي سن التاسعة عشرة أو العشرين أو ما بعد ذلك.

ولقد دلت إجابتها على أنها شعرت باشتداد في ميولها وحبها للجمال والفن –

أما الدين، فقد شعرت بتحول بين إليه، وتقول إنه ساعدها وأعانها في كثير من النواحي. ومما هو جدير بالملاحظة أنها لم تقع في حب مع أحد من أفراد الجنس المقابل، ولم تتخذ لنفسها أصدقاء أثناء مراهقتها.

فيتضح من بحث تلك الحالة، أن بعض الطرق التي كان يجب أن تسير فيها بعض القوى أو الطاقة الجديدة قد اعترضت، فلم يتح لتلك الطاقة الجديدة أن تتسرب في مجراها الطبيعي. وبعبارة أخرى أن بعض الميول لم يسمح لها بأن تصل إلى غايتها، واعترضت القوة الدافعة خلفها.

قد يتبادر إلى ذهننا أن عدم وقوع تلك الفتاة في الحب، وعدم شغفها بالأمور الجمالية أو الاجتماعية (لأنها كما تقول، لم تتخذ لها أصدقاء في ذلك الدور) ربما كان راجعا لعدم وجود الدوافع والميول نحو هذه الأشياء، لا إلى اعتراضها والوقوف في سبيل نموها. إلا أن كثرة أحلام اليقظة، واستمرار انغماسها فيها، ونوع الخيالات التي كانت تتمثل أمامها، تدل على وجود تلك

الميول (أو الدوافع)، من غير أن تعطي الفرصة لتنمو وتظهر في عالم الحقيقة فتحولت إلى عالم الخيال، وأصبحت تتمثل في أحلام النهار أو أحلام اليقظة.

غير أن عدم هذا التوازن المشاهد في تلك الحالة، كان يخففه اتساع المجال أمام الميول الدينية، التي أمكنها أن تحافظ على التوازن لحد ما بين الدوافع الذاتية والاجتماعية، فهي تقول في إجابتها: (إن الدين كان يساعدها في نواح كثيرة).

مثال ثالث – (س٢١). امرأة تبلغ من السن ٢١ سنة. كان أبواها على قيد الحياة عندما كانت في دور البلوغ. وكانت لها أخت واحدة وإخوة ثلاث. ولقد أتمت دراستها في مدرسة ثانوية مختلطة الجنسين، ثم في الجامعة.

وكانت وسائل تمضية الوقت لديها في دور المراهقة، قراءة الروايات، والمشي منفردة في نزهات خلوية، والعزف على البيانو، وكانت تنغمس في أحلام اليقظة، وهذه لا تزال مستمرة لديها إلى وقت إجابتها على تلك الأسئلة (سن ٢١ سنة). وكانت تلك الأحلام على نوعين: الأول أحلام عن النبوغ في عالم الدراسة والأدب، والثاني عن الحب والزواج من رجل يكون مثلا أعلا ideal. وتقول إن تقديرها للطبيعة زاد كثيرا في دور المراهقة وإنها تحب أن تظل وحيدة في كنفها. كما أنها أحبت الشعر، ولكنها لم تشعر بحماس ديني. وتقول إنها في دور المراهقة أغرمت باثنين أو ثلاثة من مدرسيها في المدرسة، فيما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة، كما انها اتخذت أصدقاء كثيرين، ولكنها لم تمجد أية بطلة من النساء، أي من نفس جنسها.

يستنتج من تلك الحالة وجود كفاح بين الدوافع الأنانية والدوافع الاجتماعية، فتلك الفتاة كانت ذات آمال وأطماع في النبوغ والتفوق في عالم الدراسة والأدب، وهذه لابد أن تصرفها عن التفكر في الزواج والحب، وما

بهما من تضحية ذاتية في سبيل الحياة الاجتماعية الزوجية. غير أن الميول الجنسية لم تكن مفقودة، فتترك الميدان خاليا للميول الأنانية، بل كانت أيضا يقظة تطلب حظها من التحقيق، كما يتضح من أحلام اليقظة التي كانت تنغمس فيها.

أما فقدانها الحماس الديني، فيمكن تفسيره من طريقين: الأول أن الكفاح الذي كان قائما بين الدوافع الأنانية والدوافع الاجتماعية، استنفد جزءا من الطاقة التي كان يصح أن تنصرف في الاتجاه الديني، لو سمح لها. الثاني أن اعتناق الفتاة للطبيعة، والهدوء في نزهاتها المنفردة الخلوية، كان بمثابة استعاضة عن ذلك الشعور الديني، أو بحث عنه، كمن يبحث عن شئ مفقود، ولكنها لم توفق إليه، ويدلنا على ذلك قولها هي: "لقد كان يؤلمني عدم شعوري بحماس ديني، وكم كنت آسف لعدم اشتغالي بتلك المسائل الدينية، ولا يزال هذا الأمر يشغل بالي حتى الآن".

وإليك بضعة حالات أخرى تبين الفرق بين نمو المراهقين الذين فوق المتوسط في الذكاء والذين دون المتوسط.

المثل الأول – فتى رمز إليه الحرف "أ" وقت دراسة حالته، في سن الرابعة عشرة، وهو متفوق في الذكاء ومتقدم في المدرسة، وحالته الجسمية والصحية جيدة، وعلاقاته الاجتماعية سائرة سيرا حسنا، لا مشاكل ولا تعقيد فيها. ونسبة ذكاء هذا الفتى ١٥٧ وقد دل عمله في المدرسة على تفوق في التاريخ وأدب اللغة والمعلومات العامة، وقرر معلموه أنه محبوب لدى أقرانه وقد تبين حبه للمطالعة حتى أخذ يكون لنفسه مكتبة خاصة، كما أنه أغرم بكتابة القصص ونال جائزة في مسابقة قصصية. ومن هواياته جمع طوابع البريد، وكان لديه وقت البحث ثلاثة آلاف منها، كما أنه كان يجمع النقود

النادرة، وكان لديه منها خمسون قطعة: ولقد كان هذا الفتى مغرما كذلك بالألعاب الرياضية، ومتتبعا لأخبارها بشغف، فكان يحب الوقوف على أسماء أبطال الألعاب، ونتائج المباريات المختلفة. ومع تفوقه في نواح عديدة فإنه كان متواضعا رقيقا في معاملته. وبالاختصار كانت حياته سعيدة موفقة.

المثل الثاني – فتاة نرمز إليها الحرف "ب" سنها ١٤ سنة. كانت متفوقة في الذكاء، لدرجة أن نسبة ذكائها بلغت ١٦٨، وقررت معلمتها أنها من النوابغ منذ سن التاسعة، وقد أظهرت هذه الفتاة ميلا لدراسة اللغتين اللاتينية والأغريقية، وكانت جميع نتائجها باهرة. وكانت شخصيتها محبوبة. وتتزعم الأطفال الآخرين، كما بدت عليها سيماء الجمال.

أما غرامها باللعب فعادي، وتميل بوجه عام إلى الألعاب الهادئة، وربما كان ذلك راجعا إلى صغر جسمها ولكنها لم تظهر نزعة للانزواء، أو تحاشي الألعاب التي بها مجال للمنافسة الشديدة. وحياتها الاجتماعية مرضية عادية، لا تعقيد أو مشاكل فيها، لأنها لم تتعرض لضغط والديها أو مدرستها. وقد عنيت المدرسة بتغذية ميولها إلى الاطلاع والنشاط.

المثل الثالث – فتاة نرمز إليها بحرف "ج كانت مليئة الجسم، وذكاؤها دون المتوسط، وقررت المدرسة أن سوء سلوكها كان مشكلة صعبة. وذكرت أنها ذات مرة قدمت واجب تلميذة أخرى إلى المعلمة، مدعية أنه واجبها.

كما أنه ذات مرة زورت إمضاء والدها على التقرير المدرسي، وادعت أنه اطلع عليه وعلى ما به من الدرجات الدالة على رسوبها. ثم إنها بالإضافة إلى كل هذا سرقت نقودا من حقيبة إحدى السيدات. وكان عملها في المدرسة متأخرا، فضلا عن كثرة كلامها وشدة تبجحها وقلة طاعتها.

أما أسرتها فكانت في رخاء، إلا أن أمها كانت سيدة عصبية، محبة للسيطرة، ولا شك أن سوء سلوك ابنتها وتأخرها كان مما يسبب لها حزنا عظيما

من الواضح أن تأخر تلك الفتاة كان نتيجة لقلة ذكائها، ولم يكن الذنب ذنبها، لأن أهلها ومعلميها لم يفهموا تلك الحقيقة تمام الفهم، فلقد حاولت أمها أن تستحثها على العمل والاجتهاد بالضغط والتهكم وإثارة غيرتها من الأطفال الآخرين، والإقلال من اختلاطها بغيرها ومن أوقات فراغها لتصرف وقتها في المذاكرة.

وكانت تلك الفتاة تخشى يوم وصول التقارير المدرسية، لأنها كانت تترتب عليها إهانات جديدة، وتنغيص لحياتها المنزلية. غير أن تلك الفتاة كانت تبدي حبها للطهي، وكثيرا ما كانت تطهي ألوانا من الطعام تنال إعجاب الأسرة.

ولما درست حالتها، وأصلحت موضع الضعف في حياتها، تحسنت حالتها بتحسن معاملة أهلها ومعلميها، إذ اقتنعت أسرتها بقصور ذكائها عن متابعة الدراسة النظرية، وأدخلت بضعة تعديلات على مواد دراستها، فأصبحت تشمل الطهي والحياكة، كما أن أمها سمحت لها بأن تلتحق بأحد الأندية حيث تتمتع بوقت فراغها وتختلط بأقرانها.

الفصل الخامس

تأديب المراهقين
حالات الشواذ والأحداث

قد أفادتنا كثيرا دراسة حالات الأحداث، أي الصبيان الذين يقعون تحت طائله القانون، بأن أظهرت لنا الكيفية التي وصلت بها حالة هؤلاء التعساء إلى ما هي عليه. ولقد استنتج العلماء والأطباء كثيرا من القواعد والقوانين عن كيفية حدوث شذوذهم، وكيفية تحاشيه وعلاجه. ولكن ما لا شك فيه أن الوقاية خير من العلاج، فليس من داع مطلقا لأن ننتظر حتى تسوء حال هؤلاء الصبية، ويقعون تحت طائلة القانون، أو تنتابهم الأمراض العصبية، أو الشذوذ الخلقي، فيصبحون كرها عنهم، إما مجرمين، وإما مرضى عالة على المجتمع. فعلينا إذن أن نتفهم طرق معاملتهم، وأن نتبع منتهى الحكمة معهم، لدقة الموقف ولخطورة ذلك الدور، ولذا فإنا سنبحث ذلك فيما يلي

وإن أول خطوة نحو تفهم حالة هؤلاء الشبان، هي فهم قدرتهم العقلية على مجابهة مطالب الهيئة الاجتماعية، وحدودها وقوانينها. ولقد وجد أحد الباحثين، الذي أجرى بحثه على ١٧٣١ من الأحداث، أن متوسط عمرهم العقلي ١٤ سنة، وأن ٦٠٪ من الأحداث، الذين فحصهم، تقع نسبة ذكائهم بين ٧٥، ١١٠. ولكن لا يتطرقن إلى ذهننا، أن نقص الذكاء هو السبب الوحيد في وقوع الأحداث تحت طائلة القانون، ومخالفة قواعد الهيئة الاجتماعية، فهناك أمثالهم عديدون ممن لم يدخلوا في عداد تلك الطائفة.

غير أن العيوب الجسمية، والعاهات أيضا، لها أثرها. ويستدل على ذلك

من بعض الأبحاث التي أظهرت ازدياد العيوب والأمراض والعاهات في الأحداث على نظيرهم من غير الأحداث. ولكن نلفت النظر أيضا، إلى أن تلك العاهات والأمراض الجسمية ليست وحدها المسئولة عن شذوذ الأحداث، بل أحد العوامل العديدة التي تؤدي إليه. وربما كانت تلك العاهات والأمراض سببا في إضعاف إرادة المرء وفي قلة صبره واحتماله لمطالب العرف والقانون.

ويؤيد هذا التعليل، ما نراه من ازدياد حالات الإجرام في السنوات الأولى من المراهقة، حين يجد الفتى نفسه تحت ضغط عوامل جديدة، عليه مجابهتها، والاستعداد لها.

ومن أمثلة تأثير العاهات الجسمية المثال الآتي لفتى يبلغ الثالثة عشرة، كان كثير الهرب من المدرسة، في السنوات الأربع الأخيرة. وقد لوحظ عليه أنه شرس الخلق، كثير الاعتداء، لا يأنس إلى أحد من إخوانه التلاميذ، حتى قبض عليه البوليس مرة لماجمته لسيدة. فلما أحضر إلى المحكمة رفض أن يفتح فاه بكلمة واحدة، وضاعت أسئلة المحكمة كلها عبثا، فأحالته إلى الطبيب لفحصه. ولكن الطبيب أيضا عجز عن إقناعه بفتح فمه لفحصه.

وعلمت الباحثة الاجتماعية من والدة الفتى أنه لا حلق له، وأن الأطفال كانوا يعاكسونه ويغيظونه لذلك السبب. وعدما زارت المدرسة علمت من معلمته ضعفه في القراءة، ولكنها لاحظت تقدمه في القراءة الصامتة. وأخيرا نجحت الباحثة الاجتماعية في إقناعه بأن يسمح للطبيب بفحص حلقه. ولما سألته عن سبب مهاجمته للسيدة، أجاب إنها تشبه معلمته بالمدرسة. وقد عولج حلقه واستمر في دراسته بنجاح، ولم يسمع عنه شذوذ بعد ذلك.

ويجب على كل مهتم بتربية النشء أن يدرك تمام الإدراك أن الفتى

والفتاة يخضعان، إلى حد كبير، للعوامل النفسية والاجتماعية المنصبة عليها، ولذا يجب النظر في تلك العوامل لوقايتهما منها، والعمل على علاج العوامل النفسية التي يمكن علاجها.

ومن أبلغ العوامل أثرا في نفوس المراهقين، البيئة المنزلية، وأثر الوالدين وعليهما أن يذكرا أن كلا من الفتى والفتاة، الذي كانت آماله ونشاطه محدودا بجدران المنزل، قد اتسعت آماله الآن، وأصبحت الحياة الخارجية تجذبه، ولا يكتفي بالبيئة المنزلية الضيقة، التي لا يعدو أفرادها أعضاء الأسرة. وإن الوالدين اللذين يرغمان بنيهم وبناتهم على الإخلاد إلى الحظيرة العائلية الضيقة، ويكبحان جماحهم في ميلهم لاستكشاف ما وراء حدود المنزل، يتعسفان، ويدفعان بهم إلى العصيان أو التستر على علاقاتهم الخارجية. والأفضل أن يعترف الأبوان بميول بنيهم المشروعة، وأن يعلما أن اتساع أفقهم العقلي والاجتماعي أمر طبيعي، لا مناص منه، يجب أن يشجع بدلا من أن يعترض لأنه يعين على النمو العقلي، ويحفظ الدوافع النفسية في طرق صريحة مشروعة.

ولا شك أن الفتيان والفتيات عندما يجدون استعدادا من آبائهم ومربيهم للاستماع لرغائبهم وآمالهم يثقون بهم، ويأتون إليهم للاسترشاد والنصيحة، بدلا من إخفاء أمورهم عنهم، والالتجاء للأغراب والخلان.

ولا يغيبن عن الذهن أن تأثير الحظيرة العائلية كبير عن طريق التقليد والاستهواء، فالفتى والفتاة اللذان ينشآن في أسرة ينتشر فيها السكر أو الشقاق والضجيج، في خطر كبير من أن تنطبع تلك النقائص في نفوسهم، بل قد تصبح مثلًا عُليا، ولو بطريقة غير شعورية. وأن اضطراب الحالة الاقتصادية للعائلة عامل لا يستهان به لدفع الناشئين فيها إلى الإجرام، إذا لم تكن التربية

المنزلية قويمة لحد يدفع عنهم سوء تأثير الحالة الاقتصادية. فالفتى الذي يكون خالي الوفاض، حين ينفق إخوانه على الحلوى أو اللعب أو دور السينما، أو غير ذلك، قد يندفع في سبيل الافتراض، أو قد يقبل نقودا من ذوي الأغراض السيئة الذين قد يسيئون إلى أخلاقه وآدابه، وقد يستأجرون للأجرام نظير دراهم معدودة.

ولا شك أن الكثيرين من أبناء السبيل في مصر، الذين نراهم في طرقات المدن يبدأون حياتهم الإجرامية بتلك الطريقة، فإن عائلاتهم الفقير ضافت بإطعامهم ذرعا، فدفعتهم إلى الشوارع غير مكترثة بما حدث لهم، فيكون مصريهم سوء الخلق أو الإجرام أو كلاهما. ولقد تمكنا من علاج الكثير من حالات السرقة بتقرير مصروف يوفي للصبي.

وإن انفصال الأبوين بالطلاق أو غيره لمن العوامل الشديدة الأثر في الأبناء والبنات، لأن انصراف الأبوين عن الاطفال لانشغالهما بالشقاق، ولاضطرابهما العصبي، وعدم التعاون بينما، يؤدي إلى إهمال الأطفال، فيشقون في الحياة لأنفسهم كيفما عن لهم، من غير ناصح أو رادع، فتسوء حالتهم النفسية والصحية، وخاصة إذا ما كانت العائلة فقيرة، وبذا يصبحون قاب قوسين أو أدنى من الإجرام، حتى يقترفون عملا يقع تحت طائلة القانون من غير علم لهم بما يقره القانون ولا يقره. ولقد عرضت على المؤلف حالة لطفل نرمز له بحرف "ح" من أسرة متوسطة الحال، ليست فقيرة، وليست غنية. وقد انفصل الأب عن الأم، وتزوج غيرها، وقام الخلاف كالعادة على الطفل، فتسلمه أبوه، وتنازلت عنه الأم، واشتغلت هي في إحدى الوظائف البسيطة لتكسب أودها.

ونذكر هنا أن كلا من الأب والأم حائز لقسط متوسط من التعليم، وبعبارة أخرى ليس الفقر من العوامل الفعالة، في حالة ذلك الصبي. ولم

يستطع الطفل الذي يبلغ من السن حوالي الثانية عشرة أن يجد السعادة والهناء في أحضان امرأة أبيه، ولم يجد من أبيه العطف والإشراف الكافيين ن فهجر المدرسة وهام في الطرقات، ولم يكن أبوه بمهتم بالبحث عنه حين تغيب عن المنزل. فأخذ الطفل يتردد على دور السينما يصرف فيها ما يصل إلى أيديه من الدراهم، وجعل يطرق دور الأقارب في ساعات متأخرة من الليل طلبا للمأوى والغذاء، كما جعل يتردد على المخابئ العامة طلبا للنوم مع الجنود المكلفين بحراستها.

وقد علمت الأم بتغيبه فأرسلت البوليس في أثره حتى قبض عليه وأحضره إليها، فأعطته ما تيسر من النقود وأرسلته إلى أبيه. ولكن الفتى ظل في سلوكه هائما لا يدري له مستقرا، حتى تدخل الباحث الاجتماعي للمكتب وحاول إثارة اهتمام كل من الأبوين، وإثارة شعورهما بواجبهما نحو ذلك الناشئ، الذي ضاع فريسة لانفصال الأبوين.

وتمكن من إعادة إلحاقه بإحدى المدارس الابتدائية، مع إقناع الأبوين بالاشتراك في المصاريف الضرورية للفتى. ولكن ظل كل منهما محتاجا إلى إقناع كثير لإخراج الحزازات الزوجية من نطاق تربية الفتى، وعدم تضحيته على مذبح الطلاق والنزاع الزوجي. ولقد قام المكتب بتقديم المعونة في شراء بعض الملابس الضرورية لحفظ كرامة الطفل بين إخوانه في المدرسة.

وكان من نتيجة معونة المكتب في إصلاح الحالة الاجتماعية للطفل أن نجح نجاحا باهرا في الامتحان، وأخذ معلمه المشرف عليه في المدرسة يعني به عناية خاصة، ويهتم به من الناحية الفردية والاجتماعية. ويسرنا أن نقول إن ذلك الطفل قد قبل بالقسم الداخلي بإحدى المدارس الأميرية الثانوية ويسير في دراسته بنجاح عظيم.

وإن المستوى الاقتصادي للأسرة كذلك شديد الصلة بإجرام الأحداث، فالأبوان اللذان يضطران لكسب أود الأسرة، لا يجدان الكثير من الوقت للعناية بأطفالهما، ولاسيما إذا كانت الأم كثيرة التغيب عن المنزل لاشتغالها بعمل أو لأي سبب آخر. والسبب الاقتصادي من أقوى الأسباب التي تجعل الأحياء الفقيرة منبعا للمجرمين عامة والأحداث خاصة.

وازدحام المساكن عامل هام في نشوء الأحداث، نظرا لاختلاط الأطفال ببعضهم، وتقليدهم واستوائهم البعض للبعض الآخر، مع صعوبة فصل الأخيار عن الأشقياء، فضلا عن أن ازدحام الناشئين في المساكن كثيرا ما يؤدي إلى المشاكل الجنسية.

وكما أن البيئة العائلية لها أثر خطير في نشوء المجرمين، نجد كذلك أن الحي الذي تعيش فيه الأسرة، له أثره الفعال في أخلاق الناشئين، لأنهم في حظيرتهم العائلية لا يعيشون منفصلين عن الجيران أو أبناء الحي.

وإن مسئولية المدرسة في علاج الأجرام، ومنع انتشاره لكبيرة، ففيها تمكن ملاحظة مبادئ الأجرام قبل استفحاله، كسرقة التلميذ كتب إخوانه، أو تغيبه عن المدرسة من غير علم المنزل وهكذا. وتستطيع المدرسة بذل النصح والإرشاد واستقصاء أسباب الاعوجاج، حتى لو احتاج الأمر إلى عرض الطفل على الطبيب أو العيادة السيكولوجية. وإن الأمثلة التي تدل على أهمية المدرسة في علاج صعوبات الأطفال وشذوذهم لكثيرة، وقد ذكرنا بعضا منها. وقد حدث مرة أن رسبت فتاة ثلاث مرات متعاقبة في فرقة واحدة، مع أن نسبة ذكائها كانت تبلغ التسعين.

وقد تبين في الفحص أن فمها مريض، وأسنانها معتلة، وحلقها كذلك في حالة إلى العلاج. فلما عولجت هذه الفتاة وتحسنت صحتها، تحسنت كذلك

حالتها الدراسية، وزاد حبها للمدرسة، كما زاد نشاطها وحب معلمتها لها، بعد أن كانت تشكو من سوء سلوكها من قبل.

ونروي هنا مثلا آخر، من البيئة المصرية، يبين كيف أن اهتمام ناظر المدرسة ومعلميها باستقصاء مشاكل التلميذ، بروح العطف والتفهم، تكشف عن أشياء لا يكشف عنها العقاب والصرامة، كما توضح ضرورة عناية المدرسة بالحالات الفردية بدلًا من النظر إلى التلاميذ في هيئة كتل أو مجموعات متماسكة تتحرك معا.

لاحظ ناظر إحدى المدارس الثانوية أن تلميذا معينا (نرمز إليه بالحرف ع) كثير التغيب عن المدرسة، كما أنه أقدم مرة على سرقة خريطة رسمها تلميذ آخر في فصله بأن انتزعها من كراسته خلسة وألصقها في كراسته هو مدعيا أنها له.

ولما تعمق الناظر في بحث الأمر وجد أن غياب التلميذ يتخذ شكلًا دوريًا مُعينًا فهو يحدث دائما في أوائل كل شهر، وعبثا حاول الناظر أن يحصل من التلميذ على حقيقة أمره، وأسباب غيابه، وسرقته للخريطة، وذلك لما تعود التلاميذ أن يروه حول ناظر المدرسة المصرية من رهبة.

فلجأ الناظر إلى طبيب المدرسة، ورجاه معاونته في استدراج التلميذ ليقر له بحقيقة الأمر، فلما نجح في الوقوف على كنه الأمر، نظرًا لثقة التلميذ أن الطبيب لا يستطيع عقابه على غيابه، بقيت مشكلة إخبار الناظر بما علم، نظرا لما وضعه التلميذ فيه من ثقة، وما وعده به من الكتمان.

وأخيرًا نجح الطبيب في إقناعه بأنه لا ضرر من إخبار الناظر، وطمأنه إلى نتيجة ذلك. وهكذا أمكن لناظر المدرسة أن يكشف عن مأساة اجتماعية دلت على حالة نفسية مليئة بالتضارب، في جهود فتى يحاول أن يستمر في تعليمه، في نفس الوقت الذي كان لا يجد القوت الكافي أو العطف الكافي، أو الارشاد إلى كيفية شق طريقه في الحياة.

وخلاصة حالته أن أباه تزوج غير أمه وتركه يعيش خارج المنزل، مكتفيا بدفع سبعين قرشا في الشهر له، في نظير مسكنه ومأكله وملبسه، فلم يكن من الفتى إلا أن توصل إلى مسكن لدى امرأة تؤجر غرفا رثة حقيرة، بخمسة قروش في الشهر، حتى إذا عجز في أول كل شهر عن دفع ما عليه لها، حجزت عنه كتبه، فاضطر للانقطاع عن المدرسة.

أما سرقته للخريطة فكانت لعجزه عن أداء ما كلف به، نظرا لتلك الظروف القاسية المحيطة به. عندئذ اتصل الناظر بولي أمر التلميذ، وبعد محاولات عدة حضر لمقابلته والتشاور معه في أمر ابنه، واتفق معه على زيادة المرتب لابنه زيادة طفيفة، بعد امتناع شديد من الأب. ولقد استطاع الناظر أن يحصل لذلك التلميذ على معونة مادية من بعض الجهات، ولكن الشاب اضطر أخيرا للانقطاع عن الدراسة والبحث عن عمل يرتزق منه.

ولو كان الناظر قد وجد تعاونا كافيا من ولي أمر الشاب لأعانه على الاستمرار في الدراسة. هذا المثل يوضح لنا كيف أن اهتمام المدرسة بالحالات الفردية للتلاميذ وبمشاكلهم الخاصة تفتح أمامها الطريق لإصلاح نواحي اعوجاجهم وحل مشاكل لا يستطيعون حلها بمفردهم.

هذا بالاختصار استعراض عام، لبعض العوامل الاجتماعية، التي تؤدي إلى نشوء الشذوذ أو الإجرام، في نفوس المراهقين، وسنبحث فيما يلي

العوامل النفسية التي تؤدي إلى نشوء الأحداث.

قدمنا قبل الآن، أن دور المراهقة، يتميز بازدياد النشاط والقوة الحيوية في نواح خاصة من الفرد، وأن ذلك النشاط الجديد، قد يؤدي إلى صعوبة الهيمنة على بعض الغرائز، فتظهر عندئذ بشكلها الطبيعي الأولى، الذي قد يتنافى في كثير من الأحيان مع تقاليد المجتمع وقوانينه المرعية. وليست هناك أية فائدة من تجاهل الخطر أو المشكلة بأن ندير ظهرنا، فإن ذلك قد يؤدي إلى ما يعرف في علم النفس باسم " الكبت " فإن إرغام الفتى على تجاهل رغبة ما وتناسيها وإخضاعها لقوة الإرادة، قد يدفعها إلى غياهب اللاشعور، وهناك الضرر المحقق. ويجب ألا نغتر بالظاهر، وهو عدم ظهور تلك الرغبة لملاحظتنا الخارجية البسيطة، إذ أنها تكون في تلك الحالة فعالة في الخفاء، فيكون ضررها على صحة الفتة وحياته الوجدانية أكثر خطرا، ويجب أن يكون ناموسنا في تأديب المراهق الإرشاد والنصيحة بدلا من التجاهل والإخماد.

وإن أبحاث الدكتور بيرت على أحداث المجرمين، معين لا ينضب، نستفيد منه الشئ الكثير في معاملتنا للمراهقين، حتى لا تصل حالهم إلى مثل ما وصلت إليه حال هؤلاء. ولقد درس الدكتور بيرت عددا كبيرا من هؤلاء الأحداث، من حيث ظروفهم المنزلية، وتاريخ حياتهم، وحالتهم الصحية في الماضي والحاضر، وذكاؤهم ومواهبهم، ومواضع ضعفهم وقوتهم الدراسية، وحالتهم المدرسية، وأخلاقهم، والظروف التي أوقعتهم تحت طائلة القانون. وفي بعض الأحيان أضاف إلى بحثه التحليل النفساني. ولقد خرج من أبحاثه بنتيجة هامة، وهي أنه تقريبا في جميع حالات هؤلاء الفتية التعساء، الذين أطلق المجتمع عليهم اسم المجرمين من غير حق، نتجت ظروفهم السيئة من ضعف الهيمنة على واحد أو أكثر من الدوافع الأولية أو الغرائز.

وكما ينتظر، نجد أن سن عدد كبير من هؤلاء الأحداث، تقع بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وهو الوقت الذي تكون فيه حياتهم الوجدانية أقل استقرارا، ويكون التغير فيها أسرع من غيرها. فتطور الميول الذاتية وازديادها قوة، واشتداد الميول الجنسية والاجتماعية، يجعل عوائد الفتى، التي نما ودرج عليها، غير صالحة لتلك الحياة الجديدة، ويوجب تدريبه على حكم تلك الميول الجديدة.

ولا شك أن هذا يحتاج إلى وقت قبل أن يصبح ذلك الفتى فردا من أفراد الهيئة الاجتماعية، مسئولا عارفا لحقوقه وواجباته. إلا أن معرفته لتلك الحقوق والواجبات لا تكفي، إذا كانت تربيته لم تعوده السيطرة على دوافعه الأولية، وتعلمه كيف يستخدمها لصالحه وصالح المجتمع، بدلا من أن تكون شرا عليه ووبالا على المجتمع.

ولا يحق لنا بأي حال من الأحوال أن نعتبره مجرما، ما دامت مقدرته هذه غير كافية، أو ما دامت عقليته قاصرة عن فهم تلك القوانين الوضعية، التي ما وضعت في الحقيقة إلا للرجال البالغين العاقلين، الذين يعلمون حق العلم ما لهم وما عليهم، والذين تعودوا بمرور الوقت أن يسيطروا على دوافعهم الأولية.

ويُمكن تقسيم حالات الشذوذ إلى قسمين على وجه العموم: فالقسم الأول تدخل تحته تلك الحالات التي قصرت فيها إرادة الشخص عن السيطرة على بعض الدوافع الأولية، وقد يكون هذا القصور ناتجا من ظهورها بقوة غير عادية. والقسم الثاني تدخل تحته تلك الحالات التي منع فيها النشاط الجديد من الظهور وكبت، وبذا أوقف النمو الطبيعي في ناحية من النواحي.

والحالات التي من النوع الأول كثيرة، فالفتى الذي يستسلم للمسائل الجنسية، أو الذي يسلك سلوكا مشينا في حضرة النساء، لابد أنه يجد نفسه قاصرا عن السيطرة على الغريزة الجنسية، التي ازدادت قوة، حتى أصبحت وكأنها جديدة.

ومن أمثلة ذلك حالة فتاة بحثها الدكتور بيرت، عمرها ثلاث عشرة سنة، أتى بها أبواها إليه، وقالا إنهما قد ضاق ذرعهما بها. وكانت هذه الفتاة تنتمي إلى عائلة طيبة، غير أنها تبين بالبحث أن كلا من أبويها ذو ميول جنسية حادة. وقالت أمها إن الفتاة مع أنها كانت صادقة غير كذوبة، مطيعة غير عقوقة، إلا أنها كانت تتأخر خارج المنزل في المساء، وكثيرا ما سمعت أنها تصرف أوقاتها مع الشبان، وعلى الأخص الشرقيين منهم. ومع كون تلك الفتاة لم تزد عن الثالثة عشرة، فإن مظهرها الخارجي كان يدل على أنها لا تقل عن السادسة عشرة. أما ذكاؤها فكان فوق المتوسط، وكانت مشهودا لها بالكفاءة في أعمالها بوجه عام، وفوق ذلك كانت لها مواهب خاصة في الغناء.

هذا ملخص حالة الفتاة كما بحثها الدكتور بيرت، أما تشخيصه لسبب هذا الشذوذ الجنسي، فكان ملخصه تجاهل تلك الميول الجنسية القوية، التي لم تستطع تلك الفتاة احتمالها، وقلة النصيحة والإرشاد لاختيار أحسن الطرق للسيطرة عليها.

أما العلاج فملخصه أن نصح أبويها بأن يسمحوا لها بالالتحاق ببعض النوادي الرياضية، كنوادي الهوكي والتنس، وأن تتخذ التمثيل هواية لها، وغيره من أنواع التسلية الفنية، وأن يسمح لها في هذه النوادي بأن تتخذ أصدقاء من الرجال، وأن يعترف بهم صراحة، وألا تكون علاقتها بهم سرية، أو محادثتها

معهم خلسة، كما نصحهم أن يتموا تعليمها، وأن يزودوها بالمعلومات الكافية عن الأمور الجنسية، ويمكن لطبيب العائلة أن يزودها بتلك المعلومات.

ويظهر أن هذه السياسة الإيجابية الجديدة التي اتخذها نحوها أبواها، والتي كان ملؤها العطف بدلا من الاحتقار والتأنيب، كانت ناجحة بوجه عام، إذ لم يسمع بعد ذلك أية شكوى من أبويها، بل على العكس سمع أنها أصبحت ممثلة يبشر مستقبلها بنجاح، وأصبحت في هذا الوقت العائل الوحيد لأسرتها.

أما عن النوع الثاني، الناتج عن كبت رغبة أو غريزة، فمن الثابت في علم النفس، أننا إذا منعنا ميلا طبيعيا أو غريزة من الظهور، فإنا لا نفني هذا الميل أو هذه الغريزة، بل على العكس قد يبقى كل منهما فعالا في الخفاء، يؤثر في سلوك المرء بطريقة غير مباشرة، وقد يظهر بطريقة رمزية أثناء النوم في الأحلام، أو أثناء النهار في أحلام اليقظة.

ومن أمثلة ذلك مثال الفتاة الذي قدمناه (صفحة ٦٥)، وكانت في دور المراهقة تنغمس انغماسا كبيرا في أحلام اليقظة، وبلغ من شدة انغماسها فيها أنها كانت تأتيها بانتظام، وتعطي لنفسها فرصة الاسترسال فيها، كأنها حياة أخرى، تعيشها الفتاة كلما انفردت بنفسها. ولم يكن هناك من عمل أو درس يعكر عليها صفو هذه الأحلام، ويضطرها للعودة إلى عالم الحقيقة. وقد كتبت عن نفسها بعد أن كبرت تقول ما يأتي: (كنت في دور المراهقة أتخيل نفسي دائما كأم لعائلة.

أما هؤلاء الأبناء الخياليون، فلم أرهم أبدا كأطفال، بل كصبية وبنات، يتراوحون بين الحادية عشرة والخامسة عشرة. وكنت أتصورهم في حاجة إلى معونتي ومساعدتي، وكانت صورهم واضحة جد الوضوح في ذهني، فمنهم

واحد كان قويا بدينا أعرفه جيدا، وآخر خيالي كأنه منغمس في أحلام، والثالث كان شقيا، ثم بنتان.

أما أب تلك العائلة فلم يكون واضحا تمام الوضوح في مخيلتي، وكانت صورته تتغير من آونة لأخرى. ولقد انتهت هذه الأحلام حوالي سن التاسعة عشرة أو العشرين أو ما بعد ذلك). ولقد نتج من البحث كما قدمنا، أن هذه الفتاة لم تنشغل بالحب أثناء المراهقة، كما أنها لم تتخذ أصدقاء حميمين. ومما ذكرته عن نفسها أنها كانت تمضي جزءا كبيرا من وقتها في المطالعة.

هذا مثال يوضح لنا انسداد السبيل في وجه النشاط الجديد، وعدم السماح له بالظهور. وقد قلنا إنه يلاحظ مما قالته هذه الفتاة عن نفسها، إن الميول الجنسية لم تظهر بشكل صريح، غير أن هذا لا يدلنا مطلقا على انعدامها، بدليل وجود أحلام اليقظة التي كانت تنغمس فيها بانتظام، وما كانت هذه الأحلام سوى طريقة غير عادية لظهورها، تساعد على التنفيس عنها بدلا من كبتها.

وهاك مثلا آخر مشابها لما ذكرنا، نأتي به هذه المرة من الأحداث. ونلاحظ هنا على سبيل المقارنة أن المثل السابق، رغم اشتداد أحلام اليقظة فيه، لم يصطدم عالم الخيال فيه بعالم الحقيقة، بحيث يصبح الشخص مجرما، أو مريضا اجتماعيا، أو شاذ الخلق، بعكس المثال الآتي، وهو من أبحاث الدكتور بيرت. وملخصه أن فتاة اسمها نللي مالونيNellie Malone أتى بها للدكتور بيرت وهي في سن السادسة عشرة، وكانت عندئذ تشتغل كخادمة في منزل، وكانت متهمة بأنها كثيرا ما سرقت أشياء أهمها المجوهرات والمصاغ من سيدتها. وقيل إنها كانت كذوبة ممعنة في الكذب إذا ما سئلت عن هذه السرقات. ولكن كذبها لم يكن قاصرا على السرقة، بل

كانت كذلك تنتحل كلاما تأتي به من خيالها الواسع عن مواضيع شتى. وبالبحث والتحليل وجد بيرت أن هذه الفتاة منذ طفولتها كانت كثيرة الانغماس في سلسلة من أحلام اليقظة، وفي وقت هذه السرقة كان الحلم الذي يلذ لها أن تنغمس فيه، يتلخص في تقدم البرنس أوف ويلز (ولي عهد انجلترا) بالخبطة إليها، وكان هذا هو السبب في سرقتها لمجوهرات سيدتها، إذ كانت تتخيل عند لبسها لتلك المجوهرات أن خطيبها العظيم قد أغدق عليها الهدايا.

ولاشك أن ظروفها المنزلية العائلية كانت أحد الأسباب التي نتجت عنها تلك الحالة السيئة، فوالدها الذي كانت تحبه في طفولتها، اختفى في يوم من الأيام، ولم تعرف له مقرا، ولما سألت أمها عن سبب اختفائه لم تعطها جوابا مقنعا، مما أوجد في نفسها كراهية وحقدا عليها. هنا نجد أن عاطفة الحب قد اصطدمت، وأوصد سبيلها قبل الوقت الذي تطورت فيه إلى الحب الجنسي، فضلا عن ظهور العداء بينها وبين أمها، واشتغالها كخادمة بائسة في بيئة غير ملائمة لها. كل هذه الظروف كانت أكثر مما يُمكن للفتاة أن تتحمله، فاضطرت إزاء ذلك، رغما عنها وعن غير عمد، أن تفر من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال، وأن تبني لنفسها في أحلام اليقظة، جنة تنعم فيها بما تحب وتهوي من غير رقيب.

فكأن جريمة السرقة التي ارتكبتها هذه الفتاة لم تكن سوى منفس لتلك الانفعالات التي صدمت وأوقف سبيلها. وإن هذا المثال لهام جدا، إذ يدلنا دلالة واضحة على ما لكبت الميول والانفعالات من الخطر، كما يبين لنا الأثر السيئ الذي قد تحدثه الظروف المنزلية الشاذة في انفعالات وعواطف الطفل، الذي ينمو في كنفها.

في المثالين السابقين، لاحظنا أن الخطب نجم عن الميول الجنسية، ففي الحالة الأولى ضعفت إرادة الشخص عن الهيمنة عليها، وفي الحالة الثانية اصطدمت هذه الميول بعالم الحقيقة فكبتت، فاتخذت لها منفسا غير طبيعي كان هو عين الضرر. ولكن ليس معنى هذا أن الميول الجنسية هي دائما العامل الفعال في كل شذوذ خلقي، أو مرض عصبي. فإن الدوافع الذاتية أو "الأنانية" أيضا، قد تجمح بالشخص فيصعب عليه كبحها، أو قد تصطدم بما هو أقوى منها، وتوصد في سبيلها الطرق فتكت. وفي كلتا الحالتين يكون الفرد معرضا لأضرار مشابهة لما ذكرناه في الحالات السابقة.

فمن الأمثلة التي توضح لنا كيفية التنفيس عن تلك الميول الذاتية مثل فتى نأتي به من الأحداث الذين درسهم الدكتور بيرت. واسمه ستانلي، كان يبلغ الثانية عشرة من العمر.

وكان كثير الهرب من المنزل، وكثير النوم في العراء ليلا، وكان يسرق بعض الفاكهة والحلوى من الباعة، حتى نشل في يوم من الأيام ورقة من فئة الخمسة الجنيهات من صندوق عمه. ولما اكتشفت فعلته، قال: "إني أريد السفر. لقد سرقتها لأسافر بها إلى الخارج". وعند البحث تبين أنه ضعيف في المدرسة، وأن مدرسه كان يظنه ضعيف العقلية.

غير أن اختبارات الذكاء دلت على أنه فوق المتوسط. وهذه نقطة هامة جديرة بالملاحظة، فوجود مثل هذا الفرق العظيم بين عمله في المدرسة وذكائه، يدلنا على أن نشاط هذا الصبي كان منصرفا إلى ناحية أخرى غير العمل الدراسي. كما أن كثرة تجواله وحيدا منفردا، دلت على أن هذا الفتى لا يعيش في عالم واحد، بل في عالمين مختلفين. وبالبحث والتدقيق توصل الدكتور بيرت إلى الاكتشاف الآتي، وهو أن هذا الفتى بدلًا من أن يوجه

انتباهه ونشاطه نحو عمله الدراسي، كان على العكس ينغمس في حلم مستديم، يتخيل نفسه فيه بطلا يجوب الآفاق، ويكتشف المجاهل، على نمط مكتشف أفريقيا العظيم ستاتلي، الذي كان يشبهه في الإسم.

ولما كان عالم الحقيقة الذي يعيش فيه، لم يمنحه من الفرصة للحرية والمغامرة ما منحه المكتشف العظيم، فإن هذا الفتى لجأ إلى عالم الخيال، وتصور أن الباعة في الطريق، وأصحاب الحوانيت، ورجال البوليس، وأقاربه وأفراد عائلته، أعداد له، كما كانت قبائل أفريقيا أعداء للمكتشف ستانلي، وكان عليه حينئذ أن ينقض عليهم، وان يستعمل قوته وحليته في التفوق عليهم.

ولقد كانت الظروف المنزلية هنا أيضا من الأسباب التي أدت إلى ذلك الشذوذ، كما في حالة نللي مالوني التي سبقت، فكان الأب والأم من الناس الهادئين، الوديعي الطباع، يمضون وقتهم في المنزل، لا تخلب لبهم الحياة الخارجية وما فيها من مخاطرات، على النقيض من ولدهما. وكثيرا ما كان الأب يمتدح ولديه الآخرين على مسمع من ستانلي، ويظهر إعجابه بسلوكهما مما أدى إلى إيجاد العداء بينه وبينهما، وبالاختصار كان ذلك المنزل بيئة غير ملائمة له. وقد أشار الدكتور بيرت بأن يعطي الفتى فرصة للحرية واللعب في مكان آخر، غير ذلك المنزل الهادئ الوديع، فأرسل إلى مزرعة في الريف لإكمال تربيته وتعليمه، فأتم دراسة خمس سنوات في أقل من ثلاث سنوات. وبعد ذلك دخل مدرسة البحرية مما أدى إلى علاج الشذوذ الذي كان في أخلاقه وهذا طبعا نتج عن حسن فهم العلة وحسن وصف العلاج.

ولقد لوحظ أن معظم جرائم البنات ترجع إلى سبب جنسي في الأصل على الأقل، إن لم تكن ذات مظهر جنسي فعلا. والمثالان المتقدمان يظهران

ذلك بوضوح. والظروف التي تساعد على الإجرام كما قدمنا تكون في أكثر الأحيان الضعف العقلي، والشذوذ الجسمي، والنمو الوجداني غير المكتمل، وضعف الإرادة، وفقد الأبوين، وجهلهما، وإدمانهما للشراب، وفقدان أحد الوالدين أو هجره للعائلة، وعدم تربيتهما. وليس من الضروري طبعا أن يؤدي وجود بعض تلك الأسباب أو كلها إلى الإجرام، ولكنها لوحظت في غالبية الأحوال التي وقعت تحت طائلة القانون.

ولا شك أن مثل هؤلاء المجرمين الأحداث يدخلون تحت طائلة القانون مع جهلهم به، وعدم قدرتهم على تحاشي الظروف التي تؤدي بهم إليه. وكانوا في وقت من الأوقات يعاقبون، وينظر إليهم بنفس العين التي ينظر بها إلى المجرم البالغ، أما الآن فإن الكثير من الأمم المتمدينة قد غيرت نظرتها إليهم فأنشأت لهم محاكم خاصة تسمى محاكم الأحداث، كما عهدت بهم إلى قضاة متنورين، غرضهم في الحقيقة الإصلاح لا العقاب. وقد اتجهت مصر هذا الاتجاه أيضا.

ويجدر بنا هنا أن نقول إن مثل هؤلاء الأحداث في حاجة إلى العطف، فهم أشبه بمرضى يحتاجون إلى العلاج، لا إلى الاحتقار والعقاب. على أن علاجهم يجب أن يقوم به إخصائيون، وفي كثير من البلدان يقوم بهذا العمل علماء نفس مدربون. ويأخذ بهذا النظام مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة.

نخرج من الأمثلة التي أوردناها بنتيجة هامة، وهي أن المراهقة دور يحتاج فيه كل من الفتى والفتاة إلى معاملة خاصة، نظرا لظروفه الجديدة التي وجد فيها، وعماد هذه المعاملة يجب أن يكون العطف عليه، وفهم رغباته وميوله وطبيعته النفسية. فمثلًا الفتى ستانلي الذي ذكرناه، كان في الاستطاعة

مساعدته وانتشاله من وهدة الإجرام، لو هيئت له الفرصة لإرضاء حبه للتجوال والمخاطرة، وهذه الفرصة تسنح في المعسكرات وحياة الريف والأسفار أثناء الإجازات ونظام الكشافة. كل هذه الأشياء ترضي فيه تلك الميول في حدود التقاليد والقانون، تحت إشراف أبويه ومعلميه، ولا شك أن في ذلك تربية وتثقيفا له، فضلا عن فائدته في تحاشي ذلك الشذوذ الخلقي الذي ذكرناه.

ومن هنا تتضح لنا فائدة من أهم الفوائد التي تعود على الفتيان من نظام الكشافة، ذلك النظام الذي يستخدم تلك القوى الحيوية والدوافع القوية التي تملأ الفتيان إقدامًا ونشاطًا. في تربيتهم ولفائدتهم، تلك الميول والقوى التي لو تركت وشأنها لدفعتهم إلى الشر بدل الخير، وإلى طاعة رؤساء العصابات، وإلى الإجهاز على الضعيف بدلا من نصرته، والعبث بالقانون بدلا من حمايته.

فالميول والقوى الدافعة، من الوجهة النفسية، ليست خيرا ولا شرا، فالفتى يشعر بنداء من نفسه عليه أن يلبيه، ولا يدري أن هناك قوانين تمنعه من تلبية ذلك النداء، نظرا لما يجره ذلك من وبال على المجتمع، فهو لم يعرف قوانين الأخلاق بعد، ولم تتسع خبرته لفهم حالة كل من الضعيف و المظلوم والبائس والمسكين. وفي الحقيقة إن قواعد السلوك ليست إلا مقاييس يضعها المجتمع، فتختلف من عصر لعصر، ومن أمة لأمة، ومن بيئة لبيئة، تبعا للظروف المحيطة بكل منها.

ولا شك أن الإحاطة بها تحتاج إلى دراسة وخبرة وإرادة لم تتوفر بعد لدى المراهق. فالفتى الذي يود إرضاء غريزة المقاتلة، لا يهمه أن يقاتل في نصرة الحق، أو في نصرة الباطل، ولكن المجتمع يمجد الذين يقاتلون في نصرة الحق، ويذل الذين يقاتلون في نصرة الباطل، وهذا أمر لم يتعلمه الناشئ

بعد، فكان لزاما علينا أن نعلمه ذلك، وأن ندربه عليه، لا في حومة المجتمع، بل في بيئة صغيرة خالية من التعقيد، يمكنه أن يتعلم فيها على مهل، وتعطي له الفرصة لإصلاح أخطائه، واكتساب الصفات الحميدة التي يمجدها المجتمع الكبير. ولا شك أن نظام الكشافة هو ذلك المجتمع المنشود، ففيه فرصة للحرية وإظهار ما لدى الفتيان من قوة جسمية أو معنوية كما فيها إرضاء لحب التجوال والمخاطرة، كما في المعسكرات والرحلات الشاقة. فالنوم في الخلاء، وقيام الفتيان بحراسة أنفسهم، وتجوالهم في جهات غير مأمونة، وارتقاؤهم للجبال العالية، واجتيازهم للفيافي والقفار، كل هذه الأشياء على ما بها من مشقة، لذيذة سارة لإرضائها ميولا طبيعية. وإن لم تعط هذه الميول تلك الفرصة للظهور لاتجهت اتجاهات أخرى، قد تكون غير مرغوب فيها كما اتضح لنا. فغريزة الاجتماع مثلا إذا لم تجد فرصة في اجتماع الفتى بأقرانه في فرقة واحدة، وانضوائه تحت لواء الفرقة ورئيسها، قد تدفعه إلى تكوين العصابات التي قد تعمد إلى السرقة، ومعاكسة البوليس، أو القتال مع أفراد عصابة أخرى، لا لغرض ما سوى إرضاء بعض الغرائز، كغريزة المقاتلة وإثبات الذات والاجتماع وغيرها.

ولقد تغير موقف المجتمع والحكومات في أوروبا وأمريكا، نظرا لاقتناعها بضرورة علاج الأحداث بدلًا من عقابهم فأصبحت المحاكم ترسلهم إلى مدراس خاصة بدلًا من الإصلاحيات أو السجون. ولقد بلغ من تغير الموقف في أمريكا، أن أصبحت المحاكم تعهد ببعض الأحداث إلى مدارس خاصة، لا تختلف عن غيرها من المدارس ولا تشبه السجون في شئ ما على الإطلاق. ومن أمثلة تلك المدارس المدرسة المُسماة "قرية الأطفال"، وهي في ضواحي مدينة نيويورك بأمريكا.

وفي تشبه قرية مستقلة، نظرا لاتساع أرضها، وترامي أبنيتها وكثرة الطرقات التي تشق أملاكها. ومما هو جدير بالذكار، أن تلك المدرسة لا أبواب لها والهرب متيسر لمن يشاء من تلاميذتها. فهي بذلك قد خرجت من عداد السجون وألقت على الناشئ مسئولية البقاء فيها بدلا من أن يجبر على ذلك بالأبواب المقفلة والحراس الساهرين والحرب المشهورة.

وتلك المدرسة داخلية أي يعيش فيها الاطفال ويتعلمون، ولكنهم يسمح لهم بقضاء الإجازات في بيوتهم بي أهلهم وذويهم فهي ذلك لا تمت إلى السجون بوجه شبه ما.

ويسكن الأطفال في بيوت مستقلة مبعثرة في أنحاء القرية، يضم الواحد حوالي الخمسة عشر فتى يعيشون تحت إشراف " أب وأم ". ويقوم الفتيان بأمر المنزل من تنظيف وإعداد موائد الطعام وغير ذلك، ولهم زعيم منهم ينوب في الكلام عنهم وغير ذلك.

ويقوم الفتيان بأعمال كثيرة في التجارة والطلاء وإصلاح الأدوات بدلا من العمال المأجورين، ويعطون عليها أجرا يدخرونه فيكون في ذلك تدريب لهم على كسب عيشهم بعرق جبينهم فيما بعد.

والفكرة التي تقوم عليها تلك المدرسة وأمثالها أن التربية والتعليم والعلاج أنجع من العقاب وأن الشخص الذي يعجز عن مسايرة قواعد المجتمع المرعية مريض أحق بالعناية منه بالعقاب.

وإن أهم نصيحة نسديها للآباء والمربين، الذين يقومون بتربية الفتيان والفتيات، هي أن يتبسطوا إلى مستواهم، ويحاولوا فهم الدوافع التي تدفعهم ويهيئوا لهم الفرصة لإرضاء تلك الدوافع، بالكيفية التي ترضي المجتمع، وتفيدهم في حياتهم الحاضرة والمستقبلة. وعليهم أن لا يقفوا في سبيل

ميولهم الذاتية والاجتماعية، وأن لا يحاولوا تربيتهم بالإكراه والإهانة والإخضاع، لأن هذا يصطدم مع ميولهم الذاتية. كما أن حبسهم في المنازل لا يرضي ميولهم الاجتماعية، فهم في حاجة إلى الحرية، ولا نقصد هنا الحرية المطلقة، بل الحرية المنظمة المفيدة، التي يشبع فيها الفتى ميوله الذاتية، عندما يشعر أن لا رقيب عليه. وميوله الاجتماعية عندما يجتمع بأقرانه ويعيش معهم عيشة الند للند.

وعلى سبيل التمثيل، وأيضاح ما لذلك الاجتماع والصداقة من قيمة في نفس الفتى، نقتطف الكلمات الآتية من مذكرة فتى، كتبها وهو في سن السادسة عشرة، وقد ضمنها خطابا وجهه لنفسه عندما يصبح رجلا، له من الأولاد من هم في سن السادسة عشرة مثله وهي:

"عزيزي جاك..

أكتب إليك هذا الخطاب لأذكرك بما تكون قد نسيت. لعلك الآن أب لفتى مثلي، أو فتاة في السادسة عشرة من العمر. عدت الآن إلى المنزل بعد أن كنت مع صديقي كارل، وقد رافقني إلى منزلي فرافقته إلى منزله، وكثيرا ما يرافق الواحد منا الآخر على هذا النحو فلا تحظر على ابنك أن يفعل ذلك أيضا يا جاك. نعم قد يكون بليدا وعمله في المدرسة غير مرضي، فيخيل إليك أن تجواله هذا مضر به، ولكنك مخطئ، فهو ضروري، وهو ممتع. فالصداقة لا غنى عنها..

ألا فليبعث ذلك الخطاب في نفسك ذكرى شبابك، وجولاتك مع بول أولا، ثم مع بيتروكارل. أتذكر هذا ؟ إذن فاذكر تلك الليالي، نعم تلك الليالي العزيزة النادرة، عندما كانت تفيض نفوسنا بشرا وانشراحا أثناء تجوالنا. لن تعود تلك الليالي. فدع ابنك وابنتك ينتهزان فرصة الاستمتاع بتلك الجولات.

اليوم ذهبت مع صديقي الحميم كارل في إحدى جولاتنا، وتساءلنا عما إذا كنا في المستقبل سنحظر على أبنائنا التجوال شأن كل الآباء".

وليس التوفيق بين هاتين الطائفتين من الميول الذاتية والاجتماعية بالأمر السهل، فإن إرضاء الميول الذاتية لشخص ما قد يتعارض مع الميول الذاتية لشخص آخر، وليست المحاضرات والدروس النظرية في الأخلاق بمجدية في منع اعتداء شخص على حقوق شخص آخر، وعلى الأخص بين هؤلاء الناشئين، الذين يرون الحق في جانبهم مهما كانوا معتدين.

ومن أبدع النظم التي أنشئت للتربية في دور المراهقة، تلك التي تمثل مجتمعا صغيرا، يكون أفراده هم القائمون بالحكم، فيضعون القانون، ويسهرون على تنفيذه، فيكون المعتدي على القانون في تلك الحالة ثائرا ضد من وضع القانون، وهم أقرانه، فيهبون في وجهه، ويرغمونه على احترامه. أما إذا أجبروا كلهم على احترام قانون ليس من وضعهم، بل منزل من رئيس أكبر منهم سنا، مهما كان حقا، فإنهم يعتبرون العقاب الذي يوقع بأحدهم، عقابا لهم كلهم، ويعتبرونه شهيدا، فلا يزيد هذا المعتدي إلا استمساكا بجرمه، واعتزازا بنفسه، اعتقادا بأنه بطل، وأن الجماعة خلفه تؤيده، فلا يزد إلا استبسالا.

ومن أمثلة ذلك، المجتمع الصغير الذي بنا المستر هو مرلين Homer Lane من أحداث المجرمين في انجلترا، حيث جعلهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم. فعند وصول المجرم الصغير إلى ذلك المجتمع، الذي كان يعيش على مزرعة في بقعة من أجمل بقاع انجلترا، كان يجد نفسه حرا طليقا. وكانت أفراد هذا المجتمع تشتغل في تلك المزرعة، ويكتسبون قوتهم بعرق جبينهم، وتدفع لهم أجور كغيرهم من العمال، ويتحملون المسئولية في النهوض

بمجتمعهم والمحافظة عليه، فإذا قعد أحدهم عن العمل، أصبح كلا على غيره منهم، وصار موضع الاحتقار. وكان عليهم وضع القوانين والسهر على تنفيذها والمحافظة عليها. وكانت نظرية المستر هومر لين التي بنى عليها هذا النظام، أنه حتى المجرمين إذا منحوا الحرية، وحملوا المسئولية، فإنهم يتعودون الهيمنة على غرائزهم ودوافعهم القوية الجامحة، وبالتدريج يمكنهم أن يستعيدوا الفرصة التي فاتت لتربيتهم.

الفصل السادس

فطام الشباب

تُطلق كلمة الفطام في العادة على منع الطفل عن ثدي أمه، ولكنا سنستعملها هنا مجازًا، لخروج الفتى المراهق عن سيطرة أسرته النفسية، وتخفيف القيود التي كانت تربطه بها في وقت الطفولة. فمما لا شك فيه أن الظروف المنزلية التي كانت تحيط بالطفل، تصبح غير صالحة له إذا ما بلغ دور المراهقة. كذلك معاملة أبويه له يجب أن تتغير وتصبح ملائمة لعقليته التي تغيرت. وتظهر في دور المراهقة ظاهرة تدفع كل إنسان إلى ترك الحظيرة العائلية التي نشأ فيها، ليتخلص من الروابط التي تقيده بها، وليصبح فردا مستقلا. ولقد أطلق عليها اسم فطام المراهق، نظرا لما بينها وبين فطام الطفل من الشبه.

وقد يصحب هذه الظاهرة اشتداد في الانفعالات أحيانا، أو انحطاط فيها، كما يحدث غالبا عندما نحاول كبح جماح عادة استأصلت جذورها، فأصبح المرء عبدا لها، وهذا ما يحدث في فطام الطفل أيضا، إذ في الحالتين نجد أن كلا من الطفل والشاب قد تعود عادات تمكن من نفسه، وأصبح يستعين بها على ملاءمته للبيئة التي بعيش فيها، ولا يكون هناك أدنى تضارب ما دامت البيئة باقية على حالها لم تتغير، وما دامت نفسيته وعقليته اللتان أملتا عليه تلك العادات باقيتين لم تتغيرا. أما إذا تغيرتا، وأصبحتا تتطلبان بيئة جديدة، وجوا جديدا، فإن العادات القديمة يجب أن يتخلص منها الفرد.

غير أن هذا ليس بالأمر السهل، لأن العادة إذا استأصلت جذورها في نفس الإنسان، صعب عليه التخلص منها، وكلما حاول إبطالها تاقت نفسه للرجوع إليها. وهذا هو السبب في اشتداد الانفعالات أو هبوطها.

ويزيد المسألة تعقدا أن عادات الأبوين ومن يحيط بالفتى يجب أيضا أن تتغير فيما يختص به، فإن هؤلاء قد تعودوا أن يخاطبوه بلهجة خاصة، وأن يعاملوه معاملة خاصة، كانت لحد ما صالحة للدور الذي كان فيه. أما وقد انقضى هذا الدور، فإن عادات هؤلاء كلهم يجب أن تتغير تغيرا يناسب الظروف الجديدة، وإلا كانوا عقبة في سبيل نموه النفسي الطبيعي. وهذا فعلا ما يحدث في كثير من الأحيان؛ أي أن هؤلاء كثيرا ما يكونون مصدر تعب وآلام نفسية عظيمة للمراهق، نظرا لجهلهم بتلك الحقيقة، وبالحقائق الأخرى التي ذكرناها في غير هذا المكان. وهذا هو السبب في أن دور فطام الشاب يكون مصحوبا بآلام ومتاعب نفسية، كما حدث عند فطامه من ثدي أمه وهو طفل.

وقد دلت أبحاث بعض العلماء على أن النزاع الذي ينشأ بين المراهقين ووالديهم، كثيرا ما يسبب آلاما ومشاكل نفسية عميقة في حياة المراهقين. وقد دلت بعض الأبحاث على أن السبب الأول في النزاع، يرجع إلى الخلاف بين المراهقين والوالدين على مسائل مختلفة في مثل وجوب خضوع المراهقين لرأي الوالدين فيما يختص بمظهرهم الشخصي، وملابسهم وآدابهم، وغير ذلك. ويبدأ الخلاف في أوائل دور المراهقة من ثورة المراهقين على التقاليد ورفضهم الطاعة من غير سبب يقتنعون به.

ومن أسباب النزاع بين المُراهقين ووالديهم، تأخرهم في العودة إلى المنزل مساء عن المواعيد التي يقررها الوالدان، في حين أنهما في كثير من

الأحيان لا يدركون مقدار التغير في شخصية أبنائهم وبناتهم، ويرغمونهم على البقاء في المنزل في حين يتوقون إلى الاستقلال والحرية، وقد يغالي المراهقون كذلك في نزعتهم الاستقلالية، غير مدركين قلة خبرتهم، والأخطار الاجتماعية والمادية التي قد يتعرضون لها، إذا منحت لهم الحرية الكاملة دفعة واحدة.

وكثيرا ما تكون المتاعب النفسية التي يصادفها المراهقون، وما يصحبها من انفعالات، سببا في نموهم نموا غير طبيعي، وإحداث شذوذ في أخلاقهم، قد يظل معهم ردحا كبيرا من حياتهم، ولذا كانت مسألة فطام الشباب من أهم المسائل الحيوية، التي يجب أن يعلم بها جميع الآباء والمربين.

وليس المقصود بفطام الشباب، خروجهم من منزل الأسرة، وابتعادهم عن أهلهم ووطنهم، فإن كثيرين قد مروا بدور الفطام هذا، وهم مع عائلتهم تحت سقف واحد، كما أن هناك كثيرين لم يستطيعوا التحرر من القيود العائلية، مع بعدهم كل البعد عن الحظيرة العائلية، إذ لم تتخلص نفوسهم من تلك القويد التي كانت تربطهم بها، والطاعة العمياء التي كانوا يفرضونها على أنفسهم، فهؤلاء مهما بعدوا، ينتظرون من كل من يحيط بهم العطف والرحمة والعناية التي كانوا يستمدونها من الحظيرة العائلية.

كما أننا، في الوقت نفسه، لا نعني بلفظة الفطام خروج الشاب عن طاعة والديه، والتبجيح في حضرتهما، وعدم احترامهما، أو العناية بهما، فإن هذه النقائص قد تظهر أيضا بأقبح شكل في كثيرين ممن لم يفطموا. نعم إن سلوكهم وأفعالهم تشبه تماما أفعال الأطفال، غير أن هذا لا يستلزم تخلصهم من الرابطة النفسية التي تشد وثاقهم، وتمنعهم التصرف الحر المستقل.

أما الانفصال الذي ننشده، فهو التحرر السيكولوجي أو النفسي، لا الانفصال الجسمي، وهو تحرير عواطف الشاب وانفعالاته من سيطرة أبويه النفسية، حتى لا تقف هذه السيطرة في سبيل نموه الطبيعي، وفي اختياره للطريق الذي سيسلكه في الحياة كفرد بالغ عاقل.

فالواجب أن لا يتجاوز الفتى سن العشرين إلا ويكون قد تحرر من ربق الحظيرة العائلية. كما أن عادات الطفولة يجب أن تكون قد كسرت قيودها وظهرت في نفس الشاب علائم الاستقلال، وشعور الثقة بالنفس، والقوة على مواجهة صدمات الحياة، من غير حنين إلى حماية الوالدين وعطفهما. فإذا لم تظهر هذه البوادر، وجب علينا أن نعلم أن هذا الفرد لم يفطم، وأنه لم يتم النمو الطبيعي، الواجب لكل فرد.

ولقد وضع أحد العلماء، اختبارا لمعرفة مدى فطام المراهقين. وتبين بتطبيقه أن مظاهر عدم الفطام، هي كثرة طلب الناشئ للنصيحة والمعونة من الغير، لعجزه عن الاعتماد على نفسه، نظرا لأن والديه كانا دائما يمدانه بالنصح والمعونة، فلم يقو بذلك على مواجهة مشاكل الحياة مُستقلًا.

وتجد مثل ذلك الناشئ كثير السؤال لمعلمه عن معاني الكلمات والإرشادات، وكثير الطلب لشرح المطلوب منه، بدلا من الاعتماد على نفسه في ذلك. ومن علامات عدم الفطام أيضا الحنين الشديد إلى الحظيرة العائلية، إذا ما اضطر الناشئ إلى مفارقتها. وقد يشتد به ذلك الحنين إلى درجة فقد الشهية والأرق. وقد يعجز مثل هذا الشخص عن كسب ثقة رؤسائه أو معلميه لأنه ينتظر منهم الحنو والموالاة، اللذين كان يجدهما من والديه. ونعرض هنا وصفا لشاب، لم يكتمل فطامه: كان هذا الشاب بأحد معسكرات الشباب، وعمره ١٩ سنة. وقد لحظ عليه إخوانه ورؤساؤه شدة شغفه

واستقصائه للتفاصيل بكثرة الأسئلة والاسترشاد، فعزى ذلك في أول الأمر، إلى أنه مبتدئ قليل الخبرة. ولكن مرت الأيام، وأسئلته تكثر، بدلا من أن تقل، ولم يستطع إنجاز عمل ما، من غير استشارة غيره، من معلمي المعسكر، حتى في أصغر الأمور وأبسطها، فضج الجميع من تعدد أسئلته ومضايقته. عندئذ بدأ الجميع يلاحظون أيضا، أن سلوكه لم يزل يشبه سلوك الطفولة، ولم يبد منه ما يدل على رغبته في الاضطلاع بعمل ما.

وقد تبين من الحديث معه سبب ذلك النقص في نموه، إذ كان أبواه شديدي السيطرة على نفسه، فقد رسما له كل تفاصيل حياته، ولم يتركا له مجالا للتجريب، وللاضطلاع بالمسئولية، سواء أكان ذلك في دراسته ومذاكرته، أم في اختيار أصحابه وأوقات خروجه معهم، إلى غير ذلك. وكانت أمه ترافقه لشراء ملابسه، حتى هذه السن، فلم يكن بمستغرب عندئذ، أن ارتبك ذلك الشاب، ولم يستطع التصرف من تلقاء نفسه، حين وجد نفسه في ذلك المعسكر وعليه إنجاز أمور عديدة، والتصرف فيها على مسئوليته الخاصة.

ومن أمثلة عدم الفطام أيضا، فتاة مات والدها، فقامت أختها بتربيتها، وكانت أختها تعني بها، وتحنو عليها بدرجة شديدة، حتى أنها لم تترك لها مجالا للاعتماد على نفسها، بل كانت تعينها في الملبس والمأكل. ثم كانت تشرف على علاقاتها مع أصدقائها لما كبرت، حتى إذا ما تزوجت الأخت الصغيرة ظلت تعتمد على معونة أختها الكبرى، وتطلب منها النصح والإرشاد، لعجزها عن الاستقلال الفكري، والانفصال النفسي عن أختها، وانتهى الأمر بأن انتقلت إلى بلد قريب، حيث اتخذت مسكنها الزوجي، وجعلت الأختان تتحادثان بالتليفون البعيد المدى يوميا، كما كانتا تلتقيان مرة كل أسبوع،

وانتهى الأمر بأن فشلت حياة الأخت الصغيرة الزوجية، لكثرة تدخل أختها الكبيرة، ولعدم نموها النمو الطبيعي السيكولوجي الكامل.

ومن المعلوم أنه كلما زاد العالم مدنية، أصبحت المشاكل التي تواجه الشباب أكثر صعوبة وتعقيدا. ففهي الأدوار الأولى للمجتمعات البشرية، كانت مشاكل الحياة محدودة معلومة، ولم تكن لتحتاج إلا إلى مران قليل، وكان أهم هذه المشاكل الحرب والصيد، وهذه كان يتعلمها الشاب بمجرد بلوغه دور المراهقة. ولكن بتطور المدنية زادت الحاجيات الإنسانية، كما ازدادت الكماليات، واستحوذت على نفس الإنسان، حتى أصبحت من الضروريات. وبهذه الطريقة ازدادت ضروريات الحياة، فازدادت مشقة الحصول عليها. وهكذا أصبحت المشاكل التي تواجه الشباب أكثر عددا، وأصعب حلا، وهذا يقتضي بالطبع تزويدهم بسلاح ماض من التربية القويمة، لا من الوجهة الجسمية فقط، بل من الوجهة النفسية والخلقية أيضا. هذه التربية لا تكون صالحة إذا لم تعد الفتى للدخول في مضمار الحياة، وهذا لا يكون إلا بتعويده الاعتماد على النفس، والاستقلال في الرأي، والجلد في مواجهة الصعاب. فكل أب أو أم يستبقي الفتى في أحضانه أكثر مما يجب، ويمنعه بذلك من استقلال عواطفه وانفعالاته، يجني عليه جناية كبيرة، ويعرقل نموه الطبيعي. ويجعله عاجزا عن الوقوف على قدميه إذا ما انتزع من هذه الأحضان.

غير أن الكثيرين من الآباء والأمهات يقعون في هذا الخطأ، بدافع الحب لذاتهم، وتفضيل مصلحتهم الذاتية على مصلحة ابنهم، غير عالمين أن الحنو والعطف الذي يبذلونه لذلك الفتى المسكين، إن هو إلا مخدرا وقتيا، يجد فيه الفتى لذة وقتية، حتى إذا ما أراد النهوض لم يستطع، وأصبح يطالب

بذلك المخدر، قرارا من مواجهة الحياة. هذا هو مثل ذلك الفتى تماما، فإنه إذا تعود ذلك الحنو والقول المعسول استعذبهما، وظن أن الحياة كلها كذلك، فإذا ما قست عليه الظروف، لم يهب لمواجهتها، والتغلب عليها، بل أندهش، وطفق شاكيا باكيا، يندب حظه، ويطلب الرجوع إلى أحضان أبويه، ليحمياه من قسوة الحياة. هذا الفتى الذي تظهر عليه تلك الأعراض مريض نفسيا، والمسئول عن مرضه أبواه، أو من سهروا على تربيته، وعلى الأخص في دور الطفولة، حيث يكون الطفل سهل الانقياد، سريع التشكل، قليل المعارضة.

قد يتساءل القارئ هنا عن الكيفية التي يمكن بها أن يتحاشى الآباء والمربون تلك العواقب الوخيمة التي ذكرناها، والجواب على ذلك أنه من واجب هؤلاء أن يتزودوا أولا بالحقائق السيكولوجية عن نمو الفتى في هذا الدور، وأن يتيقظوا لملاحظة كل الأعراض التي تبدو على أبنائهم وبناتهم، وأن يحاولوا تقدير المسئولية التي تقع عليهم.

وأولى الحقائق التي يجب عليهم العلم بها، أن نمو الطفل تدريجي، حتى إن العادات التي نتعودها نحوه تثبت، إذا أخذت وقتا كافيا لتأصل جذورها. فإذا لم يكن الأب والأم منتبهين لتلك الحقيقة، جاء وقت، تصبح فيه معاملتهما وآراؤهما، نحو طفلهما، غير صالحة له، اللهم إلا إذا استمرا يغيران ويبدلان في موقفهما وآرائهما، بتغير شخصيته وآرائه هو. فإذا لم يفعلا ذلك، وقفا حجر عثرة في سبيل نموه النفسي، وفي سبيل تحرير نفسه من ربق الرابطة العائلية.

ولكن ليعلم الآباء والأمهات أن المراهقين، مع حاجتهم إلى الحرية والاستقلال الفكري والسيكولوجي، يجب أن لا يمنح لهم ذلك الاستقلال

طفرة، بل يجب أن يكون تدريجيا، متمشيا مع نموهم العقلي والنفسي، وأن يكون ذلك الاستقلال تحت الإشراف في أول الأمر، حتى إذا وجد من الفتى والفتاة القدرة على الاستقلال والاعتماد على النفس حملا المسئولية قدر المستطاع.

وتشمل تلك الحرية أو الاستقلال مسائل كثيرة، منها مثلا حرية التصرف في المصروف الذي يعطى للفتى أو الفتاة، أو الذي يكتسبانه، ويجب أن تكون تلك الحرية تدريجية أيضا، وتزداد كلما وجد الوالدان أن الناشئ لا يسئ التصرف، إذ ما ألقى حبله على غاربه. وقد صادف المؤلف فتاة يهودية في أمريكا، لا يسمح لها أهلها بالتصرف في مليم واحد من مكسبها بكد جبينها، رغم أنها بلغت العشرين من العمر، وكل ما تكتسبه يضعه أبوها في البنك، ويحتفظ بالدفتر معه، ولا يعطيها أكثر من مصروف يدها اليومي الذي لا يكاد يكفي لشراء القليل من الحلوى، كما كانت في طفولتها. ومع أن تلك الفتاة كثيرا ما شكت من ضغط والديها، ومن معاملتهم لها معاملة الطفولة، إلا أن سلوكها كان يدل دلالة واضحة على أنها لم تصل بعد إلى درجة الفطام، أي الاستقلال الفكري والسيكولوجي، إذ كانت قليلة الثقة بنفسها، ضعيفة الإرادة، كثيرة التردد في أخذ أي طريق تسلك في المسائل التي تواجهها.

ومن الأمور التي يحتاج المراهقون للإستقلال فيها أيضا، اختيار المعارف والأصدقاء. وذلك أمر شديد الخطورة بالنسبة للناشئين، فيجب أن يكون الوالدان على ثقة من حسن اختيارهم لأصدقائهم، من غير أن يشرفوا إشرافا تاما، على كل حركاتهم وسكناتهم، فلا فائدة من السماح لهم بالاختلاط بمن لا يوثق بهم، ثم الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، والعكس أولى بأن يتبع.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن القليل من الآباء والمربين يعلمون ذلك، وإذا علموا به فإن القليل منهم من يحاول تطبيقه، إما لجهله بوجوبه، وإما لعدم معرفته الطريق التي يجب أن يسلكها. ويجب أن لا يدهشنا هذا، إذا علمنا أن بعض الآباء يتضجرون من كثرة التغيير والتبديل في ملابس الفتيان في دور المراهقة، نظرا لنموهم الجسماني السريع، حتى ليخيل للناظر أن ذلك الأب لا يعلم أن الفتى لابد أن ينمو، وكأنه إذا علم ذلك، يحاول أن يقف في سبيل ذلك النمو. فكثيرا ما يرى الإنسان أبا يحاول أن يضغط قدم ابنه ليدخلها في الحذاء، بينما تلك القدم قد نمت بسرعة لم تعط الفتى المسكين فرصة لاستهلاك ذلك الحذاء، فإذا كان هذا موقف الوالدين تجاه الفتى في مسأله النمو الجسماني، وهو ظاهر واضح للعيان، فهل نعجب إذن من موقفها حيال النمو النفسي ؟ لقد تعود الآباء أن يلبسوا أبناءهم ثيابا وأحذية بحجم خاص، ويعجبون إذا أتى وقت أصبح ذلك الحجم غير ملائم لهم، وذلك العجب يرجع لأثر العادة، فهم قد تعودوا أن يشتروا تلك الملابس بمقياس خاص وبثمن خاص، وفي كثير من الأحيان من مكان خاص أيضا، فإذا وجدوا أن ذلك المقياس لم يعد صالحا أبدوا اندهاشا، ولو في أول الأمر، وحاولوا أن يضغطوا على أولادهم، محاولين إرغامهم على قبولها، حتى إذا فهموا حقيقة الموقف، حاولوا التغيير في العادة التي ثبتت، وأصبح من الصعب التغيير والتبديل فيها. كذلك في المسائل النفسية، نجد أن تغيير عادات الأبوين وموقفهما تجاه ابنهما الناشئ أو ابنتهما الناشئة، من الصعوبة بمكان، فهما قد تعودا مخاطبتهما بلهجة الازدراء أو التهكم أو السخرية، من جهلهما وضعفهما وقلة إدراكهما لما يحيط بهما، فما أشد اندهاشهما عندما يجدانهما غاضبين من هذه اللهجة، محاولين نفي فكرة الجهل عنهما، وإثبات

علمهما بما يتهمان بأنهما جاهلان به. وقد يحاول البعض عقابهما على ذلك، متهمينهما بسوء الأدب وبعدم الطاعة، غير عالمين أن الوقت قد تبدل، وأن فتى اليوم غير طفل الأمس، وأن هذه الظاهرة نتيجة لنمو طبيعي، يجب أن لا نعرقل سيره أو نخمده.

إن أساس تربية المراهق يوضع عادة أثناء الطفولة، ففي ذلك الدور (دور الطفولة)، تبدأ عادات خاصة في التكون، فإذا تعود الطفل الاعتماد على النفس ومواجهة الصعاب عندئذ، استمرت معه تلك العادات في دور المراهقة، وأمكنه أن يقف على قدميه إذا ما فارق أهله وعشيرته عندما يكبر، أما إذا عامله أبواه في نعومة أظفاره كأنه ملك لهم بحنوهم الشديد عليه، فإنه يجد صعوبة عند فراقهم فيما بعد. ويختلف الأفراد في قدرة تغلبهم على ذلك، نظرا لاختلاف التربية. فالملاحظ أن الكثيرين من الآباء والأمهات يستعملون ألفاظ الطفولة والتدليل مع بنيهم إلى دور متأخر، ولا يكلفونهم بأداء حاجاتهم الشخصية، كغسل الوجه مثلا والنوم منفردين، ويقبلونهم قبل الذهاب إلى المدرسة، إلى غير ذلك من علامات المحبة، التي إذا استمرت طويلا كانت عاقبتها وخيمة على ذلك الرجل الصغير.

قد يسألنا البعض عن كيفية تعويد الطفل الاعتماد على النفس، مع أنه لا يزال في نعومة أظفاره، قليل الخبرة بالحياة. وجوابنا على ذلك أننا لا نريد أن نحرم الطفل من معونة أبويه وحنانهما، وإنما نقصد أن نمنع عنه المعونة إذا كان في استطاعته أن يستغني عنها. فمثلا إذا استطاع أن يمسك الخبز بأصابعه، فلا داعي لأن نلقمه الخبز في فمه، كما تفعل بعض الأمهات. وإذا كان يستطيع أن يمسك كوبة اللبن، فلا داعي لأن نعطيه الثدي الصناعي يمتص منه غذاءه، وإذا كان يستطيع أن يمشي على قدميه فالواجب أن لا

نكلف الخدم بحمله. نعم إنه سيغضب في أول الأمر ويصرخ طالبا أن يعامل كما لو كان صغيرا، ولكن إذا لم يجب إلى طلبه وأرغم على المشي، فإنه لا يطلب أن يحمل ما دامت قدماه سليمتين. وهناك أمثلة عديدة لهذا التدليل، وهي لا تخفى على القارئ إذا ما انتبه لملاحظتها. فهو لابد قد رأى مثلا أما لا تستطيع الخروج من المنزل إلا ومعها طفلها، مع أنه قد يكون في سن السادسة أو السابعة، لأنه إذا رآها خارجة بدونه صرخ طالبا اللحاق بها، وما دامت لا تستطيع الصبر على صراخه، فإنه لن يأتي يوم يسمح لها بالخروج فيه من غيره، إذ أن هذه العادة إذا تكونت صعب التخلص منها.

قد لا يتضح ضرر ذلك أثناء الطفولة، ولكن لتعلم هؤلاء الأمهات أن هؤلاء الأطفال سيواجهون صعابا جمة، إذا ما اجتازوا دور المراهقة. فإن هذه السياسة المتبعة معهم لا تعودهم الاعتماد على النفس، عندما تضطرهم الظروف إلى ذلك. فإن الظروف التي تحتاج للاعتماد على النفس قليلا ما تصادفهم أثناء الطفولة، لأن الأبوين في العادة قريبان منهم، يمدونهم بالمعونة قبل أن يحتاجوا إليها، ولكن هل من الممكن أن يظل الأبوان بجانب الطفل طول حياته، وأن يشتركا معه في تذليل جميع الصعاب التي تصادفه في معترك الحياة ؟ الجواب طبعا بالنفي. فالطفل الذي بلغ السابعة من عمره ولا يستطيع أن يلبس ملابسه، أو يتناول الغذاء بيديه، أو الذي يخاف النوم وحده في الليل، لا شك أن تربيته ناقصة، ونموه السيكولوجي غير تام، ولابد أن هذا النقص ستظهر عواقبه بعد المراهقة.

وإن صعوبة التخلص من عادات الطفولة والتدليل لتكون أعظم مع الأطفال الذين ليس لأبويهم غيرهم، وكذلك مع ضعاف البنية والبنات. وأكبر عامل في ضعف تربية مثل هؤلاء الأطفال الذين ذكرنا أمثلتهم في العادة هو

الأم، فهي في العادة أشد حنوا، وأضعف على احتمال فراق طفلها، حتى بعد أن ينمو ويترك دور الطفولة، وبعد أن يصبح في غير حاجة لمساعدتها. أما الأب فيندر أن يكون سببا في ذلك، نظرا لشئ من الشدة في أخلاق الرجال. ولنحاول الآن أن نعلل ما سبق من الوجهة السيكولوجية.

من المعلوم أن أهم عمل للأم هو الإتيان بالأطفال إلى تلك الحياة، وتربيتهم فيها، وهي تشعر بذلك، سواء كانت تعلمه بشكل صريح، أو تشعر بالدافع فقط في نفسها من غير أن تعلم له سببا. هذه هي وظيفتها الطبيعية في الدنيا، والغاية التي ترمي إليها. ويظهر أن بعض الأمهات يملن للاحتفاظ بوظيفتهن للطبيعية أطول مما يجب، فيصعب عليهن أن يتركن ما يعتبرنه عملهن الطبيعي، وغايتهن في الحياة، فيملن إلى التشبث بأطفالهن، والاحتفاظ بهم وقتا أطول من الواجب، عملا بالدافع الغريزي، وضعفا منهن عن تحمل فراق أبنائهن الذين حملنهم في بطونهن، والذين سهرن الليالي الطوال على تربيتهم، كالفنان الذي يصرف الوقت والجهد في إنتاج تحفة فنية، فيعز عليه بعد ذلك أن يبيعها بثمن بخس. هذا ما يحدث تماما للأم، فتمسك بتلابيب أطفالها، وترفض أن تدعهم يذهبون بعيدا عنها، سواء علمت بالنتائج الوخيمة التي تترتب على ذلك أم لم تعلم. وهذا يكون أشد في حالة أصغر أطفالها. وقد لوحظ أن كثيرا من الأمهات يرفضن زواج ابنتهن الصغرى خوفا من فراقها أو يشترطن بقاءها معهن حتى بعد الزواج.

ونصادف في الحياة اليومية أمثلة كثيرة للضعف السيكولوجي الناجم عن موقف الأم هذا، إذ أنه في الحالات القصوى، يحدث تغييرا في خلق الأبناء، ويجعلهم غير كاملي النمو من الوجهة السيكولوجية، أو كما يسمون في العادة شاذين. ومن أمثلة ذلك فتى في سن التاسعة عشرة، كان شديد الحنين إلى

أهله وعشيرته، حتى أصبح ذلك سببا في تعطيل دراسته وملخص حالته، أنه ذهب إلى المدرسة الإبتدائية في طفولته كالعادة، في بلدته الصغيرة التي نشأ فيها. وكان ناجحا في عمله، حتى أتم دراسته في تلك المدرسة. فلما بلغ سن الرابعة عشرة، أرسله أبوه إلى مدرسة أخرى أرقى من الأولى، في بلدة أخرى، تمهيدا لإرساله بعد ذلك إلى الجامعة. ولكنه لم يستطع أن يمكث بعيدا عن عائلته أكثر من أسبوعين، كان في أثنائهما كثير البكاء، وامتنع عن الطعام، ولم يستطع الانتباه للدرس، وألح بكل قوته في أن يعاد إلى أهله. ولما علمت أمه بذلك صممت على استدعائه، وأرسلته إلى مدرسة في بلدته الأصلية، حتى نال شهادته منها. وكانت الأم في ذلك على خلاف مع الأب، الذي كان يرى أن يرغم الفتى على الاستمرار في المدرسة الأخرى، وأن يلتفت إلى صراخه وعويله. وقد تجددت المشكلة ثانية، عندما أتم الفتى دراسته في بلدته، وأرسل بعيدا عنها إلى الجامعة، وكان عندئذ في سن الثامنة عشرة، فساءت حاله، واعتلت صحته، حتى انخفض وزنه عشرة أرطال مرة واحدة، ولم يجد لذة في الاختلاط بأقرانه، ولم يستطع المذاكرة، وقضى معظم وقته في البكاء والنحيب، وكثيرا ما شكا إلى أهله سوء التغذية بسبب اعتلال عملية الهضم عنده. وأكثر من هذا أنه بدأ يشكو من ضعف في قلبه، وسرعان ما ظهرت عليه أعراض المرض، حتى اضطر الطبيب لإرساله إلى أهله، حيث قابلته أمه بالحنو والرضى المعتاد، وسهرت على راحته وقضاء رغبته، بنفس الاهتمام والمعزة، اللذين كانت تظهرهما له أثناء طفولته، وأذاعت أنه ضعيف البنية، لا يحتمل عناء الدراسة الجامعية. ولكن الطبيب شهد بأن الفتى في صحة جيدة، فأصل والده على إرساله إلى الجامعة ثانية، غير أنه تساهل في هذه المرة فأرسله إلى جامعة قريبة من مسقط رأسه، فعادت الشكوى، فكان يكتب إلى

أهله يشكو من قذارة عنابر النوم، ومن شدة الأساتذة. وأخيرا اعتراه برد شديد، وكان عندئذ في سن العشرين، فرأى أبوه أن المسألة أصبحت لا تطاق، وأن مستقبل الشاب في خطر، فعرضه على الطبيب النفساني، فدل الاختبار السيكولوجي على أن ذلك الفتى ذو ذكاء عال، وأنه يفوق كثيرا من أقرانه في الجامعة من حيث الذكاء، ومعنى ذلك طبعا أن عدم قدرته على الاستمرار في الدراسة الجامعية لم تكن ناجمة عن غباوته. ولما بحث الطبيب معاملة أهل الفتى له، تبين أن أمه كانت شديدة الحنو عليه منذ الرضاعة، وكثيرا ما كانت تضعه في الفراش لأقل برد أو توعك يصيبه، وكثيرا ما كانت تجلس بجانبه تقرأ له المجلات والروايات، بدلا من أن تتركه يقرأ بنفسه. كما كانت شديدة التعلق به في كل لحظة من لحظات حياته.

ومن الغريب أيضا أنها استمرت تغطيه في الفراش حتى سن التاسعة عشرة، وكانت لا تزال تلقبه عندئذ بألفاظ التدليل التي كانت تلقبه بها عندما كان صغيرا، وكانت تطهي له طعاما خاصا يوافق مزاجه. وبالاختصار كان هذا الفتى إلى اللحظة التي اضطر فيها إلى ترك حظيرته التي نشأ فيها، مدللا منعما معتمدا كل الاعتماد على معونة أمه وعطفها الشديد. ومما هو جدير بالذكر، أن ذلك الشاب عندما قابل الطبيب لاختبار حالته، كان يحمل بعض الحلوى في يده كما يفعل الأطفال، وبكل بساطة وسذاجة قدم للطبيب شيئا منها. ولم يكن إلى هذه اللحظة قد اكتسب درهما واحدا، وقال إن أمه كانت دائما تعطيه مصروفه اليومي. أما من الناحية الجنسية، فلم يأبه لأفراد الجنس الآخر، وكان يخاف منهن، ويكره الاجتماعات التي يختلط فيها الجنسان، وكان قليل الثقة بنفسه، معتقدا دائما باعتلال صحته، وعلى الأخص بضعف قلبه.

ولقد نصح الطبيب أن يرسل ذلك الفتى إلى بلد بعيد عن مسقط رأسه، وأن يوظف في عمل يكتسب منه بعض النقود، وفضل أن يكون عملا يدويا، حتى يثبت للفتى خطأ فكرته عن ضعف قلبه، وأن يرسل بعد ذلك إلى جامعة يختلط فيها الجنسان، حيث يتم دراسته. ولقد قابلت الأم هذه الاقتراحات بالسخط الشديد، وعارضت فيها، ولكن الأب أصر على تنفيذها، وكانت النتيجة سارة، إذ تغلب الفتى على ذلك الحنين المستمر إلى أهله وعشيرته، ونجح في النهاية.

وهاك مثلا آخر: فتاة في سن السابعة عشرة، كانت أيضا شديدة الحنين إلى أهلها، وكثيرا ما هددت بالانتحار عندما اضطرت لفراق أهلها. كانت تلك الفتاة جميلة ذكية، غير أنها لم تحتمل فراق أهلها، وكثيرا ما خيل إليها، كما قالت عن نفسها، أن الانتحار خير سبيل للنجاة من حياتها التعسة، ومجمل تاريخ حياتها، أنها كانت هي وأختها الأخرى، تعيشان دائما في أحضان أمهما، ولم تفارقا المنزل ليلة واحدة، حتى حان الوقت في سن السادسة عشرة لأن ترسل إلى مدرسة في بلدة أخرى. وكان أبواها شديدا الرغبة في ذلك، لأن تلك المدرسة أسسها أحد أجداد العائلة. ومع أن هذه الفتاة كانت إلى ذلك الوقت في صحة جيدة دائما، فإنها بدأت سلسلة أمراض لا نهاية لها، وكانت تبكي طول وقتها، وتشكو من ضغط في الصدر، فلما أرسلت إلى منزل أبيها تلاشت أعراض المرض، ولكنها ما كادت تفارقه حتى عاد البكاء وعاد المرض، حتى اعتزم الأطباء إجراء عملية جراحية لها، ولكن سرعان ما اختفت الأعراض وزال المرض، عندما عادت إلى منزل أبيها، ولم تصبح هناك ضرورك لإجراء العملية، فعادت إلى المدرسة ثانية، فعاد البكاء، وأظلمت الدنيا في وجهها، وأصبحت تعسة لا تستطيع المذاكرة، وتكره الاجتماع بالفتيات

الأخريات، وتولدت عندها فكرة عدم الثقة بنفسها، وأنها لا تصلح لشئ في الحياة، وأن الانتحار كان السبيل الطبيعي للخلاص منها. ولقد اشتدت الحالة العصبية لتلك الفتاة، حتى أصبح من الضروري أن تعود إلى بلدتها، وأن تذهب إلى المدرسة الموجودة بها، وأمكن التغلب على تلك الأعراض التي ذكرناها بابتعادها عن حظيرتها العائلية بالتدريج، لا دفعة واحدة، كأن تترك عائلتها لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط، لتقيم في منزل عمتها مثلا، وهي تعلم طبعا أن ابتعادها هذا لن يزيد عن أسبوع أو أسبوعين. ثم بعد ذلك أرسلت لتسكن في منزل آخر مع بعض الأصدقاء غير الأقارب، لمدة أسبوع أو أسبوعين أيضا، ثم بعد ذلك أرسلت لتعيش في فندق، حيث لا تعرف أحدا من الأصدقاء أو الأقارب هناك. وبالتدريج صارت مدة إقامتها بعيدا عن منزل أبويها تطول شيئا فشيئا، حتى أمكنها بعد ذلك أن تصبر على فراق أبويها مدة لا تقل عن ثلاثة أو أربعة أشهر.

ولقد شعر أبواها بالغلطة التي ارتكباها معها في طفولتها، إذ كانت طول عمرها، حتى السادسة عشرة، تنام في نفس الغرفة، وفي نفس الفراش معهما، قد يظهر لأول وهلة أن ذلك لا قيمة له، ولكن يلاحظ أن معنى ذلك تكوين عادة خاصة تتأصل جذورها في نفس الفرد وحياته، حتى إذا ما أراد التخلص منها، وجد نفسه أمام مشكلة عصبية تلعب فيها الانفعالات دورا هاما، لا يكون في العادة لمصلحة الفرد. وهذا ما حدث تماما عندما أرادت تلك الفتاة أن تكسر قيود تلك العادة دفعة واحدة.

والأمثلة على هذا كثيرة، ويكفي تدقيق النظر فيما يحيط بنا كل يوم، لنرى الأمثلة الكثيرة لشبان وشابات مدللين مدلعين، أو بعبارة أخرى لم يصلوا إلى درجة "الفطام" ويجدر بنا أن نذكر هنا أن المسألة قد لا تقتصر في

عواقبها على ما ذكرناه، بل قد تقف تلك الأعراض في سبيل تكوين الفتى أو الفتاة لمستقبلهما، أو قد تقف في سبيلهما إلى الزواج.

إن الأمثلة التي ذكرناها كثيرة الحصول، ويمكن مشاهدتها لمن يدقق الملاحظة، غير أن هناك أمثلة أخرى شاذة أشد مما ذكرناه، ولو أنها قليلة، فمثلا شاب بلغ من تدليله أن كان يعامل معاملة الفتاة حتى سن العشرين، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أعطى اسم فتاة أيضا، وكان ينادي به حتى ذلك السن. وسبب ذلك أنه أمه قبل ولادته كانت تتوق إلى طفلة، فلما جاء ولدا أصرت على معاملته معاملة البنات، وأطلقت عليه اسم بنت فعلا.

حقيقة إن تلك الأمثلة الشاذة قليلة، إلا أننا لا نستطيع إنكار وجودها، ولا نستطيع أيضا إنكار أنها تؤيد النظرية التي ذكرناها، عن تشبث الأم وتعلقها بأبنائها وبناتها، الذين تعتبر الاحتفاظ بهم والسهر عليهم، عملها الطبيعي في الحياة.

ولقد حاول بعض البحاثة معرفة ما إذا كان تعلق الفتى بأمه وتعلقها به له أساس جنسي. ويقول بعض علماء النفس إن الفتى الذي يحن إلى الحظيرة العائلية، إنما هو في حب معها، وإن كانوا يقولون إن هذا الحب بطريقة لا شعورية. كما أن الفتاة التي تحن للعودة إلى منزلها، تحب أباها بنفس المعنى كما لو كانت في حب مع أي فتى آخر. غير أن الكثيرين من علماء النفس لا يستطيعون قبول هذا الرأي على علاته، ويميلون إلى القول بأن حب الفتى غير المفطوم، أو الفتاة غير المفطومة، لأبويهما، ليس حبا جنسيا، بل هو من قبيل حب الحيوان لمن يطعمه ويسقيه، وهو نتيجة استمرار عادات الطفولة التي حرمت الفرد من الاعتماد على نفسه. ويؤيد ذلك أن هذا الحب والحنين لا يقتصر على الأبوين فقط، بل قد يمتد إلى الماديات، فيحن الفتى (أو الفتاة)

مثلا إلى فراشه الذي كان ينام فيه، وكرسيه الذي كان يجلس عليه، ومسكنه الذي كان يعيش فيه. كما أن الذكرى قد يهيجها رؤية شئ يشبه تلك الحاجيات المادية.

ويظهر أن أهم تلك الماديات التي يحن إليها الفرد في العادة، هي الأشياء التي تشبع رغباته، وتمهد له سبيل التنعم والراحة، كالطعام والملبس والمسكن، من غير أن تكون لها علاقة بالمسائل الجنسية. وما ينطبق على تلك الأشياء المادية، ينطبق أيضا على الأبوين، لأنهما يهيئان له سبيل الراحة ويساعدانه على قضاء رغباته، وعلى الأخص الأم، فهي منذ الولادة مصدر الغذاء والدفء والراحة، فصدرها الحنون يهيئ للرضيع كل ما يحتاجه في تلك الحياة، وبما كان هذا هو السبب في أن العلاقة تكون أكثر توطدا بين الأم وأبنائها. ولا تقتصر العلاقة مع الأم على الأبناء الذكور فقط، بل قد تقع البنات في حب أمهن أيضا.

وتذكر هنا أن معظم حالات الشذوذ التي تصادف الأطباء، والناجمة عن عدم الفطام، تكون ناشئة عن العلاقة الوطيدة بين الأم والبنت، حيث تظل هذه العلاقة كما كانت وقت الطفولة، وتستمر إلى وقت متأخر في حياة البنت بعد أن تكبر.

وخلاصة القول أنه ليس من داع لأن نفرض وجود أي حب جنسي بين الابن أو البنت ووالديهما، مادمنا نستطيع أن نفسر الحقائق التي أمامنا على أنها محبة بين الكائن الحي ومن يطعمه ويسقيه. فكثيرا ما نلاحظ أن الحيوانات المنزلية تعود دائما إلى صاحبها مهما بعدت عنه، نظرا لتعودها عليه، وامتزاج تلك العادات بالانفعالات والعواطف. ولا يمكن القول أبدا في تلك الحالة، أن القط أو الكلب يحب صاحبه حبا جنسيا.

ويُصادف الإنسان في الحياة كثيرين ممن لم يصلوا إلى مرتبة الفطام، وهؤلاء تظهر عليهم ظواهر خاصة، بها يعرف أنهم لم تتحقق لديهم الفرصة لأن يكونوا أشخاصا عاديين Normal، أو بعبارة أخرى مفطومين. فمثلا يلاحظ على هؤلاء أنهم إذا حصلوا على وظيفة ما، ينتظرون عطفا خاصا من رؤسائهم، ويصبحون مصدرا للشغب في الدوائر التي يحلون فيها، وينتظرون من الرئيس أن يعاملهم بالتسامح والكرم والعطف الذي كان يعاملهم به آباؤهم، فإذا لم يحصلوا على هذا العطف، تثور نفوسهم، ويكثرون من اغتياب الرئيس، ويعتبرون أنفسهم شهداء وضحية حظهم المنكود.

ولا شك أن هذا السلوك يؤدي إلى عدم نجاحهم في عملهم، ويتركهم عاطلين، وسبب ذلك كله هو عدم فطامهم. فهم يعتبرون كل رئيس لهم، أو كل ذي نفوذ عليهم ممثلا للأب أو الأم، وينتظرون منه أن يعاملهم كما كان يعاملهم هؤلاء.

وليس الأمر قاصرا على الفشل في الأعمال التي يكتسب منها الإنسان رزقه، بل إن النتائج الوخيمة قد تعدو ذلك إلى الزواج أيضا. فالشاب أو (الشابة) الذي لم يفطم، ولم يتخلص من العلاقة السيكولوجية الوطيدة، التي كانت تربطه وتقيده وتجذبه نحو أبويه، ينتظر من زوجته أن تقوم مقام الأب أو الأم، فإذا كان الأبوان رحيمين به، توقع من الزوجة أن تعامله بالمثل، فيطلب لين المعاملة والحب والعطف، مهما كانت الظروف التي يوجد فيها الزوجان.

وعلى العكس إذا كان الأبوان في سابق العهد شديدين قويا الشكيمة، فإنه ينتظر بعد الزواج من زوجته أن تقوم بتحمل كل مسئولية، وأن تصرف الأمور، وتسيطر على كل شئ من غير مشورة. فإذا لم يتحقق ذلك، دب سوء التفاهم بينهما، وأصبحت حياتهما غير مرضية.

ومن علامات عدم الفطام أيضا بعد الزواج، أن يرفض المرء ترك بيت أبويه، وبذا يجعل حياة شريكته في الحياة ضيقة محدودة، لعدم تمتعها بكامل حريتها في ذلك المكان.

وقد يقبل المرء أن يترك بيت أبويه ولكن يرفض ترك القرية أو المدينة التي هما بها، أو قد يقبل الابتعاد عنهما، ولكن يرفض أن يبتعد عنهما طويلا. وكلنا نعرف حالات من هذا القبيل، حيث يشترط الأبوان أن يعيش ابنهما أو ابنتهما بعد الزواج معهما، أو قد يرفض الفتى نفسه، أو الفتاة نفسها، أن يترك منزل أبيه.

وهذه العقبات التي تقوم في سبيل صفاء الحياة الزوجية، كثيرا ما تمنع الزوج من النجاح في أعماله الاقتصادية أو الاجتماعية، ما دامت زوجته تقيده بالعيش في بلد خاص، أو في منزل خاص، قد لا يتفق مع المصالح المادية التي تهيئ أسباب الرفاهية للزوج الناشئ.

ومن علامات هذه الظاهرة السيكولوجية أيضا، وقوع الفتى أو الفتاة في حب من هو أكبر منهما سنا بكثير، كان يختار الفتى زوجة له يربو سنها على سنه بكثير، أو أن تختار الفتاة زوجا لها يكون الفرق بينه وبينها في السن شاسعا.

وتفسير هذه الحالات أن كلا منهما في اختياره لشريكه في الحياة، إنما يختار أبا له يسهر على راحته، ويهيمن عليه، لا شريكا يعامله مُعاملة الند للند. وغني عن البيان أن مثل هؤلاء الأفراد لا يكونون سعداء في زواجهم.

لا ننكر أن الطبيعة الإنسانية بها من الغرائز والميول ما يجعلها تحن وتستطيب العطف والسيطرة من شخص آخر، في أوقات خاصة، كأوقات

المحن والخطوب، أو أوقات الضعف، حيث لا يمكن للفرد أن يجاهد ويقاوم وحده، على قول المثل السائر (يد وحدها لا تصفق)، فإن هذه ظاهرة طبيعية معروفة في جميع أفراد النوع الإنساني، المفطومين منهم وغير المفطومين.

وليس المقصود بالفطام انقطاع الصلة بين الأبناء والآباء انقطاعا تاما، بل الفرق بين الشخص المفطوم وغير المفطوم أن الأول ينتظر المساعدة والعطف في أوقات محدودة، ومن أشخاص معدودين، بينما الثاني ينتظر العطف في كل زمان ومكان، ومن أي شخص بيده السلطة، يكون مركزه مشابها لمركز الأب، وينتظر أيضا من غير ما سبب ظاهر، أن يظهر ذلك الشخص المحبة والسهر على راحته من تلقاء نفسه، فإذا لم يفعل كان موقفه نحوه كموقف الطفل نحو أبيه إذا رفض أن يجيب شيئا من رغباته.

وهنا يصح لنا أن نتساءل عن السبب، الذي نرى من أجله وجوب فطام الشاب أو الشابة، بدلا من اتباع أسهل الطرق، وهي تركهما يفعلان ما يشاءان فيعتمدان على أبويهما طول حياتهما، من غير إجبار على الاعتماد على النفس، ومحاولة فصم عري تلك العلاقة الوطيدة التي تربطهما بالأبوين.

والجواب على ذلك ليس بالأمر الصعب، فإن الأبوين لن يعيشا لابنهما أو ابنتهما أبد الدهر، فقد دلت الإحصاءات الحديثة، على أن الغالبية من الأفراد، الذين بلغت سنهم الخامسة والثلاثين، يكون أبواهم قد عاجلتهم الوفاة قبل ذلك السن، فإذا لم يكن الفرد قد تعود الاعتماد على النفس، وتعود أن يشق طريقه في الحياة من غير معونة أبويه، وجد نفسه في أسطح أيام حياته، وحيدا غير مزود بوسائل الكفاح، كساع إلى الهيجا بغير سلاح.

ويُمكننا أن نتصور سوء حال مثل هذا الشاب أو الشابة، إذا تخيلنا أحدهما وقد وجد نفسه وحيدا في الحياة، في سن الخامسة والثلاثين، أي في السن الذي تشتد فيه المسئولية، وينتظر منه المجتمع أن يصبح فردا عاملا منتجا. وهناك سبب آخر، وهو أن تقييد الفتى بقيود متينة تربطه إلى أبويه، يقف في سبيل تقدمه.

فمن المعلوم أن العالم في تطور، وأن المنتظر أن يفوق كل جيل الجيل السابق، فإذا تقيد الجيل الحاضر، وارتبط ذلك الارتباط الوثيق بالجيل السابق، وخضع لسيطرته نفوذه الروحي والعقلي والخلقي، أصبحت أفكاره مشابهة لأفكاره، وعجز عن التخلص من القديم، والتفكير في الجديد، فيكون هذا سببا في وقوف التقدم الإنساني. وكلنا نعرف كيف يعارض الآباء والأمهات الأزياء الحديثة مثلا، وكيف تؤدي رغبة هؤلاء في الاحتفاظ بالقديم إلى جدل كثير مع أبنائهم وبناتهم، الذين يودون الحصول على ملابس تتبع تطور الزي الحديث، وكلنا نعرف كذلك خوف الآباء على أبنائهم من المخاطرات، وعلى الأخص المخاطرات التي تتعلق بالمخترعات الحديثة، كركوب السيارات، والطيارات، أو ركوب البحار. وكم من أم أو أب وقفا في سبيل تقدم ابنهما، لخوفهما من ابتعاده عنهما، وركوب متن البحار خوفا عليه من الغرق وغيره من المخاطر.

ولا شك أن الشباب بطبيعته يعارض بكل قوته التقيد بالقديم، ويحاول العدو نحو الجديد، واختيار الأبحاث الحديثة، غير مكترث بما يحف بها من الأخطار، ذلك دين الشباب ولن تجد لسنة الله تبديلا. وإن الشاب الذي يحاول أن يعيش عيشة أبويه عندما كانا في سن الشباب، لابد وأن يقضي عليه بالفشل، لأن الزمن يتغير، والجنس الإنساني يتغير، والإنسان الذي كان يصلح

للحياة منذ قرن مضى، لا يصلح للحياة في الأجيال الحديثة، لأنه لم يعد لها. وكبر سنه لا يكفل له المرونة الكافية للتشكل حسب الظروف.

يتضح لنا إذن أن كل العوامل، البيولوجية والاجتماعية والتربيبية، قد أجمعت على جعل النجاح نصيب الشاب الذي تم فطامه، وجعل الفشل من نصيب الذي لم يتم فطامه. ويمكن تلخيص ذلك كله بقولنا إن من أهم الأسباب التي تجعلنا نلح في سبيل فطام الشاب، هو جعله قادرا على مجابهة الصعاب في مجتمع قد لا يجد فيه العطف والحنو، الذي ينتظره من جميع أفراده.

غير أننا لدينا من الدوافع الإنسانية، والميول الطبيعية، ما يكفل لنا حدوث الفطام، ويساعدنا في المهمة التي تقع على عاتقنا، أي في تربية المراهق وإعداده إعدادا صالحا للحياة فيما بعد. فالطبيعة الإنسانية كفيلة بإيجاد الرغبة في نفس الفتى للتخلص من النفوذ الأبوي. وهذا الميل يقوى ويشتد أثناء المراهقة كما قدمنا قبل الآن. وإن مهمتنا كمربين، تتلخص في الحقيقة في أن لا نعترض ظهور تلك الميول والرغبات، بمحاولتنا الضغط على الفرد الناشئ، واقتناصه كلما هم بالفرار من الحظيرة العائلية.

ولا نقصد هنا أن نترك الحرية التامة للفتى أو الفتاة، للتخلص من السلطة الأبوية بمجرد وصوله إلى دور المراهقة، لأنه عندئذ لم تتوفر لديه الخبرة الكافية لأن يشق طريقه منفردا في الحياة، كما أن قواه العقلية والبدنية لم تصل عندئذ إلى درجة النمو الكامل، الذي يضمن تصريف أموره على وجه الكمال. وإنما نقصد أن ذلك الفتى قد أخذ عندئذ يدب في نفسه شعور بوجوده كفرد له شخصية، وذات Self مستقلة عن شخصية أبويه وذاتهما.

ذلك الشعور لم يكن موجودا في عهد الطفولة، حيث كان اهتمام الطفل كله موجها نحو تحقيق الرغبات المادية، من مطعم ومشرب وملبس. أما الآن فإن رغبات الفتى تعدو ذلك بكثير. وقد يفضل أن يتنازل عن الشئ الكثير من كل هذا، في سبيل الاحتفاظ بكرامته أو بمركزه أو بحقه أو بحريته، وبعارة أخرى في سبيل الاحتفاظ بشخصيته وذاته. هذه الميول، وهذه الرغبة، تظهر من تلقاء نفسها في الفتيان والفتيات عند دور المراهقة وما بعده بشكل واضح، وإن كانت أخف حدة عند الفتيات منها عند الفتيان، فإذا كانت ناقصة عند فرد ما، أو ضغطنا عليه ومنعناها من الظهور، فإن الفرد في الحالتين يكون شاذا غير عادي، لأن نموه السيكولوجي لم يكتمل.

ويقترون ظهور تلك الرغبات الذاتية في العادة بنمو العقلية، وبنمو الدوافع الجنسية، فهذه لها دخل كبير في اختيار الشخص لمهنته وزوجه ودينه، وفي فكرته عن نفسه وذاته. وعلى ذلك فإن الميول التي ذكرناها لا تقوى إلا إذا أصبح الإنسان تام النمو من الوجهتين الجنسية والعقلية، فنشاهد الفتى عندئذ تتجاذبه الدوافع والأهوء، بعضها يجذبه في صف أبويه، وتعضدها العادات التي تكونت نحو الوالدين، والبعض الآخر يجذبه نحو الحرية، والتخلص من القيود العقلية، أو السيكولوجية، التي كانت ترتبط بهما.

ونكرر هنا أن التخلص من تلك القيود ليس معناه الخروج عن طاعتهما ومناصبتهما العداء، أو ترك المكان الذي يعيشان فيه، بل المقصود هو التحرر من سيطرتهما الفكرية والروحية، وبعبارة أخرى أن القيود التي نقصدها قيود سيكولوجية لاقيود عادية.

فليس هناك من مانع إذا كانت الحظيرة الأبوية صالحة لمعيشة الفرد، من أن يستمر فيها، وإذا لم تكن صالحة يمكنه أن يعمل على رفعها أو يحاول إنشاء غيرها أحسن منها، من غير أن يكون مقيدا باتباع الآراء التي تملى عليه، أو أن يكون عاجزا عن ترك الحظيرة إذا ما داعت الضرورة إلى ذلك.

وخير ضمان للآباء الذين يخافون على أبنائهم، من أن يدفع بهم إلى الحياة من غير نظام، هو أن يعودوهم توزيع جهودهم على أمور متنوعة مختلفة، بحيث لا تكون نظرتهم في الحياة محدودة، وعقليتهم ضيقة، وأن يدفعوا بهم إلى الحياة، رويدا رويدا لا دفعة واحدة، فيصطدموا بها. ولا شك أن ذلك يستدعي حكمة وعلما من الوالدين، وعلى الأخص في الأيام الحديثة التي أصبحت مشاكل الحياة فيها متعددة معقدة.

الفصل السابع

الغريزة الجنسية في دور المراهقة

مُنذ أمد بعيد في تاريخ الإنسانية إلى وقتنا هذا، والأمور الجنسية معتبرة من المسائل الخطرة، التي تحاط بالكتمان، وتحفها الأسرار. وكانت ولا تزال معدودة عند الكثيرين من الأمور الوضيعة المنحطة، التي لا يحق للشخص المحترم المثقف أن يخوض فيها أثناء الحديث. فلا عجب إذن إن لم يجرؤ الآباء والمربون على مخاطبة المراهقين فيها، وإنارة أذهانهم عنها.

ولكن ذلك الموقف بدأ يتغير في الأزمنة الحديثة، وبدأ الناس يتبينون بعد خبرة الأجيال الإنسانية العديدة، أن ذلك الجو المملوء بالغموض والإبهام، الذي يحيط بالمراهق فيما يخص الغريزة الجنسية، لم ينجح في تأدية الغرض المقصود منه، ألا وهو الاحتفاظ بأخلاق الشباب طاهرة نقية، أو كما يسميها العرف، بريئة من الرجس والدنس، بل تبين لهم فوق ذلك، أن ذلك الغموض كان له أسوأ الآثار من الوجهة الاجتماعية أولًا، ثم من الوجهتين الصحية والنفسية ثانيًا:

ولقد بدأ المربون كذلك يغيرون وجهة نظرهم في هذا الموضوع، وبدأوا يؤمنون بأن تجاهل الدافع الجنسي، ومحاولة تناسيه، يؤدي إلى نفس الأضرار، التي يؤدي إليها إهمال أي دافع غريزي آخر، ومحاولة إرغامه على الاختفاء بعيدًا عن الأنظار.

وينصح المربون بأن أحسن سياسة تتبع نحو المسائل الجنسية هي سياسة الصراحة وعدم اقترانها بالخوف أو الانفعالات القوية بل اعتبارها شيئا عاديا وحقيقة علمية كغيرها من الحقائق.

وينعي المربون موقف الآباء والمعلمين الذين تثور ثائرتهم إذا ما أثير موضوع جنسي، أو الذين يعلوهم الحياء أو الاضطراب إذا ما أثار الأطفال حديثا جنسيا، لأن مثل ذلك الموقف يوحي إلى الأطفال بجو غموض وإبهام وخلسة وتستر.

ويزيدون على ذلك أن الاكتفاء بكلمة أو كلمتين لا يجدي ولا ينفع؛ لأن الناشئين لن يرتدعوا عن مُتابعة الموضوع إما سرًا وإما جهرًا. وليس المقصود أن يفتح الآباء والمعلمون صدورهم لذلك الموضوع كلما شاء الناشئون، والأفضل الاعتدال واعتبار الموضوع كغيره من المواضيع الصحية، وأن يوجه نظر الناشئين إلى أن الغرض من مُناقشة ذلك ليس مجرد اللذة والاستمتاع، وإنما تزويدهم بالمعلومات التي تمنعهم من الوقوع في الضرر أولا، والاستعداد للحياة الزوجية المستقبلة ثانيا، فكما أن الأم تعلم فتاتها كيفية الطهي والحياكة قبيل زواجها، فعليها كذلك أن تعلمها كيفية العناية بنفسها من الوجهة الجنسية وكيفية العناية بأطفالها في المستقبل وهكذا.

وقد يظن البعض أن إثارة الكلام مع الناشئين في المواضيع الجنسية تفتح أعينهم لها وتركز انتباههم عليها، فيندفعون إلى الانغماس فيها، ورأينا أن الناشئين لاشك منتبهون إليها وعيونهم مفتوحة لها بقوة الدافع الجنسي الطبيعة، حتى ولو لم توجد أفراد من الجنس المقابل منهم، ولكن إثارة الموضوع مع الآباء والمعلمين تعطي هؤلاء فرصة تزويدهم بالنصائح والإرشادات التي تضمن عدم انغماس الناشئين فيها عن جهل.

كما أن الصراحة تعطي الآباء والمعلمين فرصة لمعرفة من يكون سهل الغواية فيحاط عندئذ بالعناية.

ولسنا متأكدين تماما من الكيفية التي نشأ بها، في الأزمان الغابرة، ذلك الجو الغامض غير الطبيعي، الذي يحيط بالمراهق منذ بدء شعوره بالمسائل الجنسية. ويقول بعض علماء الاجتماع إنه نشأ من الديانات، ولكن يعزوه البعض الآخر إلى أسباب أخرى مختلفة، لم يتفقوا عليها بعد. ولكننا نعزوه لأسباب أصلها اقتصادي.

إذ كثيرا ما تكون الظروف الاقتصادية سببا في اعتبار سلوك الشخص في هذه الناحية تارة مرضيا، وتارة رذيلة منكرة، فيوصم بأحط الوصمات، وينزل بفاعله أشد العقاب، بينما قد يعد نفس السلوك، في ظروف أخرى، عملا ساميا، تدق له الطبول، وتنثر له الورود والرياحين، وتزف من أجله البشري والتهاني.

دعنا الآن نفسر ذلك في شئ من الإطالة: إذا فكرنا في المعنى الذي يعطيه المجتمع لكلمتي "الخير" و"الشر"، وبحثنا في أصل منشأ ذلك المعنى، تبين لنا أنه نشأ عن حاجات المجتمع ولفائدة المجتمع. فلو لم يكن في المجتمع سوى فرد واحد، لما كان هناك مجال لتسمية عمله خيرا أو شرا، (إلا فيما يخصه هو نفسه)، إذ ليس هناك من حاجة لإرغامه على تكييف سلوكه بشكل خاص (إلا فيما يختص بالأعمال التي تلحق به الضرر هو ذاته).

أما والمجتمع يتألف من أفراد كثيرين غير ذلك الفرد، فلابد من وجود مثل تلك الموازين أو المعايير الأخلاقية، لتحديد سلوك كل فرد تجاه من يعيشون معه، أو لفائدة ذلك الفرد الشخصية أولًا، ولكي يصبح فردًا نافعًا في ذلك المجتمع ثانيًا.

وأول شعور الفرد بتلك المعايير الخلقية، يكون في البيئة العائلية، فالأبوان يحددان سلوك أفراد العائلة، ويرغمان الصغار في أول نشاتهم على المحافظة عليها، فيمنعانهم من اعتداء بعضهم على بعض، وعلى احترام الكبار، والمحافظة على ملابسهم من الأقذار، والنوم في مواعيد معينة وهكذا. فينشأ الأطفال تدريجيا على اتباع تلك القواعد والتعليمات، وينشأ في نفوسهم أنها هي الخير، ومخالفتها هي الشر، فكأن الأبوين في البيئة العائلية هما اللذان يحددان المقياس الذي تقاس به الأعمال.

أما في المجتمع الكبير، عدا البيئة العائلية التي يتحكم فيها الأب والأم، فينشأ المقياس تبعا للعرف والتقاليد والشرائع السماوية، وهكذا تصبح هذه كلها قوانين، عرفية كانت أو حكومية.

ولنطبق ما ذكرناه الآن على الأمور الجنسية التي كنا بصددها، ولنبحث عن كيفية تحديد المقياس الذي تقاس به وتوزن، حتى حكم عليها بأنها منكر يجب التشديد في أمره، وتحاشي التحدث عنه في كل مجتمع يحترم نفسه.

في الأزمنة القديمة، في بدء المدنية، وكما هو الحال في المجتمعات غير المتمدينة، التي تعيش على الفطرة الأولى في وقتنا هذا. يتزوج الفتى والفتاة بمجرد وصولهما إلى دور المراهقة، وبعبارة أخرى عند بدء شعورهما بالدافع الجنسي.

ولم يكن هناك دون ذلك من عقبات؛ لأن كلا منهما كان يستطيع الحصول على القوت في هذه السن بنفسه، فالفتى كان يصيد الحيوان والسمك والفتاة تجمع الخضروات والفواكه من الأشجار، وتدبغ جلود الحيوانات المصيدة، وتعدها للاستعمال، كملبس أو كمسكن، كما أنها كانت تستطيع حمل ابنها على ظهرها عندما تصبح أما.

وبمرور الزمن وتقدم الإنسان في المدنية، زادت المشكلات التي تواجه الفرد المتزوج، وأصبحت حياته أكثر تعقيدا مما كانت في الأزمنة السالفة. فالحصول على القوت لم يعد بتلك السهولة السابقة، والفتى والفتاة المراهقان لا يمكنهما أن يكسبا أود عائلتهما الآن مهما كانت صغيرة.

نرى إذن أن الظروف الاقتصادية المحيطة بالفرد المراهق والبالغ قد تطورت بتطور المدنية، فبعد أن كان قادرا على الاغتراف من مناهلها، واستدرار الرزق منها، أصبح الآن محتاجا لمران طويل وخبرة كبيرة، قبل أن يستطيع دخول ميدانها واستدرار خيراتها.

أما الغريزة الجنسية ذاتها، فلم تتغير بتغير تلك الظروف الاقتصادية، ولم يتغير كذلك موعد ظهورها ولا قوتها. فالطبيعة الإنسانية باقية، في جوهرها، على ما كانت عليه في الأزمنة السالفة، ولم تتغير بظهور المخترعات والمكتشفات الحديثة، بل كان ما حدث هو تعديل في مظاهر ذلك الجوهر.

نجد هنا إذن تضاربا بين الطبيعة البشرية أو الغرائز الإنسانية، وبين الظروف الاقتصادية التي تحيط بالمراهقين، ففي السابق كانت حاجاتهم قليلة، والحصول على القوت سهلا، وعلى ذلك لم يكن هناك مانع من زواجهم، لقلة المسئولية الملقاة على عاتقهم، كما هو الحال في المجتمعات البشرية غير المتحضرة، الموجودة في أواسط إفريقية الآن، حيث يتزوج الشخص ما شاء من الزوجات، ويبيعهن بيع السلع. أما في المجتمعات المتمدينة، فقد زادت المسئولية، وثقل العبء الملقى على عاتق كل من الزوج والزوجة، حتى أصبح من الضروري أن ينتظرا إلى سن متأخرة قبل الزواج ن ليكونا قد حصلا من المال والخبرة والقوة ما يكفي لمواجهة تلك المسئولية، ولتحمل ذلك العبء الاقتصادي الثقيل.

وهكذا أصح المراهق غير مسموح له بالزواج، لعدم كفايته من الوجهة الاقتصادية، وبالتالي من الوجهة الاجتماعية. أما الدافع الجنسي الذي لم يزل على حالته الأولى، التي كانت في الأزمنة السالفة، كلما حاول الظهور وطلب تحقيق غايته، نظر إليه المجتمع شذرا، وقضى عليه بقوة الإرادة، ووصمه بأشنع الوصمات، حتى لا تنجم عنه الأضرار التي تنشأ من الاتصال الجنسي غير الزوجي، سواء أكانت اجتماعية أم خلقية أم طبية.

إذن ذلك العامل الاقتصادي هو بلا شك أهم الاعتبارات، التي جعلت المسائل الجنسية من الأمور التي لا يتحدث الناس عنها صراحة، بل يحيطونها بجو مبهم، يخيل للمراهق أنه مملوء بالأسرار والمخاوف. ولكن ما دامت المدنية الحديثة لم توجد حلا لمشكلتها، في ذلك الوقت الذي لا يسمح فيه للمراهق بالاتصال الجنسي، فإن الدافع الجنسي يظل حائرا ثائرا، يترقب الفرص ويتحين غفلة الرقباء، ومن هنا زاد التشديد عليه، وأصبح في عداد الكبائر التي يعاقب عليها القانون العرفي والسماوي.

ولا شك أن هذا الجو يبدأ منذ الطفولة، فيتعلم الناشئ أن يخشى الكلام عنه، وأن لا يشير إليه إلا سرا، فإذا زلفت منه كلمة، قامت قيامة الحاضرين حوله، وظهر على وجوههم الرعب، أو الامتعاض على الأقل، فينشأ في نفسه شعور غامض غريب عن هذا الأمر، حتى إذا كبر اتخذ نفس الموقف حيال هذا الدافع، الذي يعد من أهم الدوافع التي وضعها الخالق في الإنسان، حتى تستمر الخليقة على سطح الأرض.

ومن المتناقضات، أن الفرد عندما يتزوج، عليه أن يغير ذلك الموقف فجأة، من غموض وإبهام، إلى اعتراف وصراحة، ومن كراهية وازدراء، إلى حب واحترام، فكأنه في يوم وليلة عليه أن يغير ذلك الشعور الذي غرس فيه

منذ نعومة أظفاره، وأن يعتبر ذلك الدافع الذي كان في يوم من الأيام مقترنا في ذهنه بالدناءة والحطة والإجرام، شعورا طيبا، في تنفيذه منتهى التقوى والصلاح، وفي الخضوع له سلامة العالم ومنعه من الزوال.

واضح طبعا ما في تلك السياسة من تناقض، فضلا عن أنها سياسة خاطئة في تربية النشء، فضلا عما تنتجه من أضرار تلحق الجسم والعقل والنفس.

طبيعة الشعور الجنسي

رغم العقبات التي توضع في سبيل وقوع الحب في دور المراهقة بين الجنسين، ورغم وصمه بأبشع الأسماء، وتصويره لهما بأبشع الصور، فإن مسألة الحب في هذا الدور من أهم المسائل التي يجب أن ننتبه إليها معاشر المربين، كي نعد لها عدتها، ونعترف بها، بدلًا من أن نتجاهلها، وننتظر حتى تظهر نتائج ذلك الإهمال الوخيمة، فنحاول علاجها بالعقاب حين لا ينفع ذلك.

وأول خطوة في سبيل اتخاذ العدة، هي محاولة فهم طبيعة ذلك الدافع الجنسي، حتى يكون موقفنا تجاهه مبنيا على العلم والتبصر، فلا نؤدي بحياة الفتى أو الفتاة نحو الضرر، سواء أكان ذلك من الوجهة الاجتماعية أو الصحية أم العقلية. فإنه ولاشك من أهم الدوافع التي تؤثر في حياة كل منهما وتملك مشاعره، وتشغل باله وتفكيره ردحا طويلا من يومه.

دعنا الآن إذن نحلل ذلك الدافع، ونحاول فهم طبيعته، وكيفية ظهوره، والأضرار الناجمة عن اعتراض سبيله، ما دامت سعادة الفتى والفتاة متوقفة على كيفية استغلاله ومواجهته.

في كل كائن حي، كما في الإنسان، قوى أو دوافع وميول تدفعه وتؤدي به إلى بذل الجهد في سبيل تخليد جنسه. فإذا وجد نوع من الكائنات لم يتوفر فيه ذلك الميل، فلابد له أن ينقرض حتما يوما ما. وعلى ذلك فوجود أي نوع من الكائنات الحية في وقت ما، معناه أن أفراد هذا النوع تشعر بذلك الميل.

ولما بدأ النوع الإنساني، انقسمت أفراده إلى قمسين ذكور وإناث. ثم إن الأفراد التي عجزت من كلا القسمين عن اجتذاب أفراد الجنس الآخر، انتهت حياتها بانتهائها، إذ لم تترك نسلا يخلد حياتها، فلم يبق إذن إلا الأفراد القادرة، التي لديها الكفاءة؛ لأن تجذب أفراد القسم الآخر، وبعبارة أخرى الأفراد التي يتوفر لديها الدافع الجنسي.

ولقد حاول علماء النفس تحليل هذا الدافع الهام في حياة الإنسان، فوجدوا أنه من الصعب التمييز بين ما هو طبيعي فيه، وما هو مكتسب من العرف والاجتماع والعادة. غير أنه رغم تلك الصعوبة، من الممكن تمييز عنصر لم يكتسب، ظاهر أنه من الأمور الطبيعية الأصلية في الإنسان، ألا وهو (الانتباه) الخاص، الذي وجهه الفرد أيا كان لأفراد الجنس المقابل أي الذكور نحو الإناث والإناث نحو الذكور، إذا لم يكن هؤلاء الأفراد الذين من الجنس المقابل أكبر أو أصغر بكثير من الفرد المنتبه، وإذا لم يكن بهم أيضا ما يدعو للاشمئزاز والنفور.

هذا (الانتباه) يختلف قوة ووضوحا حسب السن، وربما كان على أشده في دور المراهقة، حين يكون الميل الجنسي ذا معنى خاص. فإذا تم الاجتذاب أو بعبارة أخرى التحاب البعيد من الطرفين، تلته تصرفات أخرى، كالاقتراب ثم التراجع، ثم التمليس والالتصاق، الذي يؤدي بعد محاولات

شتى ملأى بالأخطاء، إلى العملية الجنسية الخاصة، التي تنتهي بتخليد النسل.

تلك التصرفات قبل أن تقترن بالقوانين الاجتماعية الوضعية والعادات وغيرها، لم تكن خيرا أو شرا، ولم يكن هناك مجال لإطلاق تلك الأسماء التي نصفها بها الآن، كالطهر والعفاف والاستقامة والفروسية إلى غير ذلك.

ويرى بعض العماء أن الإنسان في مبدأ الأمر، لم تكن لديه فكرة عن النتيجة التي تؤدي إليها تلك العملية الجنسية، أي حدوث النسل، فإتيانه بها لم يكن عن رغبة في إحداث النتيجة، بل عن رغبة في العمل ذاته، الذي يؤدي بالفرد إلى الارتياح من ذلك القلق وعدم الاستقرار، الذي يتملكه قبل حدوثها، ورغبة في اللذة التي تصحبها.

ومع أن ذلك الدافع من أقوى الدوافع التي ركبت في الإنسان، فإن كبته وإضعافه وإسكانه، أسهل من كبت كثير من القوى الأخرى، كما أنه يسهل إذكاؤه بتغيير بسيط في ذات المؤثر الذي يكون قد فقد خاصية إذكائه، أو بتغيير بسيط في حالة الفرد الداخلية. كما أن العادات التي اكتسبها الإنسان وخضع لها، والانفعالات والدوافع الداخلية المتضاربة في نفسه، لها أيضا تأثير عظيم على النشاط الجنسي. فمنها مثلا الحياء، ثم الميل إلى الوحدة والانفراد الذي هو ألد عدو للغريزة الجنسية، إذ بينما هي تدعو للتآلف والاجتماع، إذا به يدعو إلى النفور والتباعد.

ومما هو جدير بالذكر أن الغريزة الجنسية، وما يتبعها من حب، قد توجد جنبا لجنب مع الازدراء والكراهية لنفس الشخص، وبعبارة أخرى، إن الغريزة الجنسية قد تتعلق بشخص يزدريه الإنسان ويحتقره أو يكرهه. ولدينا من الحياة اليومية أمثلة كثيرة، لا تصعب ملاحظتها على من فطن لها، في

المجتمعات التي تضم أفرادا من كلا الجنسين معًا.

وهنا نسائل أنفسنا، إلى أي حد تخضع الدوافع الجنسية للإرادة. إن بعض مظاهر الغريزة الجنسية من نوع الأفعال المنعكسة Reflexes، فهي إذن خارجة عن سيطرة الإرادة، من حيث إحداثها، ولو أن الإرادة قد تسيطر عليها من حيث إيقافها، أو الإقلال منها. فاتساع حدقة العين مثلا في الظلام، وضيقها في الضوء، لا يمكن للإرادة أن تتحكم فيه بأن تمنعه، كما أن الإنسان لا يحدثه بإرادته واختياره، أما العطس فهو يحدث من غير تأثر بالإرادة، ولكنها قد تستطيع إيقافه أو الإقلال منه، فإذا اجتمع أفراد من جنسين متقابلين في مجلس واحد، وتوفرت بينهم عوامل الاجتذاب والهواية، كالسن والملامح والقد وطريقة المشي والكلام إلى غير ذلك، فإنه لابد من حدوث تلبية خاصة من جانب الأفراد، من نوع الأفعال المنعكسة، لا يكون للإرادة فيها دخل، من حيث تحريكها وإيجادها، بل تجد الجسم كله قد اتخذ موقفا خاصا، وتهيأ تهيؤا خاصا دفعة واحدة. هذه الحركات تؤدي في النهاية، وإذا لم يقم عائق، إلى الأفعال التي ذكرناها سالفا، ألا وهي الاقتراب من الفرد الجذاب، والتحاب والتمليس والعناق أي الالتصاق البدني.

ومما هو جدير بالذكر، أن الأفعال المنعكسة، بما فيها أفعال الجهاز التناسلي، لا تخضع لعرف ولا لقانون، ولا ترث تقاليد المجتمع وعاداته، وإنما ترث الخواص البيولوجية للجنس الإنساني، ما دامت هذه الخواص تساعد على استمرار النوع الإنساني. وغني عن البيان أن موافقة الآباء والمربين، أو اعتراضهم، لا يجديان نفعا في إيقاف الأفعال المنعكسة، أو ملاشاتها، أو تأجيلها، فمن العبث أن يأمر أب ابنه بأن يمنع أنفه من التهيج إذا استثارها مثير، أو من السعال إذا أصابه برد، مهما قبحهما لولده، ومهما وصفهما

بأبشع الأوصاف، إذ كل ما يستطيع الفتى عمله، هو أن يتحاشى المواقف التي تدعو إليها، أو أن يختفي عن أعين الناظرين والسامعين إذا ما شعر بالميل نحوهما. وقد يفلح في إيقاف العطس أو السعال مرة، ولكنه لا يستطيع أن يمحو العطس والسعال من قائمة الدوافع التي تسيطر عليه.

غير أن هناك فرقا بين الفعلين اللذين ذكرناهما والفعل الجنسي، فهما من الأفعال المنعكسة المحضة، أما الفعل الجنسي فبعضه فقط من هذا النوع، وبه عناصر أخرى غير منعكسة، فتخضع للإرادة. وهذا هو السبب في أن الكثيرين يظنون أن الفعل الجنسي كله يحكم بالإرادة، غافلين بذلك عن العنصر المنعكس فيه.

ويظهر أنه مضى على الإنسان حين من الدهر لم يكن يعرف نتيجة الاجتماع الجنسي، أي إنتاج النسل، وأنه لم يتعلم أن يربط السبب بالمسبب، وأن يفهم العلاقة بين هذا الاجتماع وإحداث النسل، إلا بعد مضي زمن ليس بالقليل. إذ كانت ولادة الأطفال تعزي إلى العوامل الطبيعية، كالأنهار والأشجار والمطر والشمس، وأحيانا إلى أشخاص بعيدين. فيحكي في خرافات الصين القدماء، أن امرأة كانت واقفة أمام شجرة يقطعها بعض الناس، فتطايرت شظية منها ودخلت في فمها، فإذا بها حبلى. وأن أميرة كانت تستحم فوجدت على ملابسها زهرة فإذا بها أم. وفي بعض الأحيان، كان الإنسان الأول يقدم القرابين للشمس والأنهار والأشجار، إذا رام الإكثار من النسل.

وكما أن الإنسان الأول في مبدأ أمره، لم يكن يعرف العلاقة بين الفعل الجنسي والنتيجة التي تليه، بل اكتشف ذلك بخبرته وتجاربه على مر الزمن، فكذلك الطفل والشاب لا يعلمان العلاقة، ولن يعلماها، إلا إذا أخبرهما أحد

أو قرأ عنها في الكتب، وإلا فعليهما أن يبقيا جاهلين حتى تدلهما عليها التجارب.

لقد سقنا تلك النبذة المختصرة، لنوضح للآباء والمربين شيئا عن الدافع الجنسي، من حيث منشؤه، حتى لا يقعوا في الأخطاء التي يقع فيها الكثيرون الآن، نتيجة لعدم علمهم بتلك الحقائق. فلا يظن أحد أن الغريزة الجنسية شر بطبعها، وإن كبتها وعدم الإشارة إليها أمر مرغوب فيه، يؤيده العقل، فتلك الوصمة التي لحقت بها نجمت عن ظروف أغلبها اقتصادي كما بينا قبل الآن. كذلك لا يظن أحد أن تأنيب الفتى أو الفتاة على الشعور الجنسي يجدي نفعًا، أو يمنع بعض عوامله من الظهور، كالمظهر المنعكس الذي ذكرناه مثلًا. كما يتضح أيضًا أن تعليم النشء حقائق عن الأمور الجنسية، وإيضاحها لهم أمر مرغوب فيه كل الرغبة؛ لأن ذلك السبيل الوحيد لعلمهم بها. فإذا لم يتعلموها عن طريق الآباء والمربين، تعلموها إما بالمحاولة والخطأ، على ما في ذلك من تعرضهم للأخطار والنتائج الوخيمة، وإما استقوها من الكتب الوضيعة وخلان السوء، والمغرضين الذين ينتهزون الفرصة لإفساد أخلاقهم.

أما إذا أفلحنا في السيطرة على الفتى أو الفتاة، فصرفناهما عن الأمور الجنسية بالضغط، فالعاقبة قد تكون أدهى وأمر، ذلك أن كلا منهما قد يلجأ إلى كبت انفعالاته ورغباته، أي تناسيها وعدم السماح لها بالظهور، فتنحدر تلك الانفعالات إلى ما يسمى اصطلاحا في علم النفس باللاشعور، حيث تكبت كل انفعالات الإنسان التي لا تستطيع الظهور على مسرح الشعور أمام الملأ. ومن المعلوم أن تلك الانفعالات والرغبات المكبوتة، وإن اختفت عن الأنظار، لم تتلاش فعلا، بل هي مستقرة في اللاشعور، تؤثر في سلوك المرء

تأثيرا بينا، يكون في الغالب شاذا، لأنه آت من طريق ملتو، لا يقره العرف ولا القانون. وليس القصد السماح باختلاط الجنسين، بلا قيد ولا شرط، فآفات الاختلاط وسيلة إذا لم يكن للناشئين من يرشدهم إلى جادة الصواب.

والكثيرون من تصرفات بني الإنسان يعتبر من النوع الشاذ، إذ لا يقره المنطق والعقل، ومع أن ذلك السلوك الشاذ يبدو غريبا للناظرين، فإنه قد لا يبدو غريبا لصاحبه، الذي يحاول أن يقنع نفسه ومن حوله بالأسباب التي حدت به إلى ذاك السلوك، وأن يبين لهم أن ذلك السلوك إن هو إلا نتيجة منطقية لتلك الأسباب. غير أن سيكولوجية اللاشعور قد علمتنا أن لا نصدق ذلك (التبرير) Rationalization، وأن نبحث عن السبب الحقيقي للسلوك الشاذ في منطقة اللاشعور؛ أي بين الدوافع المنسية المكبوتة، التي كثيرا ما يرجع تاريخها إلى أيام الطفولة.

أما عن نوع هذه الخبرات المكبوتة، فقد اختلف علماء النفس والأطباء في تقريره، ولكن (فرويد) الذي يعد من أشهر علماء النفس في العصر الحاضر، وكان كذلك من أكبر المشتغلين بعلاج أمراض الشذوذ النفسي والأمراض العصبية، يقرر أن الغريزة الجنسية هي المصدر الأكبر للأمراض النفسية، ويقرر كذلك أنها أهم وأخطر دافع يهيمن على حياة الإنسان. وهو لا يعفي من تأثيرها الطفل أو الراشد، بل يعتبر كلا منهما تحت تأثيرها وخاضعا لنفوذها، وهذا هو السبب في أن الكثيرين من علماء النفس في أوروبا وأمريكا قد اعتبروه مبالغا متطرفا. ولكن مهما يكن من أمره فإن نظريته عن اللاشعور، قد انحازت إليها الغالبية العظمة من علماء النفس، وإن اختلفوا معه في بعض التفاصيل هنا وهناك، وأصبح له أتباع في جميع أنحاء العالم، يعالجون المرضى على طريقته، ويفلحون في شفاء البعض منها على الأقل، مما يضطرنا

إلى التسليم، من غير ما جدل، بأهمية الدافع الجنسي، في حياة الكبار، على الأقل، إن لم نسلم بها في حياة الصغار.

ومغزى ذلك بالنسبة لموضوعا واضح إذن، فضغطنا على الفتى والفتاة، ومنعهما من إظهار شعورهما الجنسي بطريقة ما، مشروعة كانت أم غير مشروعة، نتيجته وخيمة، لأن ذلك الدافع، كما قدمنا، لا يموت ولا يتلاشى، بل يختفي عن الأنظار في منطقة اللاشعور، ويؤثر هناك من طرف خفي في سلوك المرء. فتراه يعمد إلى الفرص غير الطبيعية لإرضائه، كالعادة السرية، واللواط، أو غير ذلك من الطرق الشاذة، فلا يلبث أن تملك هذه عليه ناصيته، ولا يحب الرجوع إلى الطريقة الطبيعية، حين يسمح له بها، وبذا يصح شاذا من غير ما شك.

ونريد هنا أن نوضح للآباء والمربين، أن اختفاء الدافع الجنسي عن الأنظار، ليس معناه تخلصنا من المشكلة، فإذا اعتقدنا ذلك، كان مثلنا كمثل النعامة، التي يطاردها الصياد حتى تنهك قواها، فلا ترى سبيلا للتخلص من المشكلة، إلا أن تضع رأسها في الرمل، فكأنها تعتقد أن زوال الصياد من أمام أعينها، زوال له من الوجود.

الصفات التي تستهوي الشباب في الجنس الآخر

المفروض أن الأفراد الذين ليس بهم شذوذ يميلون إلى أفراد الجنس المقابل، إذا توفرت شروط خاصة، وإن اختلف الأفراد في قدرتهم على استثارة هذا الميل.

ولقد حاول علماء النفس أن يعرفوا أي العناصر في شخصية المرء، تؤثر في اجتذاب الجنس المقابل، وتستثير فيه الميل الجنسي، فاستعملوا للوصول إلى ذلك طريقة الاستفتاء Questionaire. فدل البحث على أن جمال

الجسم، وعلى الأخص جمال الوجه، أشد هذه العوامل استهواء، ولو أن الأفراد يختلفون في مقدار تأثرهم بأجزاء الجسم المختلفة. فالبعض مثلا يفضلون جمال اليدين والقدمين على جمال الوجه، كما أن آخرين يضعون جمال القد والقوام في المحل الأول. وهناك صفات جسمية أخرى تستهوي البعض كالحواجب والفم. بينما آخرون يجتذبهم الهندام والملبس أكثر من جسم الشخص ذاته. ولقد ورد إجابات المراهقين، عن أسباب الكراهية لأفراد الجنس المقابل وجود شبه ما بين هؤلاء الأفراد وبعض الحيوانات، فيقولون إن فلانا (أو فلانة) يشبه القرد أو الأوز أو القط، وهذا يكفي لديهم لبيان السبب في استقباح منظر ذلك الفرد.

غير أن هذا لا يمنع وجود بعض المراهقين الذين يفضلون صفات مختلفة في الجنس المقابل، ويحلونها المحل الأول. إلا أن الغالبية منهم تضع جمال الجسم في رأس القائمة. ولقد رتبت هذه الصفات حسب الغالبية التي ترغب فيها، فكانت النتيجة كالآتي:

(١) جمال الوجه (٦) الأدب وآداب السلوك (إتيكيت)

(٢) الذكاء والتربية (٧) الأخلاق الحميدة

(٣) الشخصية (٨) الصحة

(٤) الأمانة والصراحة (٩) الظرف

(٥) العطف (١٠) الطموح

ويحسن أن نتحفظ فنقول إن معنى هذه الألفاظ قد يختلف من فرد لآخر. فما يعد جمالا للوجه عند فرد من الأفراد، قد لا يعد كذلك عند فرد آخر. كما أنه قد يختلف من أمة لأخرى، ومن جيل لآخر. فمثلا نحافة القوام قد تعد المثل الأعلا عند بعض الشعوب، وعلى الأخص الشعوب التي ينتشر

بينها الرقص، إذ يمجد الشباب فيها، بالإضافة إلى نحافة القوام، طوله أيضا. بينما بعض الشعوب الأخرى تفضل امتلاء الجسم. وكما أن بعض الناس يفضلون الأنف القصيرة المتسعة والوجه المستدير، نرى آخرين يحبون الأنف الضيق الطويل، والوجه الطويل أيضًا.

كذلك ما يعتبر جميلا في زمن ما، قد لا يعتبر جميلا بعده بسنوات، بين ظهراني نفس الأمة، فمعيار الجمال يتغير كالأزياء. فمثلا منذ نصف قرن تقريبا، كانت النساء الغريبات تلبس الملابس المنفوخة التي لا تظهر شكل الجسم، وإنما تعطي السيدة شكلا خارجيا لا علاقة له بجسمها مطلقا، فكان الشكل العام عبارة عن أقواس ومنحنيات.

أما الآن فالخطوط المستقيمة هي السائدة المرغوبة، وكذا الملابس الضيقة الملتصقة بالجسم، التي تظهره على حقيقته، مما دعا إلى احتجاج من يتكلمون باسم الفضيلة والآداب العامة، وأصبح القوام الممشوق المعتدل مفضلا على الجسم الضئيل والقد الناحل الذي كان يتغنى به قبل الآن.

كما أن الشارب كان في وقت من الأوقات من مميزات الشاب الأنيق الوجيه المستملح، ثم زال هذا الشارب من الوجود، ثم إذا به في أيامنا هذه يعود إلى الظهور ثانية بأشكال مختلفة على مسارح الوجوه الأنيقة، المهتمة بتتبع أزياء نجوم السينما. أما اللحية فنراها تختلف من أمة لأمة، حتى في وقتنا هذا، فتراها كثيرة الانتشار بين الفرنسيين، حتى الشبان منهم، وتراها قليلة بين الأجناس السكسونية، ولكننا نراها تبذل مجهودا ضئيلا للعودة، بين طلبة الجامعات في انجلترا مثلا، في السنوات الأخيرة.

أما الفتاة، فشبان اليوم يفضلونها نشطة، سريعة الحركة والكلام، مسترجلة لحد ما، بدلا من فتاة الأمس، الضعيفة، البطيئة الحركة. الظاهرة الأنوثة، الناعمة الكلام والملمس. وتيار التحول ظاهر للعيان في مصر، بخروج الفتيات من خدرهن إلى ميدان الحياة العامة.

من تلك الملاحظات السابقة ومن غيرها نستطيع أن نقول إن كل ما يعتبر في وقت من الأوقات حديثا (أو مودة)، يكون ذا تأثير خاص في استواء أفراد الجنس المقابل، سواء أكان في ذلك في الملبس، أم في طريقة تصنيف الشعر أم في استعمال الأصباغ وأدوات الزينة، أم في طريقة الكلام والسلوك، إلى غير ذلك.

وهذا له مغزى للآباء والمربين. فإن إجبارهم أبناءهم وبناتهم على اتخاذ زي كان سائدا في أيام شبابهم معاشر الآباء، مهما كان جميلا، ومهما كان مناسبا للفضيلة والآداب، يكون بمثابة فاصل بينهم وبين شبان وشابات اليوم لأنه غير جذاب، ومعيار الجمال نسبي في هذه الحالة على الأقل. فالأم التي تراغم ابنتها على اتخاذ زي كان سائدًا مُنذ ثلاثين سنة مثلا، تفقدها جاذبيتها لشبان اليوم، بناء على القاعدة التي استنتجناها منذ قليل.

نستخلص مما سبق بعض النتائج، منها أن الفتيان، والفتيات الذين يخالطون الجنس المقابل، ويودون أن تكون لهم الحظوة في مجالسهم، عليهم أن يعنوا بالملبس كعنصر من عناصر الجاذبية، وإلا كانت النتيجة على عكس ما ينتظر. ولسنا نرى أنهم في حاجة كبيرة إلى مثل تلك النصيحة الذهبية من لدنا، فالفتيان والفتيات أعلم بها منا، وينساقون إلى أتباعها بدافع داخلي غريزي قبل أن يقرأوها في الكتب أو يرشدوا إليها. وغني عن البيان أن الكثيرات من الفتيات الأحداث، اللاتي قبض عليهن بتهم يعاقب عليها

القانون، كان أهم دافع لهن على ارتكاب تلك الجرائم، غرامهن بالملبس والزينة، وسعيهن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة للحصول عليها. وربما كان هذا الغرام بالملبس والزينة أشد عند البنات منه عند الصبيان. وتعليل ذلك أن موقفهن مع الجنس الآخر سلبي، فعليهن أن يجتذبن أنظاره بمثل تلك الحيل، وإلا أغفلن.

أما الجنس الآخر فموقفه إيجابي، فعليه الإقدام والبحث، وقد يقدم من طرق الإقناع والاستهواء، ما يغني عن جاذبية الملبس والزينة، كالقهوة الجسمية والخلقية والاجتماعية، وكالمال وغير ذلك.

ونود هنا أن ننبه القارئ إلى أننا لسنا بصدد قاعدة خلقية، نزفها للشباب ونود أن ينصرف إلى العناية بملبسه والاشتغال باستهواء الجنس الآخر، وإنما نحن نقرر حقيقة نفسية، على الآباء والمربين أن يعلموها أولًا، ثم على أساسها يضعون خطتهم الأخلاقية، بدلا من أن تكون خطتهم على عكس الميول والدوافع النفسية القوية، فتظل غير ذات جدوى في نفوس الشباب، ويكون تطبيقها مستحيلا، اللهم إلا بالإرغام والرهبة، وعندئذ نقع في مضار الكبت إذا أفلحنا في السيطرة التامة على الشباب، أو يلجأ هؤلاء إلى إرضاء دوافعهم من طرق خفية تحت الستار، فيكون مثلنا كمثل النعامة التي ذكرناها.

ونوجه النظر أيضًا إلى عنصر هام، له أثر كبير في استثارة الفضول الجنسي، ألا وهو الغموض والإبهام، فمن أهم العوامل التي تساعد على تجاذب الجنسين حب الاستطلاع والرغبة في استجلاء ما غمض من صفات الجنس الآخر.

وقد لوحظ أن كل ما هو جديد أو غريب في الأمور الجنسية يزيدها قوة، وبالعكس الألفة تقلل من قيمتها، وتضعف قوتها على الاستثارة. وربما كان

هذا هو السبب في تقلب أزياء السيدات بتلك السرعة المعروفة، فالملابس القديمة لا تكاد تبلى إلا ويكون الزي الجديد قد ظهر، ولذا فهن يحافظن بذلك على عنصر الغرابة.

وبناء على القاعدة السابقة، نجد أن الحب الممنوع أقوى من الحب المباح، فالمحبان اللذان يحال بينهما، يهيمان الواحد بالآخر، والأب الذي يمنع فتاة من الزواج بفتى يميل إليها، يزيد حبهما اشتعالا، وخاصة إذا منعهما من أن يرى أحدهما الآخر، فالفصل يزيد عنصر الإبهام، ويعطي مجالا للخيال. فالمثل القائل بِأن أحب شئ إلى الإنسان ما منع، صحيح تؤيده الحقائق السيكولوجية.

وخير للآباء هنا أن لا يسلكوا طريق الأوتوقراطية والبطش، في معالجة مثل تلك الأحوال، فإذا كان ولابُد من الوقوف في سبيل العلاقات بين الطرفين، فعليهم أن يلجأوا إلى الإقناع، وذلك ببيان الأسباب التي أدت بهم إلى سلوك خطتهم هذه، وعلى قدر إفلاحهم في هذا الإقناع، يكون نجاحهم في إضعاف تلك العلاقات.

ولسنا بمدعين أن الإقناع سوف ينجح في كل الحالات من غير ما شك، وإنما نود أن يترك التحكم والبطش إلى آخر فرصة، حيث لا يجدي الإقناع، وعندئذ يجب أن يكون أولو الأمر على بينة من نتائج خطتهم، ويصبحون في موقف من يختار أهون الضررين. وهذا هو السبب في استعذاب المتاعب، وتحمل المشاق عن طيب خاطر، في سبيل الحب؛ لأن تلك العقبات لا تزيده إلا قوة، بينما على العكس، الحب الذي يرى كل من الفتاة والفتى أن الأبوين يدفعانهما إليه، يكون باردا سقيما، ضعيف العاطفة بطئ التأثير.

وكثيرًا ما تكون تصرفات الآباء على عكس ما يرغبون، فقد يحدث أنهم إذا رغبوا في زواج فتى من فتاة، قربوا بينهما قدر المستطاع، فيضيع عنصر الغرابة، وتدب الألفة بينهما، فتهدأ العاطفة. ويبعدون الفتى والفتاة اللذين لا يرغبان في زواجهما، فيصح كل منهما مصدرا للرغبة، ومذكيا لحب الاستطلاع. وهنا ثانية لا نريد أن نملي ما يجب أن يفعله الآباء والأمهات بالضبط، فكل حالة لها ظروفها الخاصة بها، وإنما نكتفي بتقرير الحقيقة السيكولوجية للاسترشاد بها.

ومن الحقائق السيكولوجية الهامة، أن الغريزة الجنسية شديدة الصلة بكل الانفعالات والغرائز والعواطف الإنسانية الأخرى. فمن تلك الغرائز غريزة حب السيطرة، فالفتى يستعذب تحمل المسئولية لحماية فتاته، والسهر على راحتها، ويلذ له أن يمتدح في هذه الناحية، ويغضب إذا تشكك أحد في قدرته على ذلك، ويجرح أيما جرح إذا هزأت به فتاته، ورمته بالنقص والضعف عن مجاراة أمثاله من الرجال.

كذلك حب التملك دافع قوي، شديد الاتصال بالدافع الجنسي، فالإنسان إذا أحب شخصا افترض ملكيته، ويلذ له أن يشعر أيضا أنه ملك للشخص الآخر؛ أي أن حب الملكية متبادل. ويثير الدافع الجنسي والحب عدم وثوق الشخص من ملكيته للطرف الآخر، ولذا فإن الحب بين المتنزوجين أهدأ منه بين العشاق، نظرًا لوثوق كل منهما من ملكيته لغريمه.

ويظل الشك والاهتمام، حتى يوثق رباط الألفة والاجتماع بينهما، فيطمئن كل منهما إلى ملكيته لصاحبه، ويتأكد من عدم ابتعاده عنه وذلك بالخطوبة أو العقد أو غير ذلك. وربما كان هذا هو السبب في أن بعض المتزوجات من النساء يلجأون إلى إظهار العطف على غير أزواجهن، إذا ما

خمد حب هؤلاء لهن، وذلك بالتمدح أمامهم بصفاتهم الحميدة والإعجاب بهم. ولسنا ناصحين باتخاذ تلك الخطة، فإنها قد تستثير الغضب بدلا من الحب، وتؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

غير أن الغريزة الجنسية قد تستثيرها أشياء غير المثيرات الطبيعية لها، إذا اقترنت هذه بالمثيرات الطبيعية في الذهن. فالمثير الطبيعي، هو أفراد الجنس الإنساني من النوع المقابل، ولكن قد تستثيرها صوره، أو أصواته إذا سمعت من غير رؤيته، في الراديو أو اسطوانات الحاكي مثلًا، حتى إن هذه المثيرات غير الطبيعية كثيرًا ما تستخدم لاستثارة تلك الغريزة عمدا في غياب المثير الطبيعي، وهذا طبعا نوع من الشذوذ، لا نود أن ينحدر إليه الفتيان والفتيات.

كما أن الخيال وسيلة سهلة لاستثارة الميل الجنسي، ولذا فإن الكثيرين من البالغين والبالغات يفرطون في استخدامه، لدرجة تؤثر في صحتهم وخلقهم حتى يصبح الواحد منهم في عداد المرضى، والمرض البدني في تلك الحالة أهون ضررًا من المرض النفسي إذا اشتد، فقد يتطور الأمر إلى انغماس المراهق في عالم الخيال، فيزداد بعده عن عالم الحقيقة، فتتلقفه الأوهام، وتثبط همته عن مواجهة هذا العالم المادي الحقيقي.

ومن أنواع الشذوذ الجنسي أيضا، أن يعمد البعض إلى أفراد من نفس جنسهم، في غياب المثير الطبيعي، وهو أفراد الجنس المقابل طبعًا، وذلك شائع بين المراهقين، وغير خاف ماله من التأثير الخلقي الكبير على الطرفين، وقد يصح عادة يصعب استئصالها، فيفقد المثير الطبيعي قوته، ويصبح المثير الثانوية هو المتسلط الوحيد، وذلك شذوذ خطر من غير ما شك. وسيأتي الكلام عن الشذوذ في شئ من التفصيل فيما بعد.

النمو الطبيعي للغريزة الجنسية

كان المفروض سابقا، أن الطفل لا تشوب أعماله أية صبغة جنسية، وكان المعتقد أن أول شعوره بالدافع الجنسي، يبدأ عند البلوغ. ولكن علماء النفس الآن قد تبين لهم خطأ هذا الفرض، فهم يقولون إن الغريزة الجنسية تبدأ مع الطفل مُنذ ولادته، ولا تزال تنمو بنموه. ولقد دلت الأبحاث السيكولوجية على أنها تبدأ في وقت مبكر جدًا، وأنها تجب المحافظة عليها، بتعهدها وتربيتها منذ ذلك الوقت.

وليس هناك انتقال فجائي عند البلوغ، كما يقول البعض، وغاية ما هناك أن ذلك النمو الذي كان مستمرا طول الوقت، يبدأ ظهوره للعيان، ويبدأ تأثيره التدريجي في حياة الفرد.

ويدخل الناشئون في دور المراهقة تدريجيا فلا يمكن الإشارة إلى يوم أو أسبوع لاكتمال ذلك النمو. كما ان الأفراد يختلفون في موعد دخولهم فيه، واكتمال نموهم كما قدمنا في الفصول السابقة. ويُمكن اعتبار المرء كامل النمو من الوجهة الجنسية حين تتوفر لديه الكفاءة لأن يكون أبا أو أما. ويتخذ ظهور السائل المنوي دليلا على نضوج الغريزة الجنسية لدى الذكور، والحيض دليلا على نضوجها لدى الإناث. وهناك أعراض أخرى تدل على ذلك كظهور الشعر وتغير الصوت.

وتلك التغيرات الجسمية شديدة العلاقة بحالة الناشئين النفسية والاجتماعية فهي تدفعهم إلى ملاحظة أفراد الجنس المقابل والسرور من صحبتهم ورؤيتهم. كما أنها تؤثر في خيالهم وإنتاجهم العقلي. فقد يغرمون بالشعر وعلى الأخص الغزل، أو بالفن الذي يمثل جمال الجسم، مما هو بلا شك نتيجة لاتجاه ميول الفرد نحو تلك النواحي.

ويشعر الفتيان عادة بالنخوة لبلوغهم مظاهر الرجولة، ويفخرون برجولتهم وقوتهم ويغضبون لامتهانها، ويجدون لذة في العناية بالضعيف من النساء والأطفال لأن ذلك مظهر لقوتهم ورجولتهم.

ويقترن نمو الغريزة الجنسية ونضوجها بكثرة الأسئلة التي تنشأ في نفوس الناشئين عنها، إذ يزيد حبهم لاستطلاع خفاياها، وليس هذا بمستغرب، فذلك أمر كل شئ جديد غريب، وعلى الأخص إذا ما علمنا بقوة الغريزة الجنسية وأهميتها في حياة الفرد حاضرا ومستقبلا.

ومن الخطأ أن نفترض أن الطفل لا يخوض في المواضيع الجنسية قبل البلوغ، فالأطفال يتحدثون عن أعضائهم الجنسية ويتحدثون عن الزواج، ويعلم الكثيرون منهم الشئ الكثير عن كيفية حدوث النسل وولادة الأطفال، ويفهمون معنى المصطلحات الشائعة، كأسماء الأعضاء الجنسية والجماع وغير ذلك. بل إنا لنزيد عن ذلك فنقول إن نسبة، غير قليلة من الأطفال يلعبون بالمسائل الجنسية فعلا قبل البلوغ، لا عن رغبة جنسية حتما، وإنما من قبيل حب استطلاع المجهول والتجريب، فالأطفال قد ينظرون إلى أعضائهم الواحد إلى الآخر، وقد يلعبون بها فعلا في أوقات خلوتهم وابتعادهم عن أعين الكبار، سواء أكانوا من جنس واحد كلهم أم من الجنسين. غير أن خبرة الأطفال قبل البلوغ بالمسائل الجنسية لا تقترن بانفعالات قوية، ولو أنها قد تقترن بسرور طفيف، ولا خطر منها لأنها من قبيل اللعب، غير أنها إذا تعدت ذلك تصبح خطيرة، لا في حد ذاتها في الطفولة فحسب، بل تصبح عادة تستمر إلى ما بعد ذلك الدور. ومن أخطر ما يكون اختلاط الأطفال بمن هم أكبر منهم سنا من الأطفال أو الراشدين، فقد يغريهم هؤلاء بإتيان أعمال خبيثة يكون لها أوخم العواقب، وقد حدث مرة أن

ممرضة تعودت اللعب مع طفل تنعهده، وجعلت تلعب بأعضائه الجنسية، حتى انتهى الأمر بإصابته بمرض جنسي كان بها. وعلى سبيل الإيضاح نورد المثال الآتي أيضا.

تعلم طفل العادة السرية منذ سن السادسة، علمها له طفل آخر أكبر منه سنا، وبعد بضع سنوات كان يزاولها حوالي خمس مرات أو ست في الأسبوع، فبدأ يسوده القلق والهم من آثارها، واستولى عليه الاضطراب، وعلى الأخص أنه استمر فيها خلال سنوات المراهقة، ورغم محاولته التغلب عليها لم يفلح، واستمر فيها حتى سن الخامسة والعشرين، ولو أن عدد المرات قل عندئذ.

ليس ذلك المثال وحيدا في بابه، وليس إلا واحدا من آلاف الأطفال الذين يتعلمون تلك العادة من إخوانهم، وليس من شك في أن الشبان الذين يزاولون الاستمناء أو العادة السرية عددهم كبير، إذ دلت الأبحاث التي أجريت في أمريكا على انتشارها وطول عهد مزاولتها، وحبذا لو كانت لدينا أبحاث تبين لنا مدى انتشارها في مصر وبلاد الشرق. ولكن اعتقادنا أنها لا تقل عن أمريكا نظرا لتقاليدنا التي تقيد اختلاط الجنسين.

ويتميز دور المراهقة باتجاه الاهتمام نحو أفراد الجنس المقابل، ولم يكن الأمر كذلك قبل ذلك الوقت، فهذا هو الطريق الطبيعي لتلك الغريزة، الذي تصل به ميول الفرد الفسيولوجية والسيكولوجية إلى غايتها الطبيعية التي أعدت لها، والذي به تستقيم صحة الفرد وعقليته. فهذا الاتجاه ضروري لسلامته الصحية والنفسية والعقلية.

غير أن الشباب يجد صعوبة في الوصول إلى تلك الغاية، نظرا للعقبات الاجتماعية والدينية، التي تتمثل في الآباء والمربين ورجال الدين، وفي القانون والتقاليد والعرف.

أما الدين والتقاليد والعرف والقانون، فتعارض في الوصول إليها إلا من الطريق المشروع، ألا وهو الزواج. وولاة الأمر والظروف الاجتماعية والتقاليد والعرف كذلك تعارض في الزواج المبكر قبل أن يصل الفتى إلى مرتبة الرجال. ومعارضتهم هذه تقوم في جوهرها على أسس اقتصادية، وإن لم تكن تلك الأسس ظاهرة واضحة لهم بطريقة مباشرة. فالفتى المراهق، كما قدمنا، لم يصل بعد إلى درجة الاستقرار من الوجهة الاقتصادية، وذلك يعوقه عن القيام بواجبات رب الأسرة، وعلى الأخص في حالة إنتاج النسل. ولكن الموانع الاقتصادية ليست الموانع الوحيدة طبعا، فهناك موانع أخرى، وإن تكن أقل أهمية من الموانع الاقتصادية، فضلا عن أن الكثير منها يمكن إرجاعه إلى الأساس الاقتصادي. فالفتى الناشئ لم يكون له مركزا في الهيئة الاجتماعية، وأهله لا يودون أن ينصرف بعد عن السمو نحو المركز الذي يصبو إليه، أو الذي يتمنونه هم له.

كما أن خبرته في الحياة لم تكتمل بعد، وعلى الأخص في أيام المدنية الحديثة، التي تزيد فيها مطالب الحياة من الفرد، فتطلب منه كفايات مرتفعة المستوى، من الوجهة العقلية والخلقية والعملية، تلك الكفايات التي لا يصل إليها إلا بعد مران طويل، سواء أكان في المدارس والجامعات، أم في معترك الحياة العملية والعلمية والاجتماعية.

من أجل هذا كله، يتضافر ولاة أمره على إخماد ميوله الجنسية، ومنعها من الظهور في وقت هي أحق ما تكون فيه بالنمو إلى غاية كمالها، نموا مستقيما لا اعوجاج ولا تحايل فيه.

وفي السنين التي تسبق البلوغ، لا تكون ميول الطفل موجهة بشكل واضح نحو أفراد الجنس المقابل، ولا تكون الناحية الجنسية ظاهرة الأهمية

في حياته. فميله نحو الالتصاق البدني غير محدود، وغير متركز في منطقة خاصة، وعواطفه تتجه نحو الجنسين على حد سواء. أما السنين التي تلي بدء البلوغ، فإن عواطفه تبدأ تدريجيا في الاتجاه نحو الجنس المقابل، وهذا خير وقت يستطيع الفرد فيه أن يعود نفسه موقفا طبيعيا صحيحا، بعيدا عن الشذوذ، تجاه الجنس الآخر. فإذا فشل الفرد في ذلك، تأصل الشذوذ من نفسه، وتأثرت حياته في مستقبل الأيام لحد ما، كبيرا كان أم صغيرا.

إذ أن هذه الميول إذا اعترض نموها الطبيعي في وقت من الأوقات، وعلى الأخص في تلك السنوات، يندر أن تعود فيما بعد إلى شكلها الطبيعي، بل لابد وأن يعتورها شئ ولو قليل من الشذوذ، يستلزم التخلص منه تربية خاصة، وتكوين عادات خاصة من جديد، تسبب للمرء آلاما نفسية وجسمية، كان في غنى عنها لو سمح لها بأن تتخذ منفذا طبيعيا لها، في وقتها المناسب. وليس هذا بمستغرب، ما دام عقل المرء وإرادته في كفاح مع ميوله وأهوائه ومطالبه الفسيولوجية الضرورية، إذ أن ذلك الكفاح، فضلا عما به من ألم نفسي، يستنفد جزءا كبيرا من الطاقة العصبية.

وهو إذا اشتد سبب انفصالا في الشخصية، إذ أن الجزء من النفس الذي يسبب لها هذه الآلام، يكبت، ويحاول الإنسان فصله منها، ولكنه لا يستطيع إلا فصله من ميدان الشعور، فيظل في اللاشعور فعالا مؤثرا تأثيرا خفيا، يكون بالطبع شاذا، وعندئذ يصبح الفرد في عداد المرضى من الوجهة النفسية، وهكذا يظل شاذا مريض النفس، غير صالح طبعا للحياة الاجتماعية مع غيره من الأصحاء

ومن الأمور التي تعتور النمو الصحيح للغريزة الجنسية، الضغط الشديد على نفسية الناشئين وتصرفاتهم، وجهلهم بأسباب الدافع الجنسي ونتائجه،

والخوف الشديد الذي قد يقترن به في نفس بعض الناشئين، وعلى الأخص البنات، أو الشغف الشديد به وشدة الشوق إلى استطلاعه

ونشير هنا إلى أن شغف الناشئي وشوقهم إلى استطلاع الأمور الجنسية، يؤدي بهم إلى تصيد المعلومات عنها، بالسؤال أو القراءة أو استراق السمع والنظر، أو إلى الإتيان بالفعل الجنسي ذاته إذا سنحت الفرصة، ولو من قبيل العلم بالشئ وإطفاء الفضول. وليس العقاب أو التأنيب أفضل طريق لحماية المرء من العواقب الوخيمة، وإنما يجب على الآباء والمربين أن يعلموا أن ذلك الشوق والفضول أمر طبيعي، لا ينجو منه أي شخص سليم الجسم، وأنه ليس عارا وإنما العار يأتي من اصطلاح الهيئة الاجتماعية. وخير من تأنيب الناشئين وكفهم عن الخوض في هذه المسائل، مناقشة بعضها معهم، والتفاهم معهم على ما يليق الكلام فيه وما لا يليق.

وكثيرا ما يعترض الأبوان النمو الطبيعي، ويؤثران على حالة الطفل العقلية تأثيرا بالغا بطرق شتى، منها مثلا علاقاتهما الواحد مع الآخر. فالطفل الذي ينشأ في سط عائلي يسوده الشجار والتشاحن، ويخرج عليه الشقاء، يضطرب نموه، وتشد انفعالاته وعواطفه، وهذا يؤثر بدوره في علاقته المستقبلة مع الجنس المقابل، لأنه أثناء حياته في ذلك الوسط التعيس، لابد وأن يتخذ لنفسه موقفا خاصا تجاه كل فرد من أفراد العائلة، ذكورا كانوا أم إناثا، تبعا لموقفهم هم نحوه، وهذا يؤثر في عواطفه الموجهة نحوهم. وهذه المواقف المقترنة بالحب والكراهية والفزع والخوف إلى غير ذلك، سوف تحدث في حياته المستقبلة مواقف تشبهها، ولذا فإنها تستثير ذكراها، مع ما يقترن بها من انفعالات وعواطف، وتلك العواطف والانفعالات القديمة تحدد سلوك الفرد في المواقف الجديدة بطريقة لا شعورية.

وليس من شك في أن نمو الناحية الجنسية، يستلزم وجود ما يثيرها، ألا وهو أفراد من الجنس المقابل. وليس من شك في أننا معاشر الشرقيين، في أوساطنا لا تسمح باختلاط الجنسين، ولا نقره خوفا من النتائج الوخيمة التي تنجم عنه، والتي لا يمكن تجاهلها لشدة خطرها على النسل وعلى الأخلاق والدين. فالمبدأ الذي قام عليه موقفنا تجاه الاختلاط مبدأ سليم، وعلى قادة الاجتماع، إيجاد الحل الذي يوفق بين ذلك المبدأ والحقائق السيكولوجية، التي أثبتها العلم، حتى نوفق بين مصلحة الفرد الصحية والنفسية وبين مصلحته الاجتماعية. ولكن مهما يكن هذا من الوجهة الخلقية، فالحقيقة السيكولوجية موجودة لا تتغير، وهي أن الكثيرين من شباننا، الذين لم يتيسر لهم سبيل الاختلاط المشروع، يعتور أخلاقهم نوع من الشذوذ، يظهر بأشكال شتى في معاملاتهم وسلوكهم الاجتماعي. وأظهر هذه الأشكال استنفاد جزء كبير من الطاقة العصبية، التي كان يصح أن تصرف إلى النواحي المنتجة لخيرهم وخير البلاد. وهذا يفسر لحد كبير، انصراف الشبان في مصر، عن الأعمال التي تحتاج جهدا وابتكارا وتفكيرا بالليل والنهار، ذلك لأن تفكيرهم وطاقتهم العصبية مستنفدة في نواح أخرى.

ولا نريد أن نعفي هؤلاء الذين أعطوا أنفسهم الحرية غير المشروعة أيضا، فهؤلاء وإن سلموا من أنواع الشذوذ السابقة، أو بعضها، يقعون في غيرها، فإن علمهم بأن اصطحابهم هذا غير مشروع، له تأثير أيضا على سلوكهم. فاضطرارهم إلى الاختفاء دائما عن أعين الهيئة الاجتماعية، واختلاطهم بمن ليسو على شاكلتهم من الفتيات، واضطرارهم إلى اغتنام الفرص أينما سنحت وحينما تسنح، كل هذا لابد وأن يكون له تأثير في سلوك هؤلاء الشبان من الوجهة الخلقية والسيكولوجية. وكنا نود أن نطيل الشرح

والتفصيل في أمراض شاننا الاجتماعية، لولا ضيق المقام، ونرجو أن تسنح لنا الفرص في المستقبل فنفرد لها بابًا أو مقالًا خاصًا.

وإن الأفراد الذين يؤجلون زواجهم أمدا طويلا، لحين سنوح الفرصة الاقتصادية، يمهدون السبيل لتولد الآراء والميول المضرة بالصحة. فأقل ما في الأمر أن ترتفع قيمة النساء في نظرهم، إلى حد غير طبيعي، فينظرون إليهن كأنهن ملائكة من السماء، أو معبودات مقدسة، لا ترنو إليهن الأعين إلا بكل احترا وتقديس، وأنهن ما خلقن إلا للعبادة والتبجيل. وليس بخاف ما في ذلك من ضرر، فإن تولد مثل تلك المعتقدات عند الفتى، والاسترسال فيها، لابد أن يقف في سبيل نشوء أية علاقة جنسية طبيعية في المستقبل، بينه وبين الجنس الآخر.

وكذلك في حالة البنت، نجد أن الآباء والأمهات، ليضمنوا كف نظرها وتفكيرها في الرجال، يحاولون تشويه سمعتهم وتصويرهم على غير حقيقتهم، فيصورونهم بأنهم مصدر خطر على سمعتها وعفتها وطهارتها، وأنهم ليس حولهم سوى الخطر، والقضاء على مستقبلها.

وغني عن البيان أن الفتاة تتقبل ذلك من غير مناقشة أو تمحيص، فيلقي في روعها حب الابتعاد عنهم، وتكون لنفسها صورة مشوهة عنهم، قد تؤثر في سلوكها معهم، لا قبل الزواج فقط، بل طول حياتها، وبذا تقف حجر عثرة في سبيل قيام الحياة الزوجية السعيدة.

ولقد ذكرنا في فصل (فطام الشباب) أن الفتى والفتاة اللذين لا يستطيع أحدهما التخلص من القيود الوجدانية أو الانفعالية، التي تربطه بأبويه، يكون عرضة لأن تقف هذه القيود حائلا مانعا في سبيل اقترانه بالجنس الآخر، وتكون النتيجة إما أنه يخفق في اقترانه بالجنس الآخر، وإما أن يصر على أن

تعيش زوجه معه في بيت والديه، وهذا أيضا قد يعتبر علامة من علامات النقص في النمو الجسمي، إذ أن النمو الطبيعي يقتضي أن يوجه المرء كل الإخلاص والمحبة نحو زوجه، وأن لا يقسما بين الزوج والأبوين.

ويقترح علماء النفس اتباع طريقة (الإعلاء) للتلخص من ضغط الدافع الجنسي وآثاره لحين توفر الفرصة المشروعة. والإعلاء معناه رفع الدافع الغريزي عن مستواه إلى مستوى يعتبره العرف أعلى وأرقى. ويكون ذلك بتوجيه ميول المرء وآماله نحو أغراض علميه أو فنية أو اجتماعية تشغل ذهنه وتصرفه عن مضايقات الدافع الجنسي، كالاشتغال بالفن أو الأبحاث العلمية أو الاشتراك في الأعمال الخيرية وتكريس نفس المرء ووقته لمساعدة الفقراء إلى غير ذلك على حسب ميول المرء واستعداداته وظروفه. غير أن بعض علماء النفس يرون أن الإعلاء ليس علاجا ناجعا للمشكلة الجنسية، وأنه من المستحيل صرف ذهن المرء عنها صرفا تاما، وعلى الأخص أننا نعيش في عالم تكثر به مثيرات تلك الغريزة.

ولكنهم يسلمون بان الإعلاء قد يكون علاجا جزئيا لا علاجًا تامًا.

وكثيرا ما يكون خضوع المرء للتأثيرات الجنسية أمرا خارجا عن إرادته فكثيرا ما يحدث أن يجد الفتيان أعضاءهم منتصبة حتى قبل البلوغ على غير إرادتهم، كما أن الانتصاب أمر عادي في الصباح لمجرد امتلاء المثانة لا اتهيج جنسي، كما أن بعض الناس يحدث لهم الانتصاب أثناء الأسفار الطويلة بالسيارة مثلا.

والأحلام كذلك أمر آخر خارج عن إرادتنا، ويحدث فيها التهيج الجنسي كأنه حقيقة واقعة. وهي أمر طبيعي لا جرم ولا عار فيه، ويجب أن يفهمه الناشئون على حقيقته.

وهناك غير ما تقدم ظروف تؤدي إلى التهيج الجنسي، وقد تكون غير مقصودة، كالضغط الذي يقع على الأعضاء الجنسية أثناء النوم مثلا، أو بعض أصناف معينة من الطعام أو ركوب الدرجات أو المشروبات الروحية.

وقد يتيسر الإعلاء لفرد من الأفراد بمشقة أقل من فرد آخر تبعا لطرق تربية كل والوسائل التي تعينه على تهذيب النفس وتنظيم الميول. فالناشئ الذي يكون له أبوان يفهمان أهمية التربية الجنسية يكون له عضد عظيم في مواجهة مشاكل الحياة الجنسية. كما أن العائلة المنتظمة التي لا يسودها التهتك أو إدمان الخمر، تكون سياجا للأطفال والفتيان الذين ينشأون فيها.

أما الفتيان الذين ينشأون في عائلة يسودها النزاع والإهمال، فيكون حظهم تعسا لقلة من يهتم بأمرهم من جهة، ولانفتاح الطريق أمامهم للاختلاط بخلان السوء، فضلا عن أن الانغماس في الملاهي وإدمان الشراب لا يساعد على إعلاء ميول الفتى الجنسية، فإن الإعلاء يحتاج إلى حياة منظمة، وعزيمة قوية، وحسن نظام في الطعام والشراب والنوم والنظافة والراحة إلى غير ذلك.

فالغريزة الجنسية وثيقة الاتصال بغرائز المرء الأخرى وأعضائه التناسلية وغير التناسلية. وإدمان الشراب من الأمور التي تجعل الإشراف على الميول الجنسية صعبا. كما أن تجمع الأقذار حول الأعضاء الجنسية يؤدي إلى تهيجها مما قد يؤدي بدوره إلى الرغبة في الرغبة في الاستمناء أو الاختلاط الجنسي. هذا وقد يكون للملابس أثر في استثارة الغريزة الجنسية. ولذا يستحسن أن لا تضغط الملابس على الأعضاء الجنسية أو تؤدي إلى الاحتكاك الكثير بضيقها مثلا.

ويحسن بالناشئين الذين يودون الهيمنة على الغريزة الجنسية بالإعلاء تحاشي الظروف والأشياء المهيجة، والتي توجه الانتباه إلى الأمور الجنسية كالصور المخلة بالآداب وسينما التهتك والرقص والمخدرات إلى غير ذلك.

الحب في دور البلوغ

منذ الطفولة يلاحظ شئ ولو يسير، من الرغبة بين الجنسين، ولو أن هذه الرغبة تكوي في العادة خالية من أية صبغة جنسية ظاهرة للعيان. فكثيرا ما يرى أن بعض الأطفال الضغار يحاولون إظهار براعتهم وتفوقهم في الجري مثلا، أمام بعض البنات، كما أن هؤلاء قد يحاولن اجتذاب التفاتهم بطرق شتى، كالضحك بصوت عال، أو الإتيان بحركات مضحكة وهكذا، غير أن هذه المحاولات ليست ذات قيمة حقيقية، ولا تشغل بال أحدهما بصفة جدية، إلا بعد البلوغ، عندما تأنف البنات من اللعب بالعرائس مثلا، ويأنف الأولاد من ملابس الطفولة، ويبدأون في حلاقة لحاهم. عندئذ يحتمل نشوء الحب بي الجنسين. ولو أن كيفية إظهار ذلك الحب تختلف من عصر لعصر ومن أمة لأمة.

الفرق بين الأفراد المختلفين في الدافع الجنسي

ما دام البحاثة لم يستطيعوا قياس الدوافع الجنسية بعد، فمن الصعب أن نحكم إلى أي حد تختلف فرد عن آخر، من حيث قوة رغبته في الاختلاط الجنسي ومن حيث تغير هذه القوة مع السن، ومن حيث قوتها عند الذكور والإناث إلا أننا نرى من الملاحظة العادية، أنه من السهل إدراك أن البعض لديهم هذا الدافع ضعيف جدا، وهؤلاء قليلون بالنسبة لمجموع الجنس الإنساني، بينما آخرون لديهم ذلك الدافع قوي لدرجة شاذة، وهؤلاء أيضا قليلون، وبين هذه النقيضين توجد البقية، وهم الغالبية العظمى من الأفراد،

ومع أنهم لا تتوفر لديهم كلهم تلك الرغبة بدرجة واحدة، فإنا نستطيع أن نقول إنهم كلهم لديهم على الأقل ما يكفي لاستمرار النوع الإنساني، وإلا لتلاشي الإنسان من عهد بعيد.

وقد يتساءل البعض أي الجنسين أشد رغبة في الاختلاط الجنسي، وعما إذا كان شعور كل منهما يختلف في النوع عن شعور الجنس الآخر. والجواب على ذلك صعب، ما دمنا نعتمد على الملاحظة العادية، فإن الظروف التي يعيش فيها أفراد كل جنس، تختلف تبعا للظروف الاجتماعية والاقتصادية. فالفتيان مثلا ظروفهم الاجتماعية، وتقاليدهم التي يخضعون لها، تختلف عن تلك التي تخضع لها الفتيات مثلًا، ولذا فمن الصعب أن توازن بين الدافعين أو الرغبتين خالصتين، من غير تأثير تلك الظروف والتقاليد. ثم إن الوقت الذي يمضي قبل ظهور الدافع الجنسي بشكله القوي في دور المراهقة، تكون فيه تربية الصبيان مختلفة عن تربية البنات، وهذا طبعا له تأثير في سلوك كل منهما بعد ظهوره.

أحوال الشذوذ

ذكرنا من قبل أنه في السنين الأولى من حياة الطفل يكون الدافع الجنسي غير محدود الغرض، وضعيفا في القوة، فإذا أقيم بينه وبين تحقيق غرضه حائل، فإنه من السهل أن يتحول عن طريقه الأصلي، ويتخذ له مجرى غير طبيعي، فإن الفرد لا يستريح حتى يظفر ذلك الدافح بغرضه الذي خلق من أجله فيأخذ في طرق جميع الأبواب الممكنة، وكثيرا ما يحاول محاولات عمياء، لا تؤدي إلى الغرض المقصود، حتى يهتدي إلى طريقة تبعث على الارتياح، وعندئذ يميل إلى تكرارها حتى تصبح عادة ثانية.

غير أنه توجد طرق كثيرة لإرضاء الميل الجنسي، غير الطريق الطبيعي ولو أنها قد تقرب منه من حيث الارتياح الجثماني الناتج. فهذه الطرق قد يعمد إليها الفرد في أثناءمحاولاته التي ذكرناها، في حالة عدم توفر الطريق الطبيعي وهنا ينشأ الشذوذ في خلق الفرد وتصرفاته لسببين، أولهما أن الطريق غير الطبيعي لا يؤدي إلى الارتياح التام، وثانيهما أن الطريق غير الطبيعي لا يحقق الغرض المقصود من ذلك الميل. وهذا يوضح لنا تمام الوضوح كيفية نشوء طرق الاتصال الجنسي الشاذة وغيرها، مما يؤدي إلى إفساد طبيعة المرء وتكوين عادات غير صالحة، تكون عقبة كأداء في سبيل عودة المرء إلى الطريق الطبيعي الصحي. فمثلا إذا لم يجد المرء من أفراد الجنس الآخر من يساعده على إرضاء ذلك الميل، فإنه قد يعمد إلى أفراد من نوعه هو نفسه إذا توفر نوع شبه بينهم وبين الجنس الآخر، وهذا ما يعمد إليه الكثيرون من المراهقين الذين لا يجدون سبيلا للاختلاط بالجنس الآخر، نظرا لحداثة عهدهم بذلك الدافع، ولقلة خبرتهم في الحياة، ولسهولة غوايتهم، ولجهلهم بالنتائج الخطرة التي تترتب على عملهم، من الوجهة النفسية والصحية والاجتماعية والدينية. ومما تجب ملاحظته هنا، أن البغضاء التي قد يبثها أب جاهل في روع ابنه للفتيات، رغبة منه في المحافظة على أخلاقه، قد تحول نظره عنهن نهائيا، وتضع سدا حائلا بينه وبينهن طول حياته، ولكن ما دام الدافع الجنسي الطبيعي موجودا، فإنه قد يعمد عندئذ إلى أفراد من نوعه، لأن هؤلاء لم يقم بينه وبينهم حائل من البغضاء كالذي ذكرناه. وما يقال عن الذكور يقال كذلك عن الإناث. وهذا هو السبب في أنه كثيرا ما يتصل شخصان من جنس واحد ببعضهما اتصالا شاذا، وتنشأ بينهما بذلك علاقة مستديمة لوقت ما.

كذلك في أحوال شاذة قد تكون محبة والديه شديدة حائلا دون نمو الميل الجنسي، واتجاهه في الطريق الطبيعي، أي نحو أفراد الجنس الآخر، ويظل كذلك ما دام الفرد لم يتخلص من ربق تلك المحبة. كذلك قد تحدث للمرء صدمة عصبية عنيفة تتصل بالمسائل الجنسية فتخيفه منها، أو تبغضه فيها، وبذا يتحول ذلك الميل من الطريق الطبيعي إلى طريق شاذ، وهذا ما قصدناه عندما قلنا قبل الآن، إن تصوير النساء كملائكة من السماء، والرجال كأشرار معتدين، يؤدي إلى ضرر عظيم.

نستخلص الآن عندئذ مما سبق ثلاث نتائج هامة:-

الأولى: ضرورة تحرير الفتى أو الفتاة من حب الأب أو الأم، والاحتياط من أن يكون هذا الحب شديدا، بدرجة تعوق النمو الطبيعي للميول الجنسية.

الثانية: ضرورة إيجاد الفرصة للمحادثة والتفاهم بين الفتيان والفتيان، بحيث يكون سنهم وسنهن متقاربين وأن يكون ذلك في ظروف ملائمة.

الثالثة: وجوب تزويد الفتى المراهق، وكذلك الأطفال قبل حلول دور المراهقة، بالمعلومات اللازمة التي تساعدهم على اتباع الطريقة المثلى لنموهم الصحي والنفسي من الوجهة الجنسية، وتمنعهم من الوقوع في الأخطاء التي ذكرناها.

والآن وقد أدت بنا الأبحاث السابقة إلى تلك النتائج، نرى أنفسنا أمام مشكلة أخرى، ألا وهي العواقب التي تنجم من إباحة اختلاط أفراد الجنسين فإن تمهيد الفرصة لاجتماعهما، ولو أنه يمنع الشذوذ فيما بعد، ويؤدي إلى نمو الميل الجنسي نموا طبيعيا، إلا أنه يخاف أن يؤدي إلى نتائج أسوأ عاقبة من تلك التي تحاشيناها، فإباحة الاختلاط الحر من غير قيد ولا شرط، يهزم النظام الاجتماعي القائم، ويعتبر ثورة على الدين والأخلاق، وهما من أهم ما

تجب المحافظة عليه في تربية المراهقين. إذن نجد أنفسنا بين نارين، فهل من سبيل للخروج منهما من غير أن نتعرض لإحداهما ؟. يلوح لنا أن خير طريق نتبعها هي التبكير بالزواج على قدر الإمكان، ففيه تلاف للأضرار التي تنجم من كبت الدافع الجنسي، وفيه تلاف كذلك للأضرار التي تنجم من الخروج على العرف، والقانون الاجتماعي، ولكن هل تساعد الظروف الاقتصادية على هذا الحل ؟. هذا ما نحار في الإجابة عنه، ونتركه لظروف كل فرد على حدة، على أن لا يكون التبكير قبل نهاية دور المراهقة، أي قبل أن يصل نمو المراهق والمراهقة إلى تمامه سواء أكان ذلك من الوجهة الجسمية أم العقلية. ويلوح لنا أن الضرورة ماسة لذلك عند البنات أكثر من الصبيان نظرا لاضطلاعهن بمهمة الحمل، التي تتطلب منهن اكتمال الأعضاء التناسلية، وتحملهن مشقة لا يستهان بها، فضلا عما تتطلبه من عناية بالنسل والسهر على راحته بالليل والنهار، وذلك مجهود لا شك مضن للأمهات.

ويلوح لنا أن عادة التبكير بالزواج، الناشئة بين أهل الريف، قد أخذت تجد تعضيدا لها من وجهة الصحة العقلية، على أن لا يغالي فيها، فيبكر بزواج الأطفال عند أول شعور لهم بالدافع الجنسي، ولو أن خطر ذلك أقل على القرويات، لقوة بدنهن، ولتعودهن المشاق، كما أن الفتيان من أهل الريف يكتسبون أودهم في سن مبكرة، لأن مهنتهم لا تتطلب إعدادا طويلا، ولذا فهم يأمنون الجانب الاقتصادي. وتلك بلا شك إحدى المواضع التي فشلت فيها المدنية، واضطرت لأن تحبذ العادات القديمة، التي حاولت الاستهزاء بها، والخروج عليها، حتى إذا جاءت بينة الأبحاث الحديثة أظهرت خطر تلك السخرية، وبينت الوهدة التي ينساق إليها العالم المتمدين من تماديه في تأخير سن الزواج أولا، ثم خروجه على القوانين الخلقية والعرف القديم ثانيا.

فالمعروف أن نسبة الأمراض العصبية والشذوذ الخلقي بين أهل المدن، أكبر منها بين أهل الريف، وبين ظهراني الأمم، المتمدينة أكثر منها بين الأمم التي على الفطرة. كما أن الخروج على التقاليد والعرف، واستباحة الاختلاط غير المشروع، فضلا عن الأضرار النفسية التي ذكرناها سابقا، تزيد في انتشار الأمراض التناسلية، وهذه بدورها تؤثر في حالة الفرد النفسية والعقلية، كما تؤثر في جسمه، وتأثيرها قد يستمر مع النسل بالوراثة، وهكذا تنخر في عظام الأمة، إلى أن تؤدي بها إلى الانحطاط. ولولا اشتداد العلم في مكافحة تلك الأمراض من الوجهة الطبية لكانت الحالة أسوأ مما هي عليه الآن بكثير.

وهناك ظاهرة كثيرة الانتشار في المدارس التي لا يجتمع فيها الجنسان، وهي حب غير محدود، يتجه نحو فرد من أفراد نفس الجنس، وقد يصل الأمر إلى الغيرة على ذلك الشخص، والخوف عليه من الاتصال بأي شخص آخر. وقد يكون هذا الحب غير جنسي في طبيعته، أي أنه لا يرمي في غايته إلى الاتصال الجنسي، حتى إنه يشك فيما إذا كان هذا الحب متصلا بالدافع الجنسي، إذ أن أقصى غايته قد لا تتعدى في معظم الأحوال، مجرد التقبيل وتوجيه عبارات المعزة، وربما كان السبب في ذلك كله أنه في ذلك الدور، الذي لم تكتمل فيه خبرة المراهق أو المراهقة، والذي تضرب فيه التقاليد حصارا قويا حولهما، يكون الميل الجنسي حائرا غير محدود، فيتعلق بأقرب فرد تتوفر فيه صفات الجنس الآخر الذي لا تساعد الظروف على الاتصال به.

وهذه الظاهرة شديدة الانتشار في المدارس الثانوية، وعلى الأخص مدارس البنات، ومن مظاهرها هيام الفتاة بمعلمة أو فتاة أخرى أكبر منها سنا، تمتاز في العادة بالتفوق في السلطة، أو القوة، أو الجمال، أو النفوذ في

المدرسة، أو بكل تلك الصفات معا، على شرط أن تكون تلك الفتاة الصغيرة موضع عطف ورعاية منها، وإلا فإن ذلك الميل لا يلبث أن يتجه نحو واحدة أخرى، أو ينقلب إلى كره وحقد وغيرة إذا لم يجد إلى القلب سبيلا.

وقد ينشأ هذا العطف الشديد بين فتاتين، فتعيشان لبعضهما، وتفكر الواحدة في الأخرى طول وقتها، وتتصورها في أحلام اليقظة، التي تسود المراهقين والمراهقات، وتشغل وقتا لا يستهان به من حياتهما وهذه الظاهرة تشاهد على الأخص في المدارس التي لا يجتمع فيها الجنسان، أي التي تكون للبنات خاصة، أو للذكور خاصة، كما قدمنا، وتقل في المدارس التي يجتمع فيها الجنسان، إذ في تلك الحالة تتجه الميول والعواطف نحو أفراد الجنس المقابل.

وليس هناك من ينكر أن نشوء الحب، بأي شكل كان في دور المراهقة، يضع الآباء والمربين أمام مشكلة يصعب عليهم حلها. ولكنا نجد من الوجهة السيكولوجية، أن الحب الذي ينشأ بين أفراد الجنس الواحد، أو بين أفراد من سنين متباينين هو المشكلة، لأنه غير طبيعي، بينما الحب الذي ينشأ بين أفراد من جنسين مختلفين طبيعي من الوجهة السيكولوجية، والمشكلة تنشأ من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

وقد شوهد أن ذلك النوع من الحب الشاذ الذي ذكرناه، يأتي عليه وقت يتلاشى فيه، وتتجه ميول الفرد بعد ذلك إلى مجراها الطبيعي الأصلي، أي نحو أفراد الجنس الآخر، هذا إذا كان الشخص الذي هو موضوع الحب حكيما رزينا، خاليا من الأغراض السيئة، إذ يمكنه في تلك الحالة أن يتحاشى تشجيع هذا النوع الفاسد من الحب وعدم استغلاله لمصلحته.

هذا النوع من الحب كثيرا ما يوجه نحو المعلمات من الفتيات اللاتي بالمدرسة، وقد يؤدي انتشاره إلى فساد خلق المدرسة بأجمعها، وقد يتفشى الأمر في بعض الأحيان لدرجة تضطر أولياء الأمور إلى الاستغناء عن المدرسة، أو نقلها. أما عن العلاج فليس هناك من سبيل لقاعدة عامة تنطبق على جميع الحالات، بل كل حالة تحتاج إلى علاج خاص، تبعا للظروف التي تحيط بها. غير أننا يمكننا أن نقول بوجه عام إن خير سياسة تتبع هي البعد عن التخيلات والأوهام، وعدم إعطاء مجال للعاطفة، فمثلا إذا أتت الفتاة بهدية لحبيبتها، سواء أكانت تلميذة أم مدرسة، فقد يكون من الحكمة أن تتقبلها وتوزعها على الجميع إذا كان ذلك ممكنا، كصندوق من الحلوى مثلا، أو أن تصنعها في الفصل لاستعمال المدرسة بوجه عام إذا كانت باقة من الزهور، وبعبارة أخرى تتجاهل وجود العاطفة، وتعتبر الهدية موجهة إلى المجموعة كلها لا إلى شخصها. هذا الموقف العملي يأتي في العادة بنتيجة مرضية، إلا أنه في الحالات الشديدة ليس هناك من علاج سوى فصل الطرفين عن بعضهما لمدة طويلة، وعندئذ تبلى العاطفة رويدا رويدا.

وكثيرًا ما يشفى الفرد من ذلك الحب بإيجاد المثير الطبيعي للميول الجنسية وعاطفة الحب، ألا وهو أفراد من الجنس المقابل، بشرط ألا يزيدوا كثيرا أو يقلوا كثيرا في العمر.

وقد يختلط هذا النوع من الحب بالصداقة العادية. غير أنه يلاحظ أن الصداقة في العادة لا تحدوها تأثرات وجدانية شديدة من الطرفين، كما أن الأصدقاء في العادة يكونون من أعمار متقاربة، ويحتفظ كل منهما باستقلاله، ولا يحصل لأحدهما اضطراب أو انفعال إذا ابتعد عنه الآخر. كذلك الصداقة لا تحدوها الغيرة، فقد يتصادق شخص مع آخر له عشرات من الأصدقاء

الآخرين، ويتوفر بين الجميع معنى الصداقة والإخلاص، من غير أن يحاول أحدهم الاستئثار بالصديق لنفسه دون الجميع، بينما ذلك النوع الفاسد من الحب ينشأ عادة بين شخصين اثنين ولا يحتمل ثالثا لهما.

وهناك أنواع أخرى من الشذوذ تأتي عن طريق الترابط، فمثلا إذا اقترن شئ ما، جمادا كان أو فكرة أو كلمة، في ذهن الفرد بلذة جنسية، ولو لم يكن من مثيرات تلك اللذة، نجد أنه بعد تكرار الاقتران بينما عدة مرات، يقوم ذلك الشئ مقام المثير الأصلي لها، ثم لا يلبث أن يكتشف الفرد تلك العلاقة فلا يتأخر عن أن يعمد إلى ذلك الشئ لاستثارة تلك اللذة نظرا لاقترانه بها، إذا ما غاب أو تعذر الحصول على المثير الأصلي، ألا وهو فرد من أفراد الجنس المقابل.

وبهذه الطريقة نشأت العادة السرية، إذ أن الفتى قد يكتشف عن طريق الصدفة، في أول الأمر، أن اللعب بأعضائه التناسلية يثير في نفسه ارتياحا، فيقترن في ذهنه هذا العمل بالارتياح الناشئ منه، فإذا ما تعذر عليه في يوم ما الحصول على المثير الأصلي، عمد إلى تلك العملية.

ومن أمثلة المثيرات التي من هذا القبيل الصور المخلة بالآداب. والخطر ينشأ عادة من ثبوت تلك العادة وتغلغلها في نفس الفتى وهو صغير، فيصعب عليه التخلص منها وهو كبير، وعندئذ يجد كل من العالم السيكولوجي والمربي نفسهما حائرين أمام تلك العادة، التي تأصلت واتخذت مكانا منيعا في نفس الفتى، والتي لابد للتخلص منها من غلاج طويل مرير، إذ أن ذلك العلاج يقتضي حل العقدة التي تكونت، واستعادة المواقف التي تكونت فيها، ومحاولة إرجاع السلوك إلى المجاري الطبيعية، التي انحرفت عنها في أول الأمر، وهذه من أشق المهمات في العلاج، فضلا عن أنها كثيرا ما تفشل وتعجز عن استئصال تلك العادة.

وخير من ذلك الاحتياط لمنع نشوئها في أول الأمر، تبعا للقوانين التي ذكرناها، وهذا لا يتوفر إلا إذا كان الآباء على علم بها، فضلا عن ضرورة استعمالهم للحكمة والكياسة في تربية الفتى الناشئ.

ويجمل بنا قبل اختتام ذلك الفصل، أن نورد بضعة أمثلة لحالات نمو بعض الأفراد، نستدل منها على النمو الجنسي الطبيعي، والنمو الشاذ، حتى تتضح المبادئ التي أوردناها.

الحالة الأولى، لشاب سنه ست وعشرون سنة، نرمز إليه بالحرف (و). كان عند بحث حالته نزيل السجن في أمريكا، لجريمة الاتصال الجنسي الشاذ. وكان أبوه عندئذ في الخمسين من عمره، وأمه في الخامسة والأربعين. وكان أبوه شديدا حاد الطبع، يخافه أولاده، ولكنه كان سكيرا كثير الإدمان. أما الأم فكانت عصبية شديدة الانفعالات. أما الشاب ذاته فدون المتوسط في الوزن والطول، ضعيف البنية، صوته ناعم، ومشيته بها تخنث.

وكانت أمه تقول له في صغره، إنها كانت تود لو رزقت ببنت بدلا عنه، إلا أنها، مع ذلك، كانت تحبه وتعطف عليه كثيرا، فتوثقت المحبة بينه وبينها، ولاسيما أن والده كان شديدا عليه.

ولم يستطع في طفولته أن يفهم الرجال، وكان يشعر بالراحة في مجلس النساء والبنات، فكان يمضي أغلب وقته في اللعب مع البنات، وكثيرا ما كان يشتغل بالتطريز والحياكة. وكان يشعر بالحياء الشديد في وجود الصبيان، ولم يجرؤ على السباحة معهم، إذ كان يعلوه الحياء عند خلع ملابسه أمامهم، ولقد التحق هذا الشاب، عدة مرات بمخيمات لقطع الأخشاب في الغابات، رغبة منه في (الاسترجال) ولكنه كان لا يزال وقت البحث متخنثا. ومع أنه في طفولته كان يلبس ملابس البنين، إلا أنه لم يكن يتردد في لبس ملابس البنات عند سنوح الفرصة.

وقد قال إنه كان يتلذذ كثيرا لمشاهدة الرجال الأقوياء وأبطال الرياضة البدنية، ولكنه لم يجد، يوما ما، لذة جنسية في مصاحبة الإناث، مع أنه كان يرتاح إلى مجتمعاتهم وحديثهم.

وكانت أول مرة أتى فيها فعلا جنسيا، في سن الثامنة، وكان اتصالا شاذا مع ذكر آخر، اتخذ هو الدور السلبي فيه، وقد حكم عليه بالسجن للإتصال الجنسي الشاذ.

الحالة الثانية لفتاة في سن السابعة عشرة، نرمز إليها بالحرف (س)، كان أبوها طباخا، هجر أسرته حين كان عمر البنت ستة أشهر، فتزوجت أمها من فلاح. ولا تحب هذه الفتاة أمها، رغم عطف أمها عليها ورغبتها في أن تراها سعيدة. وكانت تلك الفتاة في طفولتها تلعب أغلب وقتها مع الصبيان، ولم تذكر أنها لعبت بالعرائس أكثر من مرة واحدة في حياتها. وقالت إنها تغرم بالألعاب الرياضية، كالتنس، وكرة السلة. وكانت في المدرسة زعيمة إحدى الفرق الرياضية.

وكانت في المدرسة تنزعم البنات دائما، وقد قالت إنها كانت تحس بشعور جنسي غريب حين كانت البنات تكتبن اسمها على سيقانهن. وقالت أيضا إنها كانت تتضايق من صحبة الصبيان، لأنها كانت قائمة على علاقات جنسية، ولذا لم تصاحبهم كثيرا، وقالت كذلك إنها لما كبرت ودت لو كانت ولدا.

وقد هربت تلك الفتاة من بيتها، فقبض عليها، ثم أفرج عنها، ووضعت تحت المراقبة، فهربت، حتى قبض عليها بتهمة إتيان فعل جنسي شاذ، ثم أفرج عنها مرة ثانية، ووضعت تحت مراقبة أمها، فهربت، ولكنها قبض عليها مرة أخرى، ووضعت في الإصلاحية.

ويدل تاريخ حياتها على أنها في علاقاتها الجنسية، مع البنات، تلعب الدور الإيجابي. كما أنها كانت مغرمة بالألعاب الرياضية، والأعمال اليدوية العنيفة، والمجازفات وركوب الأخطار.

الحالة الثالثة لسيدة متزوجة نرمز إليها بالحرف (ت) بلغ عمرها وقت إجراء البحث سبعا وعشرين سنة. وكانت قد تزوجت في سن الثالثة والعشرين من رجل في نفس السن. وكان لها، وقت إجراء البحث، طفل يبلغ عمره ستة أشهر. وكانت تستعمل الوسائل الصناعية لتقييد النسل. أما حياتها مع زوجها فكانت سعيدة، وصحتها جيدة على وجه الإجمال.

وقد ذكرت هذه السيدة، أنها بدأت العادة السرية، في سن الثالثة عشرة، بالإشتراك مع فتاة أخرى، في نفس السن، بمعدل مرة أو مرتين في الأسبوع، في أول الأمر، ثم أخذ عدد المرات يقل، حتى خطبت صاحبتها، فأخذت تزاولها على حدة، حتى بعد زواجها، إلى ولادة طفلها، وكانت تزاولها بوجه خاص، عندما كانت تساورها الكآبة. ولكنها كانت تندم وتأسف بعد إتيانها، غير أن لذتها منها كانت دائما تفوق لذة الجماع الحقيقي. ولكنها أخيرا انصرفت عن إتيانها، مكتفية بعلاقاتها الجنسية الزوجية.

نرى في تلك الحالات المذكورة، أمثلة للشذوذ الذي يعتور الغريزة الجنسية. ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة، أن الطرق السلبيه، أي الزجر والنهي، لا تفيد إلا قليلا في مثل هذه الظروف. والواجب اتباع طرق إيجابية أي محاولة توجيه المرء نحو المثير الطبيعي، فذلك أنجع من النهي عن المثير غير الطبيعي.

الفصل الثامن

التربية الجنسية

يفرق الآباء والمعلمون، عادة، بين ما يعتقدونه عن الأمور الجنسية، وبين ما يجب أن يعتقده الطفل. فهم يعرفون الشئ الكثير عنها، ويضنون، ولو بالقليل منه على الطفل، مع أنه إذا كان سيصل في يوم من الأيام، إلى مرتبة الرجولة، فإنه لابد حاصل على تلك المعلومات، بنفس الطريقة التي حصل بها أبواه ومعلموه. على أن موقف الآباء والمعلمين هذا، ليس صادرا عن عقيدة عما يجب أن يعرفه الطفل، وما لا يجب أن يعرفه، وإنما هم في الحقيقة يرزحون في أفكارهم ومعتقداتهم تحت ضغط التقاليد، التي نشأوا عليها، والتي لا تستطيع عقولهم ونفوسهم أن تتحرر من ربقها. أما حججهم فليست إلا وسيلة لتبرير موقفهم، وإقناع أنفسهم بأنهم يتبعون ما هو صالح. وكثيرا ما يتخذ الإنسان له رأيا أو عقيدة تحت تأثير مؤثرات خاصة، ثم يسعى لتبريرها أمام نفسه، وأمام غيره، ليظهر بمظهر منطقي معقول.

هذه هي الطريقة التي تحصل بها معظم تقاليدنا، وعاداتنا الاجتماعية والفكرية والدينية، لأننا ننشأ في وسطها ونتقبلها، إما عن طريق العادة، أو عن طريق الإيحاء، ونحن صغار، قبل أن نستطيع أن ننقدها أو نتبين الغث فيها من السمين، حتى إذا وقفنا موقف الجدل والمناقشة، تلمسنا الأعذار والراهين، وكلنا يعرف تمام المعرفة أن تلك الأعذار والراهين لاحقة لا سابقة لتقبلنا تلك الآراء التي ندين بها.

كذلك في المسائل الجنسية، نشأنا واعتدنا أن نكتمها، وأن لا نتكلم فيها صراحة، وإذا فعلنا شعرنا في نفسنا باحتقار، أو بشعور انتهاك لحرمة التقاليد والاحترام الواجب علينا لأنفسنا، ولكنا لو سألنا أنفسنا صراحة عن السبب في موقفنا هذا، لحرنا في أول الأمر، ثم جعلنا نتلمس الأسباب نبرر بها موقفنا. هذا هو السبب الذي من جله يرى الكثيرون عيبا وعارا في التكلم مع الأطفال، في بعض المسائل الجنسية.

ويفضلون أن يروا الأضرار الناتجة من ذلك الصمت والتكتم، تفتك بأطفالهم وشبانهم، وأن يروهم يستقون معلوماتهم من الكتب الرخيصة، وإخوانهم من الشباب، أو من الكبار ذوي الأغراض الفاسدة، على أن يفاتحوهم في أمر من الأمور التي عودتهم التقاليد أن يتحاشوها يعتبروها سرا مكتوما، إلى أن تبيح لهم الفرصة اجتلاء غامضها.

إن الشبان، وعلى الأخص في دور المراهقة، تتفشى بينهم كثير من العادات الخلقية الضارة، كالعادة السرية وغيرها. وكثير من الآباء يعلمون ذلك حق العلم، ويرون وجوب اتخاذ خطوات لمنع الفتيان من التدهور، ولكنهم لا يجسرون على مخاطبتهم، ولا يجدون من أنفسهم الشجاعة على كسر حرمة التقاليد، فيتركونهم فريسة لتلك العادات الضارة أو للأمراض التناسلية، التي يصابون بها من جراء جهلهم بها وبطبيعتها.

إن ذلك الشعور بأن هناك عارا يقترن بالمسائل الجنسية، ليس إلا وليد خيالنا وتقاليدنا، فهو منا ويتحكم فينا ومضر بنا وبأطفالنا، وليست هناك أية ضرورة حقيقية تمنعنا من أن نتخلص منه، ومن أضراره التي يحملها بين طياته. إن الأصل في اتخاذ ذلك الموقف حيال المسائل الجنسية، لم يكن إلا رادعا للنشء عن أن يوجهوا أفكارهم نحوها، في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى

الأهتمام بمسائل كثيرة أخرى. ولكن ثبت لدى الكثيرين منا أن هذا التكتم لا يؤدي إلى الغرض المطلوب، فهو لا تمنع الأطفال والفتيان والفتيات من الخوض فيه، أو الاهتمام به. وإن من يظن أن الأطفال الآن، سواء بالمدارس الابتدائية والثانوية أم بالمصانع، أو الخدم، أو غيرهم، لا يعرفون شيئا عن تلك المسائل، أو لا يخوضون فيها مع بعضهم، يخدع نفسه. بل إن النهي عن الكلام فيها ليس له سوى نتيجة محققة، وهي امتناع هؤلاء من الكلام فيها مع الكبار من أهلهم او معلميهم، وبدلًا من أن يوجهوا إليهم أسئلتهم مباشرة فإنهم يلجأون إلى الكُتب الرخيصة، أو إلى الأطفال أمثالهم أو إلى الخدم الذين بمنازلهم أو إلى غيرهم من الكبار الذين يتطوعون للإجابة عن أسئلتهم وإطفاء ظمأ حب الاستطلاع عندهم؛ أي أننا لم نمنع التيار ولم نوقفه، بل بوقوفنا في سبيله جعلناه يفيض ويطغى على غير مجراه الطبيعي، وكان الأولى بنا أن نتركه يجري في مجراه الطبيعي، ونتعهده بالرقابة والعناية تحت أعيننا، حتى لا يحصل منه ضرر إذا أفلت من إرشادنا ورقابتنا.

على أن الامتناع عن إجابة الأطفال عن أسئلتهم، يشعرهم بأن هناك سرا يحاول آباؤهم أو أمهاتهم كتمانه عنهم، فيزيدهم هذا رغبة في الاستطلاع، وأحب شئ إلى الإنسان ما منع. كما أن رفض إجابتهم إلى ما يطلبون يترك في نفوسهم أثرا ولو طفيفا من البغضاء، نظرا لشدة رغبتهم في الاستطلاع، وعلى الأخص إذا رفض طلبهم في شئ من العنف محاولة إسكاتهم والتخلص من ثرثرتهم.

كما أن الكذب عليهم للتخلص من المأزق له أثر خلقي سيئ، إذ يعطيهم نموذجا للكذب، فيستخفون بكل النصائح التي تعطي لهم عن فضيلة الصدق بعد ذلك، ما داموا يرون آباءهم ومعلميهم، وهم المثل الأعلى لديهم،

يضربون لهم المثل في الكذب. هذا فضلا عن أنهم سيجدون الحقيقة عاجلا أو آجلا فكأننا لم نستفد من الكذب سوى الإضرار بهم خلقيا، وسوى هدم النصائح التي نسديها إليهم.

يعارض كثير من الآباء التربية الجنسية على أساس أنها تتلف أخلاق أبنائهم وبناتهم، وتوجه أنظارهم إلى أشياء لم تكن تخطر لهم على بال قبل أن يفاتحوهم فيها. غير أن الأبحاث قد دلت على أنه ما من طفل إلا ولديه بعض المعلومات عن الأمور الجنسية، وعلى الأخص عندما يبلغ دور المراهقة وما بعدها، وكثيرا ما يتعلم أشياء عن الأمور الجنسية قبل ذلك، إذ قد لوحظ، أنه حتى قبل السادسة من العمر، يبدأ الطفل في توجيه أسئلة، إن لم تنتم إلى المسائل الجنسية مباشرة، فهي ذات علاقة بها بطريق غير مباشر. إذن لا مناص من أن تصل تلك المعلومات إلى عقل الطفل مهما كان المصدر الذي تستقي منه.

وإذا كان الآباء يودون أن يعودوا أبناءهم ضبط النفس، والعادات الحسنة، والسلوك المحمود، فخير لهم أن يزودوهم بالمعلومات الصحيحة المستمدة من علم النفس وعلم الصحة، بدلا من التخويف والترهيب والتهديد، ووصف أعمالهم ودوافعهم الجنسية بأنها إثم منكر وشر، إذ أن هذه في الغالب لا تحدث التأثير المطلوب إلا في أول الأمر، ثم لا تلبث آثار الإرهاب والخوف أن تزول، ويظل الطفل غير مقتنع بالأسباب التي تدعو إلى سلوك طريق معين. ولكن إذا زودناه بالمعلومات اللازمة، أمكنه أن يستفيد منها في ضبط نفسه، وكح جماح ميوله الجنسية، وسلوك الطريق الذي لا يؤدي به في النهاية إلى الضرر، سواء أكان من الوجهة الطبية، أم النفسية، أم الخلقية أم الاقتصادية.

حقيقة إن تلقين المعلومات في المسائل الخلقية كثيرا ما يكون قليل النفع، وإن غرس العادات الصحية أجدى وأنفع في توجيه سلوك المرء، غير أننا يجب أن لا ننسى أن غرس تلك العادات يجب أن يسبقه اقتناع المرء بضرورة ذلك الغرس، حتى يفتح لها صدره، وحتى تستطيع التغلغل في نفسه، والتأثير في سلوكه. فمثلا يمكننا أن نقنع الفتى بأن انغماسه في المسائل الجنسية وهو صغير يؤثر في مركزه الاقتصادي وهو كبير، وأنه خير له أن ينصرف إلى المذاكرة والدرس والتحصيل، أو إلى الإجتهاد في عمله، حتى يجني لنفسه مركزا ثابتا، وبعدئذ يستطيع أن يتزوج ويكون أسرة سعيدة.

وفي مثل تلك الحالات التي نريد أن نصرف فيها فردا عن غرض أمامه يبغي تحقيقه، يجب علينا أن نزوده بمجال آخر يشغل باله وتفكيره. ومن أهم تلك المحاولات الألعاب الرياضية، التي لها آثار حميدة في تربية الشبان، من حيث أنها تشغلهم عن التفكير في الأمور الجنسية، وتعطيهم مجالا لصرف ما لديهم من طاقة أو نشاط، فضلا عن تأثيرها الصالح في أجسامهم، وذلك أفضل بكثير من الإكثار من النهي، فهو قليل الفائدة في مثل تلك الأحوال.

أما إذا أردنا أن ننقذ الناشئين من العلاقات الجنسية غير المشروعة، فقد يكفيهم أن نشرح لهم شيئا عن الأمراض التناسلية، وأن نزودهم بإحصاءات تبين سعة انتشارها، ثم نبين لهم ضررها في صحة المرء وخلقه، فضلا عن أنها قد تحول بين المرء والزواج، أو تجعل الحياة الزوجية تعسة، وبذا تجعله يفقد أمله الأسمى في الحياة من أجل لذة وقتية.

بهذه الطريقة يمكننا أن نوجد التوازن في نفس الناشئين بين القوة الدافعة للغريزة الجنسية، وبين مصلحتهم الاقتصادية والصحية، وكذلك بين رغبتهم الوقتية، وأملهم البعيد.

تلك الطريقة التي ذكرناها، أي طريقة جعل التربية الجنسية على أساس الإقناع، وعلى أساس التزويد بالمعلومات الصحيحة، وعلى أساس غرس العادات الحسنة، تفضل الطريقة الأخرى، طريقة الإرهاب والوعيد، في أنها لا تصور الغريزة الجنسية بذلك الشكل المنحط الدنئ المعروف، ولا تقرن الجنس المقابل بتلك المخاوف والأوصاف المزرية، التي يلجأ إليها الآباء في كثير من الأحيان لنهي أبنائهم وبناتهم عن الاتصال في ظروف لا تكون مناسبة بعد. إذ ليس من المعقول أن يقتنع الفتى أو الفتاة بأن الدافع الجنسي شر ووبال، بينما هما يريان والديهما قد خضعا لأحكامه، من غير أن تحل بهما النقمة والهلاك المزعوم. ثم إذا فرض جدلًا وأفلحنا بكثرة الإرهاب والتخويف، في أن تحل الغريزة الجنسية ذلك المحل الفاسد من نفس المراهق أو المراهقة، وليس هذا بالأمر السهل فهو لا يحدث إلا في أحوال الشذوذ، فإن لذلك أضرارًا جسمية أيضًا، لأن تلك الفكرة قد تقف سدا حائلا منيعا بينهما وبين أفراد الجنس الآخر، إذا ما أتى الوقت المناسب لاجتماعهما المشروع، كالزواج مثلا. فلن نضمن في مثل تلك الحالات أن الكراهية، التي بذلنا قصارى جهدنا في أن تتغلغل في نفسهما، سوف تزول بكلمة واحدة في مزايا الزواج، ومحاسن الجنس الآخر.

إن معنى تغلغل تلك الكراهية في نفس الفتى أو الفتاة، هو اقتران الجنس الآخر، وكل ما يتعلق به، بانفعال الخوف. وإذا كنا قد أفلحنا في جعل الصلة بين ذلك الجنس الآخر وذلك الانفعال متينة، خرجت المسألة من حيز الإقناع بالحجة، إلى حيز اللاشعور حيث لا حجة ولا إقناع، وإنما دوافع خفية لا نعرف مصدرها، تكون جزءا لا يتجزأ من نفس الفرد، وتصبح عقدا لا تجدي كلمة أو محاضرة في محوها، لأنها أخذت سنين عديدة في نموها

وتمكنها من نفس الفرد. فهل من المستطاع أن ذلك الكره والخوف من الجنس المقابل، الذي افترضنا نجاحا في غرسه، وتعهدناه من الصغر، ينقلب فجأة إلى حب وهيام ؟ طبعا لا، وهذا ما نقصده من قولنا إن التخويف والإرهاب قد يقف سدا حائلا منيعا بين الفتى أو الفتاة والسعادة الزوجية.

وفي كثير من الأحيان قد يؤدي هذان الموقفان المتضاربان إلى اضطرابات عصبية، كما ينبئنا الأطباء الذين يعهد إليهم علاج تلك الاضرابات

أما الآباء الذين يفضلون الصمت على الخوض في المشكلة، فهم يتبعون سياسة الإهمال وترك الأمور على عواهنها، وانتظار نتائجها، من غير أن يحركوا ساكنا لتحويل مجراها.

ورغبة في طمأنة من يعارضون التربية الجنسية، نقول إنها لا يقصد منها مجرد الخوض في المسائل الجنسية وترديد قصص عنها، وإنما دراستها دراسة علمية مبنية على الأبحاث التي وصل إليها الأطباء وعلماء النفس والاجتماع. وإذا كنا ندرس شيئا في المدارس عن الصحة والأمراض التي تنتاب العيون أو الرأس أو القلب، أو عن البلهارسيا والانكلستوما، فلم لا يندرس شيئا عن الأمراض التناسلية أيضا ؟ ألسنا معرضين لها كغيرها من الأمراض؟ ثم أليس من المعقول أن دراستها تفيدنا في إتقائها؟ ليست من شك في أن الكثيرين من المراهقين لا يعلمون عنها شيئا وإن بعضهم قد يغشون بيوت الفساد غير عالمين بالأمراض التي تنتظرهم هنالك.

إن الكثيرين من الشبان الذين يصابون بالأمراض التناسلية ليصرفون وقتا طويلا لا يعلمون ما أصابهم فبعضهم يظن أن ما أصابهم يرد لا يلبث أن يزول، وآخرون يحاولون علاج أنفسهم بأدوية يصفها لهم إخوانهم، ويفضلون الصمت على الإباحة لأهلهم أو للطبيب ولكن الشبان الذين يكونون قد

درسوا تلك الأمراض لا يلبثون أن يتخذوا الخطوات الصحيحة عندما يشكون في أمر إصابتهم بعرض أنفسهم على الطبيب. ولقد علمت أن بعض الشبان يحاولون الاحتياط من الامراض التناسلية باستعمال محاليل كيماوية لم صفها الطبيب، فتصيبهم منها التهابات شديدة تستدعي العلاج أيضا. وما كان أغناهم عن كل هذا لو أتيحت لهم الفرصة لمعرفة طرق الوقاية الصحيحة.

وقد انقسمت الآراء في صدد الطريقة التي توصل بها المعلومات الجنسية إلى ذهن الطفل أو الفتى، فمنها ما يقول بوجوب عمل مقدمة يمكن بوساطتها تقريب الموضوع إلى ذهن الناشئ، والتلميح في الفرص المناسبة بما يراد، وبعبارة أخرى إيصال المعلومات إلى الذهن بطريقة غير مباشرة، كأن يشرح الفرق بين المذكر والمؤنث في النبات أولا، ثم في الحيوانات المختلفة، ثم طريقة التذكير في كل من النبات والحيوان، حتى إذا جاءت مناسبة لشئ يخص الإنسان أشير إليها من طرف خفي أولا، ولا يلجأ إلى الطريقة المباشرة إلا بعد مقدمات طويلة.

أما الرأي الآخر فيقول إن الالتجاء إلى تلك المقدمات ليس إلا جبنا، نتيجة التكتم والشعور بالعار الذي ألصقناه بتلك المسائل، واعتبارها موضوعا دنيئا لا يجب الخوض فيه. ويرى أنصار هذا الرأي، ومنهم برتراند رسل Bertrand Russell الفيلسوف الإنكليزي، أن هذه الأمور لا تحتاج إلى مقدمة، بل يجب أن نعلم النشء رأسا من غير لف أو تحايل، ويقول إن الأبوين إذا لم يجدا في نفسهما الشجاعة الكافية للقيام بتلك المهمة، فعليهما أن يعهدا بها إلى شخص آخر يكون أقل خوفا وخضوعا للتقاليد العمياء، ويكون ثقلها أقل ضغطا على عقليته. وهو لا يرى في تلك الصراحة ضررا، لأن الأطفال الصغار قبل سن المراهقة لا يرون في الأمور الجنسية شيئا

غير عادي يميزها عن غيرها من الحقائق الفسيولوجية. ثم إن الأطفال إذا شبوا على تلك الصراحة قبل البلوغ، سهل تعليمهم بعده، إذ يكونون قد تعودوا الكلام عن الأمور الجنسية من غير شعور بالإثم أو العار.

وقد أجمعت جمهرة المربين على ضرورة جعل المعلومات التي يزود بها الطفل عن الأمور الجنسية واضحة محدودة جلية، وأن لا يترك منها شئ غامضا غير مفهوم. فالأعضاء الجنسية مثلا، يجب أن يفهم الناشئ أن نموها شئ طبيعي، وأن يزال قلقه وخوفه من رؤيته للتطورات التي تحدث بها وعلى الأخص عند حلول البلوغ.

إذ أن الكثيرين من تلك التطورات كوجود المنى أو الحيض، كثيرا ما يثير في نفس الناشئ قلقا، ويخلق هموما تساوره بضعة أيام إلى أن يزال قلقه بطريقة ما. ولكن تلك الهموم تزداد إذا لم يجد من يصارحه القول ويهدئ من روعه، وعلى الأخص بين العائلات المحافظة. وأسماء تلك الأعضاء ووظائفها، يحسن أن تشرح في شئ من البساطة والاختصار، مع تحاشي الإفاضة في الوصف والزيادة عن الحد الضروري، فلا بأس مثلا من بيان أثرها في تخليد النوع، من غير تعليق زائد عن الحاجة.

على أن تلك المعلومات يجب أن تعطى بشكل حقائق علمية. مجردة عن أي انفعال يصحبها، سرورا كان أو اشمئزازا، وبغير أن تحاط بجو مسمم من الإبهام والكتمان، بل تعطي بنفس الصوت والأسلوب والصيغة التي تعطى بها الحقائق العلمية الأخرى.

وكذلك أسئلة الطفل يجب أن تجاب بنفس الصيغة وبنفس الطريقة. ومن المستحسن عندئذ أن تكون الإجابة على قدر السؤال لا أكثر ولا أقل، بحيث تكفي لإطفاء رغبة الطفل في حب الاستطلاع ولا تزيد عن ذلك.

وإن الأبوين الحكيمين ليستطيعان أن يزودا أبناءهما وبناتهما بالمعلومات اللازمة، بطريقة ملائمة، من غير أن تنجم عنها أضرار ما، وذلك بانتهاز الفرص الملائمة لبث ما يريدان. فيستطيع أحدهما حسب الظروف أن يتكلم عن الأعضاء الجنسية وإفرازاتها، إذا ما حضرت المناسبة، إذ أن تلك الإفرازات تكون مصدر قلق للفتيان والفتيات في أول عهد البلوغ، لأنها جديدة عليهم، فبعضهم يظنها نتيجة أمراض، والبعض يخجل من التلوث بها، ولا يجرؤ على مفاتحة أحد من عائلته عنها في الصباح، وقد يحاول البعض عدم النوم رغبة في مقاومتها أثناء الليل، ويحتقر نفسه لوجودها، ويتستر عليها. ولكن لو أخبره أحد أنها شئ طبيعي، وأفهمه أن ذلك هو بدء ظهورها، لخفت آلامه وأحزانه. ولكن ما دام الآباء والأمهات يتخذون ذلك الموقف الصامت نحوها، فستظل تلك السنة جارية إلى أن يتغير الموقف.

ونرى أن الأفضل مواجهة الموقف في شئ ولو قليل من الصراحة والتفكير المستقيم، فلذلك فوائد كثيرة. فمن الوجهة الطبية الصحية، نستطيع أن نعين الفتى والفتاة على العناية بصحتهما وأعضائهما عند حدوث تلك التغيرات، وعلى الأخص في حالة الفتيات اللاتي قد يكون الحيض لديهن مصحوبا بآلام مبرحة. أما من الوجهة النفسية، فإزالة القلق والخوف لا شك يقضي على كثير من آلام الناشئ، ويعفيه من صرف الطاقة في هذه الناحية، فضلا عن أن اقتران المسائل الجنسية في أول عهده بنموها بالخوف، قد يسبب له عقدا نفسية تلازمه بقية حياته.

وإن مُصارحة الناشئين تعطينا فرصة لإفادتهم عما يختص بالأحكام الدينية المتعلقة بتلك الأعضاء والإفرازات، كالطهارة والغسل والصلاة والصوم إلى غير ذلك. ولا يتطرقن إلى ذهننا أن الفتى أو الفتاة إذا لم يجدا الناصح

المرشد في أبويهما ومعلميهما، سيسكتان على قلقهما وحيرتهما، بل لابد أن يدفعها خوفهما إلى استشارة أصحابهما الذين يستطيعون أن يصارحوهما أكثر من مصارحة أبويهما. ولن نستطيع أن نجزم بأن هؤلاء سيزودونهما بالمعلومات الصحيحة دائما.

ولقد رأيت فتية يحض بعضهم بعضا على الإقلال من الطعام، وتحاشي ألوان خاصة منه، رغبة في الإقلال من تلك الإفرازات والتخلص مما يصاحبها من التلوث واحتقار النفس. كذلك رأيت فتى إذا ما شعر بشئ منها أثناء الليل بقي بقية ليله متيقظا، لا يقرب الكرى أجفانه، يفكر فيما أصابه، ويخاف طلوع الصبح عندما تكتشف فعلته.

وآخر إذا أتاه شئ منها قام لفوره أثناء الليل البهيم، منتهزا نوم أهل المنزل وغفلة الرقباء، في ليالي الشتاء الباردة يغتسل منها بالماء البارد، ولا يخفي ما في ذلك من الضرر البالغ بصحته. فواجب الأبوين إزاء هؤلاء الفتيان أن يطرقوا تلك المواضيع في شئ من اللطف والصراحة البسيطة، وأن يفهماهم أن تلك الأمور تحصل لهم ولكل الفتيان والفتيات، كما يجب أن يقضي على فكرة الإقلال من الطعام، وإلا اعتلت صحتهم في وقت هم أحوج ما يكونون فيه لجودة التغذية، نظرا للنمو السريع الذي يحتاج بلا شك غذاء وافيا صالحا.

وقد يفهم البعض أن موعد البدء في التربية الجنسية يكون عند ظهور البلوغ، بدعوى أن الطفل قبل ذلك لا يفهم شيئا عن المسائل الجنسية، ولكن يرى المربون وعلماء النفس ضرورة البدء فيها قبل ذلك الوقت بكثير، ويقول بعضهم إن البدء يجب أن يكون عند أول سؤال للطفل في هذا الموضوع، وذلك يأتي بالطبع في الطفولة المبكرة.

وهو لا يزال يسأل حتى يحصل على كمية لا بأس بها من المعلومات الخاصة بذلك الموضوع، إذا لم يصدم ويقابل مقابلة عنيفة، وعلى الأخص إذا أجيبت أسئلته بصراحة وأمانة علمية.

ومما هو جدير بالذكر، أن تفكير الطفل في المسائل الجنسية بسيط، لا يختلط به شئ من الحياء أو الامتعاض، أو الخبث والتحايل، أو الشوق الشديد الذي يصحب أسئلة البالغين والراشدين، نظرًا لعدم شعوره عندئذ بانفعالات جنسية قوية، ولذا فإنه يتقبل الحقائق الجنسية بنفس الروح التي يتقبل بها كل الحقائق العلمية الأخرى. وهذه الروح تجعل مهمة الآباء الذين يريدون تزويده بهذه المعلومات أسهل مما لو انتظروا إلى دور البلوغ. فمثلا نظرة الطفل إلى جسد عار تكون في العادة نظرة عادية بريئة، فإذا تعود رؤية بذلك، لم تنشأ لديه الرغبة في حب الاستطلاع الشديد إذا ما حل دور البلوغ.

أما إذا حرم منه في الصغر، فإنه ينشأ شديد الرغبة في الاستطلاع، ولا يزال يتلمس الفرص الخفية خلال ثقب الباب، أو من خفايا النوافذ، يرقب الجيران، أو يشتري المجلات والكتب والصور الساقطة للاطلاع على تركيب جسم الجنس المقابل. ولذا فإن بعض علماء النفس لا يرون فصل الأطفال الصغار أثناء الاستحمام مثلًا؛ لأن ذلك لا يتيسر بحال من الأحوال بعد سني الطفولة المبكرة في ذلك الجو الهادئ البرئ. ويقول بعضهم إن ذلك يؤخر ظهور الشعور بالميل الجنسي نوعا ما، ويقطع السبيل على الفضول الذي يشتد عادة إذا ما منع الفرد عن شئ ما، نظرا لأن التعود على رؤية جسم الجنس المقابل يضعف الشعور بوجود شئ غريب، بينما الخفاء والتستر، على العكس يثيران الرغبة في تفهم ذلك الشئ الغريب.

ولكن الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الجيل الإنساني منذ أمد بعيد، تجعل تلك الأمور التي ذكرناها صعبة التحقيق، وإن سلمنا بها نظريا، فلابد لنا من وضع سياسة حكيمة عند التطبيق، على الأقل في فترة الانتقال، التي لابد أن تكون طويلة المدى، إذا ما اعتزمنا تحقيقها واقتنعنا بضرورة ذلك، نظرًا للتقاليد القديمة التي تهيمن على سلوكنا، والتي نشأنا عليها، ونشأ أسلافنا كذلك بها على كواهلهم، وأصبحت جزءا من عقولهم وعقولنا، كما أصبح الشذوذ الجنسي جزءا لا يتجزأ من حياتنا.

وهو قد لا يبدو واضحا للعيان لقلته، أو لوجود عوامل أخرى تضاده، أو لأن البعض، أو بالأحرى الكثيرين، في هذه الأيام، لا يحترمون التقاليد والأخلاق إلا ظاهرا، بينما هم في الحقيقة يبيحون لأنفسهم إرضاء الميول الجنسية إرضاء لا مراء فيه، ولا شك أن ظروف المدنية الحديثة قد مهدت السبل لذلك أيما تمهيد. ولكن الشذوذ قد يشتد حتى يظهر للعيان، ويصبح واضحا ملاحظا. وقد لا يتمثل الشذوذ الجنسي في الناحية الجنسية فقط، بل كثيرا ما يؤثر في النواحي الاجتماعية من السلوك، وينتشر حتى يغشى كل النواحي الأخرى.

فإن الكفاح الذي ينشأ بين الدوافع المختلفة للإنسان وبين إرادته وما يتبعها من القوانين العرفية والخلقية، لابد مستنفذ جزءا لا يستهان به من الطاقة العصبية، ونتيجة ذلك لا تقتصر على ناحية واحدة فقط. ولا شك أن أحوال الشذوذ، الناشئة أصلا من أمور جنسية (وإن خفي عنا مصدرها) أكثر انتشارا في الأمم المتمدينة عنها في المجتمعات الأولية البسيطة، أي بين الهمج، حيث لا تصادف الطبيعة البشرية مثل ذلك الضغط والكبح. ولذا يكون الحمل الملقي على الأعصاب والإرادة أقل مما بين الأمم المتمدينة.

ومثل ذلك يقال أيضا عن أجسامهم وأجسامنا، فأجسامهم لا ضغط عليها ولا حرج، فهي عارية معرضة للشمس والهواء، ولا يقف في سبيل نموها عائق تقليدي أو قانوني، فالزنجي يجلس أينما شاء، على الأرض أو على أوراق الشجر، ولا يطوق عنقه بملابس ضيقة بينما نحن معاشر المتمدينين، إذا تعبنا في الطريق مثلا، لا نستطيع الجلوس على قارعة الطريق، ولابُد لنا من انتظار الكرسي، بل والبحث عن مكان مناسب للجلوس فيه، مهما أنهكنا التعب. وإذا لفحنا الحر، لم نستطع أن نطرق بابا من الأبواب طلبا لقدح ماء، بل نجبر أنفسنا على الانتظار حتى نصل منازلنا، أو حتى نصل إلى مقهى عام، حيث نروي ظمأنا بالطريقة التي يقرها عرفنا وتقاليدنا.

ومهما يكن الحر شديدًا، فإنا لا نستطيع أن نخرج في الطرقات عرايا، أو نرتدي ثيابا من القطن، إذا كان ذلك مخالفا لما يرتديه من هم في مستوانا الاجتماعي وهكذا.

فكما أنا نتحمل ضغط التقاليد على جسومنا، فنحن نتحمله على نفوسنا أيضا، وكما أن جسومنا قد أبدت أثر ذلك في قلة نموها، وانكماشها على مر الدهور، فكذلك نفوسنا تبدي أثر ذلك الكبت والكبح من حيث لا نشعر. وكما أنا ليس منا من بلغ غاية الكمال في الوجهة الجسمية، فليس منا من هو كامل تماما لا تشوبه شائبة من الوجهة النفسية.

ولقد كان انتشار الشذوذ بين الأطفال والفتيان في أنحاء العالم المتمدين، سواء أكان هذا ناشئا عن أمور جنسية أم عن غيرها، وتقدم نظريات علم النفس أيضا، سببين هامين لنشوء الكثير من العيادات السيكولوجية، التي بدأت في الأول كمجهود أفراد، ثم جعلت الحكومات تأخذ بيدها، عندما رأت أهميتها، فعملت على الإكثار منها.

وأول ما نشات في أمريكا سنة ١٩٠٩ في مدينة شيكاجو، ومن ثم أخذت تنتشر إلى انجلترا، حيث توجد عدة عيادات في لندن وبعض المدن الأخرى، مثل برمنجهام وجلاسجو، وإدنبره، وكذلك في فرنسا وسويسرا وغيرهما من الممالك الأوروبية.

وإن طريقة تنظيم تلك العيادات لتدل على كيفية نشوء الاضضرابات والشذوذ الذي يصيب النشء، فبكل عيادة طبيب نفساني، وأحد علماء النفس، وباحثة اجتماعية، وإخصائيون آخرون في التربية، والتدريب، واللعب، إلى غير ذلك، وقد يجمع الشخص الأول في نفسه الطب البدني والعلاج النفسي، وإلا فلابد من وجود طبيب أخصائي. ويدرس الطبيب النفساني نفسية المريض. وغرائزه وانفعالاته ووجداناته ووجهته في الحياة. أما الإخصائي في علم النفس، فيدرس قدرة المريض العقلية، ومواهبه الخاصة والعامة، كالذكاء والتذكر والتخيل.

أما العضو الثالث، ويكون في العادة سيدة، تسمى الباحثة الاجتماعية فوظيفتها بحث البيئة التي يعيش فيها المريض، وتستطيع أن تتصل بأبيه وأمه وجيرانه وأقرانه، وتسألهم عن تاريخ حياته منذ الولادة، حتى تستطيع أن تعرف تاريخ حياة المرض، ومصدره، والظروف التي ولد فيها المريض، والتي ربي فيها، وطبعا تحاول معرفة أخلاق كل من الأب والأم وعلاقاتهما الواحد مع الآخر، إلى غير ذلك مما له تأثير على نشأة الطفل وحياته الحاضرة والمستقبلة.

أما الإخصائيون الآخرون، فقد يقومون بتدريب لسانه على النطق، إن كان ممن تعودوا اللجلجة أو التهتهة أو الفأفأة أو التلعثم، وبملاحظة لعبه، تارة وهو منفرد، وتارة وهو مجتمع بأمثاله، إذ اللعب مسرح تظهر فيه الميول

والدوافع بشكل طبيعي، أو قريب منه، ولذا يعول عليه الأطباء كثيرا في اكتشاف مصدر الشذوذ، كما أنهم يستخدمونه كوسيلة للعلاج. ولا نريد أن نطيل في وصف كيفية العلاج، وإنما أردنا بتلك النبذة المختصرة عن عمل العيادات السيكولوجية، أن نبين من عملها أن الشذوذ قد ينشأ عن أسباب طبية وفسيولوجية، أو من أسباب نفسية، تنشأ من البيئة المحيطة بالطفل، وما بها من أوامر ونواهي، وكفاح بين رغبات الفرد ورغبات أقرانه.

وإن ازدياد الإقبال على تلك العيادات يوما بعد يوم، لدرجة اضطرارها لإغلاق أبوابها دون الكثيرين، يدلنا دلالة واضحة على وجود نسبة كبيرة بين النشء، ممن يعتورهم الشذوذ من غير أن يعلموا، أو من غير أن يشعروا بالحاجة لعرض أنفسهم على الطبيب.

وقد يخشى بعض الآباء أن الطفل إذا خوطب وعومل بصراحة في صدد الأمور الجنسية، قد لا يعرف الظروف المناسبة للكلام فيها، فقد يتحدث فيها إلى أغراب أو ضيوف، من غير أن يرى في ذلك غضاضة أو عيبا، ولا شك أن تقاليدنا وظروفنا الاجتماعية تضطرنا لأن ننظر إلى تلك المسائل بشئ من التحفظ والاحتياط. غير أن تلك المخاوف يمكن التغلب عليها بإفهام الطفل أن تلك المواضيع من المسائل العائلية الخاصة، التي هي ملك للأسرة أو للفرد، كغيرها من أسرار العائلة ومسائلها الخاصة، التي يجب أن لا تفشى للأغراب، كالمسائل المالية والعلاقة بين أفراد الأسرة وغير ذلك.

وهنا قد يتبادر للقارئ أن يسأل عما إذا كان الصبيان والبنات يزودون بنفس المعلومات، من غير اختلاف بينهما. وللإجابة على ذلك نقول: إن الرأي الذي كان سائدا في السنين الماضية، أن الصبيان يجب أن يزودوا بمعلومات أكثر من تلك التي تزود بها البنات، والاعتقاد بأن البنات أطهر

وأبسط من الصبيان، قد دل البحث والملاحظة الدقيقة على خطئهما، وأثبت خطل الاعتقاد، الذي كان البعض يرى بناء عليه، أنه لا مانع من أن يدرس الصبيان شيئا عن الأعضاء التناسلية عند النساء والرجال على حد سواء، أما البنات فيكفيهن أن يعلمن ما يختلص بالنساء فقط.

وغني عن البيان أن فتيات اليوم في العالم المتمدين لا تنقصهن القدرة، أو الرغبة أو الحاجة إلى تفهم تشريح تلك الأعضاء عند الجنسين على السواء، وأنهن إذا لم يزودن بها صراحة، فلن يقصر جهدهن عن الحصول عليها من طرق أخرى. وعندنا أنه إذا كان ثمة داغ للتفرقة بينهما، فالأولى أن يعطي البنات قسطا أوفر من تلك المعلومات؛ لأنهن يقع على كاهلهن العبء الأكبر من الحياة الزوجية، ولأن الحل يقتضي دراية بالطرق الصحية، كما أن تربية الأطفال تحتاج إلى مثل تلك الدراية. وإن أجدر الناس بتلقينهم تلك المعلومات بالتالي هو الأم بلا شك.

ويُمكن تلخيص المسائل الهامة، التي يحتاج الناشئون إلى النصح والإرشاد فيها، في النقط الآتية:

أولًا – العناية بصحة الفرد الجنسية، ويدخل تحت ذلك كل ما يختص بالفرد، ويؤثر في صحته وعقله. فيجب على المراهقين معرفة الحقائق الخاصة بالتغيرات الجسمية والعقلية والوجدانية، التي تنتابهم قبيل المراهقة. كما يجب عليهم دراسة شئ عن العادة السرية وأثرها وأسبابها. ومن المفيد أن يعرف البنات شيئا عن كيفية العناية بأنفسهن وقت الحيض، إلى غير ذلك.

ثانيًا – الاحتياط للمسائل الجنسية الاجتماعية، وهي التي لا تخص الفرد وحده، كالأمراض التناسلية، والعلاقات الجنسية الزوجية، والعلاقات غير المشروعة، والعلاقات الشاذة وأثرها الضار في صحة المرء ونفسه.

ثالثًا – النتائج الناجمة من الاختلاط الجنسي، كالحمل وغيره، ويجب تزويد النشء بما يجب عمله عند حدوث النسل، في غير الزواج، بدلا من التكتم والاستسلام إلى الوصفات المنزلية، ومدعي الطب وغيرهم.

رابعًا – السلوك المحمود في المسائل الجنسية حتى يكون موقف الناشئين حسنا غير شاذ. كما يشمل ذلك تعويدهم السلوك المحمود، نحو الجنس المقابل ودراسة موضوع العلاقات الجنسية، وموقف الدين والقانون نحوها، ثم دراستها من الوجهات الطبية والنفسية والاجتماعية.

خامسًا – الزواج، والعوامل التي تؤدي إلى نجاحه وفشله.

هذا عن الأغراض التي نرمي إليها من التربية الجنسية. ومنها نرى أنها لا تدور جول إثارة الغريزة ولفت نظر الناشئين إليها، مما يترتب عليه اشتغالهم بها، وإنما هي تربية للعناية بها، كيفية المسائل الصحية والنفسية والاجتماعية.

وليس من شك في أن تفهم تشريح الأعضاء التناسلية، يساعد في فهم وظائفها، ويساعد على العناية بها، ودرء أخطارها، وتحاشي الأمراض التي تصيبها، وبغير تلك الدراسة تكون فكرة النشء عنها خيالية محضة، بعيدة عن الحقيقة كل البُعد.

كما أن الذين يخافونها ولا يعرفون شيئًا عنها، تتضاربهم الهواجس ذات اليمين وذات الشمال على غير هدى من العلم والحقائق، وليس من داع لأن نُؤكد للقارئ أن الكثيرين ممن يقعون في شراك تلك الأمراض لم تكن عندهم فكرة عنها قبل الوقوع فيها، وأنهم لو كانوا على علم بطرق الوقاية منها لما وقعوا فيها، أو على الأقل لأسعفوا أنفسهم بالعلاج قبل استفحال الأمر وإزمانها معهم.

نعم إن الكثيرين ممن تصيبهم على دراية بها قبل وقوعهم فيها، ولكن هؤلاء عليهم أن يتحملوا مسئولية عدم الإكتراث بعلمهم، فغلطتهم ليست ناشئة من الجهل، وليست جناية من لم يزودهم بالمعلومات، ولكنها جناية إرادتهم عليهم، إذ تخاذلت أمام أهوائهم، وتركتهم يركبون متن الشطط، فحق عليهم القول، وجنوا ثمار ما صنعوا.

ومن الفرص المناسبة للتربية الجنسية، وتزويد النشء بالمعلومات اللازمة تلك التي تسنح أثناء دراسة علم الصحة والبيولوجيا والتاريخ الطبيعي، إذ من المفيد معرفة شئ عن تشريح النبات والحيوان بما فيه الإنسان، وكيفية تكاثر كل من النبات والحيوان من غير إعطاء لون خاص للمسائل الجنسية، أو إعارتها أهمية خاصة تمتاز بها عن غيرها من الحقائق، بل يجب أن تعتبر كأنها حقائق علمية محضة.

ومن المواضيع الجديرة بالدراسة أيضا موضوع الوراثة في كل من النبات والحيوان، فهي تفيد في تفهم انتقال المميزات الجسمية والسيكولوجية من الآباء إلى الأبناء، وقد تكون مرشدًا حسنًا لمن يفكرون في انتقاء أزواج أو زوجات المستقبل، فمن المفيد أن يعرف النشء شيئًا عن أثر التزواج بين الأقارب، وأثره بين الأغراب، كما يعطي فكرة عن أثر التزوج من ضعاف العقول أو المرضى، إذ أن الذكاء من الصفات التي تورث أيضًا، وتنتقل من الآباء إلى الأبناء، ومن الصفات السيكولوجية التي تورث أيضًا العمى اللوني، وهو عدم مقدرة الشخص على رؤية أنواع خاصة من الألوان، فقد لُوحظ أنه لو تزوج رجل مصاب به امرأة ذات نظر طبيعي فإن البنات اللاتي يولدن لهما، لا يكن مصابات به، ولكن إذا تزوجت إحداهن رجلا ذا نظر طبيعي، فإن أولادهما الذكور قد يصابون به. هذا المثل يبين لنا وجود أنظمة وقوانين خاصة

تسير عليها الوراثة، ولا شك أن معرفة النشء بها تفيده أيما فائدة.

وقبل أن نختم كلامنا في هذا الموضوع نقول: إن الغريزة الجنسية أكبر مصدر للإضطرابات العصبية والشذوذ الخلقي، بل يوجد أطباء نفسيون يعتقدون أنها ليست أكبر مصدر فحسب، بل هي المصدر الوحيد لكل الاضطرابات العصبية والتي تصيب النوع الإنساني، نظرا للانفعالات القوية المتصلة بها من خوف وحب وكراهية، وما يتبعها من كبت أو تنفيس، ومن هؤلاء الطبيب النمساوي سجمند فرويد، الذي أصبح لنظريته شأن هام في علاج تلك الاضطرابات.

غير أن الكثير من علماء النفس والأطباء النفسيين يرون أن رأيه به شئ من التطرف، ولكنهم مع هذا لا ينكرون أن كثيرا من تلك الاضطرابات ناشئ من محاولة قمع تلك القوة التي وراء الغريزة الجنسية، ونتيجة سوء التصرف في بعض المواقف، وليس غرضنا من ذكر كل ما مضى إلا إنارة الأذهان، فالوقاية خير من العلاج.

ونلخص ما ذكرناه في ذلك الفصل في القواعد الثلاث الآتية:

القاعدة الأولى – وهي ضرورة تزويد النشء بالمعلومات الصحيحة فيما يختص بالأمور الجنسية، ونقول إن المعلومات وحدها لا تكفي، إلا في بعض الأحوال القليلة، فالفتى قد يعلم الحقيقة، ويعلم الضرر الذي ينجم من اتخاذ خطة خاصة، أو تعود عادة سيئة، ولكن إرادته تخونه أحيانا. ولذا يجب تدريب تلك الإرادة، وتوجيه سلوكه توجيها فعليا إيجابيا، فلا نكتفي بالنهي، بل يجب إعطاء النموذج الصحيح، ووضع الخطة التي يجب أن تتبع عمليا بشكل واضح، وهذا يكون بمساعدة هؤلاء الفتية على ترتيب وقت فراغهم بشكل يبعدهم عن مصادر الخطر، وفي الوقت نفسه يضمن لهم حياة

صحيحة كما أن زيادة المعارض الصحية ورؤية ما بها من نماذج طبية للأمراض المختلفة، كثيرا ما يكون كفيلا بإيجاد روح الكره لما نخاف عليهم منه.

القاعدة الثانية – توجيه الشعور الجنسي نحو المثير الطبيعي الصحيح، والمحافظة عليه من أن يتجه نحو المثيرات الثانوية، ومن أن يعتوره الشذوذ.

القاعدة الثالثة – ضرورة الإقلاع عن سياسة الإقناع بالتخويف والإرهاب، وبث الكراهية لأفراد الجنس الآخر، وكثيرا ما يحدث ذلك في حالة البنات، فإن الأم رغبة منها في الحرص على ابنتها، ولكي تنبهها للأضرار التي تنجم عن اتصالها بأفراد الجنس الآخر، قد لا تلجأ إلى الإقناع، بل تصورهم كأنهم ذئاب يريدون السطو عليها في أول فرصة، كما أنها تصور مقصدهم منها تصويرا سيئا، ولا شك أن ذلك ليس في صالحها، فيجب تحاشي بث العداء بين الجنسين.

ونورد هنا اتماما للفائدة ولمعونة المعلمين الذين يودون تطبيق مبادئ هذا الكتاب ملخصا لدراسة في التربية الجنسية يصح أن تعطى في المدارس الثانوية:

١– الأسرة وأهميتها في حياتنا:

(أ) أهمية الأسرة في التقدم الإنساني.

(ب) الآراء المختلفة لأعضاء الأسرة.

(ج) معايير السلوك في العصور المختلفة وضرورة التمشي مع الآباء.

(د) العادات المختلفة فيما يختص بالزواج.

(هـ) أثر الوراثة.

(و) اختيار الأصدقاء من البنين والبنات.

٢– العلاقات بين البنين والبنات:

(أ) أهمية التقاليد.

(ب) الجاذبية بين الجنسين والحب.

(ج) المشاكل الشخصية كالعادة السرية والاتصال الجنسي غير المشروع والتخلص من الحبل.

٣- النمو والخلف:

(أ) النمو إلى الرجولة.

١) الفروق الفردية.

٢) التغييرات الجسمية.

٣) متى تظهر هذه التغيرات.

(ب) العناية الصحية في دور المراهقة:

١) من الوجهة الجسمية والعقلية والاجتماعية والسيكولوجية

(ج) العناية بالفتاة أثناء الحيض.

١) دورة المحيض.

٢) تصحيح الآراء السائدة عن الحيض.

٤- إيجاد النسل.

(أ) عمل الأعضاء الجنسية والغدد الجنسية.

(ب) تكون المنى والبيض.

(ج) التلقيح.

(د) نمو الجنين والعناية به.

٥- الولادة.

(أ) التغيرات التي تحدث عند الولادة.

(ب) الصحة بعد الولادة.

الفصل التاسع

الجمع بين الجنسين في المدارس

ما من موضوع في التربية تضاربت فيه الآراء كما في ذلك الموضوع، إذ نجد كثيرا من الآراء القيمة في كلا الصفين، فالآراء التي تحبذ الجمع بينهما تقوم على أسس سيكولوجية واجتماعية، بينما الثانية تقوم على أسس التقاليد والنظم الاجتماعية، ولنلخص تلك الآراء فيما يلي:

إن من يرون فصل الجنسين عن بعضهما في المدارس، يقولون إن الجمع بينهما قد يؤدي إلى مالا تحمد عقباه، من الوقوع في شرك الحب، والاختلاط الجنسي. فإن الفتيان والفتيات إذا ما التقوا في الفصل والملعب وحفلات المدرسة، لا يمكن منعهم من التحادث طبعا. كذلك لا يمكن منعهم من إعجاب الواحد بالآخر، سواء أكان ذلك من الوجهة الجسمية، أم الخلقية.

وذلك قد يؤدي إلى الحب والهيام. فإذا ما وصل الأمر إلى تلك الدرجة، أخذ كل من الطرفين يتحين الفرص للخلوة بالآخر، تلك الخلوة التي قد لا يشوبها أي غرض جنسي خطر في أول الأمر. ولكن الخطر يأتي فيما بعد عندما تجمح بهما الغريزة الجنسية، فلا يجدان من حداثة سنهما، وقلة خبرتهما كابحا لجماحها، فضلا عن أن شدة عواطفهما وانفعالاتهما الجنسية، وغير الجنسية، لا تكون نصيرا لهما في ذلك الموقف.

أمام تلك الاحتمالات لا نستطيع طبعا أن نجزم بسلامة العاقبة. ومهما كان من شأن بعض المراهقين الذين قد يتغلبون على انفعالاتهم، ويدارون

الأمر بحكمة وإرادة قوية، فإنه لابد من وجود البعض، مهما كانوا قلائل، ممن تخور عزائمهم، ولو مرة من المرات، فيحدث ما لا تحمد عقباه.

وأشد تلك النتائج خطرا وجود النسل طبعا، إذ يزيد في خطر الموقف أن كلا من الفتى والفتاة، على قدرتهما واستعدادهما للإنتاج من الوجهة الفسيولوجية، قاصر عن العناية بالنسل، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية كما قدمنا. فهما لا يستطيعان تحمل المسئولية، والقيام بأعباء الحياة العائلية، لأنهما عديما الكسب، وخبرتهما في الحياة قليلة، فهما لا يزالان في دور التعليم. كما أن الفتاة لا تكون قادرة بعد على تحمل متاعب الحمل، فضلا عن مشاق تربية الأطفال، والسهر على راحتهم ليلا ونهارا، وعلى الأخص في الطبقات المتوسطة والفقيرة، التي لا تستطيع أن تستأجر من الخدم والمراضع، من يتحمل البعض على الأقل من تلك المشاق، كما أن خبرتها في المسائل المنزلية تكون قليلة، لانصرافها إلى الدراسة عندئذ.

هذه تكون أخطر نتيجة بلا شك، لأنها تمس الناحيتين العملية والاقتصادية، ولا يغيبن عن ذهننا أيضا الناحيتان الدينية والخلقية. فالدين حرم الاتصال الجنسي، إلا بالطريقة التي يقرها، وهي الزواج. وليس من ينكر أن ذلك أفضل للإنسانية من ترك الاتصال على عواهنه فوضى لا يربطه رابط. كذلك من الوجهة الخلقية، فشعور كل من الفتى والفتاة بأنهما قد اقترفا إثما، وخرجا على العرف والدين، يُؤثر في نفسهما تأثيرًا بالغًا، يكون حظ الفتاة منه أشد من الفتى، فشعورها بالعار يحط من ثقتها بنفسها، ويذلها ويحرمها من عطف المجتمع والعائلة، وتصبح أنظار الرامقين كأنهما شواظ من نار، فتنشأ في أزهر أيام حياتها، وفي ريعان شبابها، طريدة، كاسفة البال، فضلا عن العار الذي لازم صغيرها طول حياته أيضا. وهكذا تدخل الفتاة معترك الحياة، وعلى

كاهلها طفل لا أب له يعوله، أو يعترف به، أو ينسب إليه، فيظل أمامها رمزا للعدوان الذي ارتكبه ذلك الفتى الحدث، وللزلة التي زلتها إرادتها فلم تغتفر لها.

ويبلغ عدد الأطفال الذين يولدون لأمهات غير متزوجات في الولايات المتحدة حوالي خمسة عشر أو عشرين ألفا في العام، ويشمل ذلك الرقم حوالي ألفي أم يتراوح عمرهن بين العاشرة والخامسة عشرة. ولو أن ذلك الرقم ليس قاصرا على تلميذات المدارس فقط، إلا أنه يبين ما تؤدي إليه إباحة الاختلاط الجنسي، سواء في المدارس أم غيرها فإن إباحة اختلاط الجنسين في المدارس ستؤدي حتمًا إلى نشوء الصداقة بينهما وإلى الاختلاط في غير أوقات الدراسة وتلك حجة قوية بلا شك لأنصار الفصل بينهما.

ولنفرض أن الأمر لم يصل إلى ذلك الحد، فلم ينتج النسل فإن الخطر الخلقي يظل قائما، فالفتى الذي يتصل بالفتيات أول أمره، قد يستعذب الأمر فلا يقتصر على واحدة يبادلها الحب، بل قد يجاوزها إلى أخرى. وليس في علم النفس ما يقول إن الحب، مهما كان خالصا، إذا تعلق بفرد واحد لا يتعداه إلى فرد آخر.

فمن المعقول أن يحب الفرد عدة أفراد، سواء أكان ذلك في وقت واحد، أم الواحد بعد الآخر، وعندئذ ينشأ الاستخفاف بالحب، وتنشأ عادة الغرام، فيصبح شيئا آليا لا يصدر عن عاطفة صادقة، أو دافع سوى الدافع الجنسي، فيصبح الفتى لا يبغي شيئا سوى الوجود في حضرة الفتيات، ويظل شاعرا بالسرور ما دام كذلك. وهب أنه اكتفى بهذا القدر من الصداقة، من غير أن يرغب في تعديه، فإن الفكرة الأساسية لا تكون متجة نحو الاحتفاظ بذلك الفرد دون سواه.

وذلك ما هو حاصل فعلا بين الأمم الأوروبية التي تبيح الاختلاط بشكل صريح، فإن الكثيرين من الرجال والنساء، والفتيان والفتيات، يتصاحبون ويتسامرون ويتراقصون من غير أن تكون لدى أحدهم وإحداهن نية الاحتفاظ بصاحبته أو بصاحبها، والمفهوم والمتعارف عليه بين كل زوج هو الاستمتاع بالوجود معًا. لا نقول إن كل زوج شأنه كذلك، ولا نريد أن نقول إن ذلك شأن الغالبية، ولكن الكثيرين من غير شك يفعلون ذلك، ولسنا نريد أن نحكم على ذلك النظام الاجتماعي بالسوء، أو أن نحبذه، ولكنا نقول إنه يؤدي إلى الاستخفاف بالجنس المقابل، ذلك الاستخفاف الذي ينجم من التعود على صحبته، والاستمتاع به، ومن كثرة الوقوع في الحب، والخروج منه، والذي قد يؤثر في الحياة الزوجية فيما بعد، ويؤخر الإقبال عليها تأخيرا ليس بالقليل.

وذلك أيضًا مُشاهد في البلدان الأوروبية والأمريكية والتي على شاكلتها، إذ أن سن الزواج عندهم أعلا بكثير مما عند الأمم الشرقية، التي على النقيض من ذلك، تغالي في التبكير به، فتزوج المراهقين والمراهقات في سن العاشرة أو الحادية عشرة كما في مصر، أو قبل ذلك، كما في الهند مثلا، حيث يظهر البلوغ في سن مبكر.

كذلك يقول أنصار فصل الجنسين إن اجتماع الشبان والشابات في المدارس، قد يشغلهم عن دروسهم، وعلى الأخص من يقع منهم في حب من لا يحبه ولا يستجيب له، أو العكس، فنكون بذلك قد أوجدنا للفتى أو الفتاة شاغلا، ما كان أغناهما عنه، في وقت هما أحق ما يكونان فيه بتوجيه عنايتهما واهتمامها نحو دروسهما وصحتهما.

كذلك الدين لا ينهي عن الاتصال الجنسي غير المشروع فحسب، بل ينهي أيضا عن النظر إلى محاسن الجنس الآخر عمدا، ويأمر بالغض من النظر

المقصود منه الاستمتاع. وليس لدينا ما يؤكد لنا أن الفتيان لن يخالفوا ذلك الأمر، إذا جمع بينهم في فصل واحد، فذلك يحتاج إلى عزيمة مستمرة ونخاف أن يكون مثلنا كمثل من ينطبق عليه قول القاتل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هذا عن الفصل بين الجنسين، ولكنا نجد في الكفة الأخرى اعتبارات قوية يدعم بها أنصار الجمع آراءهم، ويبنارها الكثيرون من علماء النفس. فهم يردون على الاعتراضات السابقة بقولهم إن المدارس التي يختلط فيها الجنسان، يكون الخطر فيها أقل مما هو متوقع، لأنهما يتعودان رؤية بعضهما فلا يكون لأحد الجنسين تأثير غريب على الجنس الآخر، ذلك التأثير الذي نراه باديا في الأوساط التي لم تتعود الاختلاط، عندما تختلط لأول مرة، لأن الفصل يثير الرغبة في الاستطلاع، ويجعل كلا من الفتى والفتاة يعيش في جو خيالي، فيتصور كل منهما الآخر على غير حقيقته. وكلما ازدادت الرغبة الجنسية ازداد الاستملاح والتغزل، وتخيل الجنس الآخر على غير حقيقته. وربما كان هذا ما حدا بالعرب في مختلف بقاعهم التي نزلوا فيها إلى العناية بالغزل، والمبالغة في وصف المحبوب، وشعرهم ملئ بذلك مما يكاد لا يجاري من وجهة الخيال والمبالغة في التشبيه. وإن أدبهم ومجونهم، من شعر ونثر، ليظهر بأجلى وضوح، المنزلة التي حل فيها النساء من خيال الرجال، فقد وصفوهن وصفا خياليا بعيدا عن الحقيقة كل البعد، فتارة يشبهوهن بالملائكة وأخرى بما لذ وطاب من أنواع المأكل والمشرب، أو بأشعة الشمس، أو بنجوم السماء، حتى ليخيل للقارئ أنهن لسن من البشر. بينما نجد الأدب الغربي، مع وجود الخيال والتشبيه والمبالغة فيه أيضا، أقرب إلى الحقيقة والوصف الدقيق الملموس في الغزل.

والمشاهد أن إقبال الشبان على الأمور الجنسية في الأمم الشرقية، التي لا تبيح الاختلاط صراحة، أشد منه في الأمم التي لا تقيم العقبات في سبيله، ولا نريد أن نقول إن الميل الجنسي أقوى، ولكنه يشغل ردحا أطول من وقتهم، ويستنفذ جزءا أكبر من تفكيرهم، وطاقتهم العقلية والعصبية، حتى إن البعض لينهمك فيها، لحد قد يفسد عليه حياته، ويشغله عن أعماله. وإن خبرتنا الخاصة بالجامعات الأوروبية لتؤيد تلك الحقيقة التي نحن بصددها، فهذه تغذيها مدارس من نوعين، بعضها يختلط فيه الجنسان، والبعض الآخر خاص بجنس واحد. حتى إذا أتى الصنفان إلى الجامعة، اختلطا طبعا من غير تمييز، فلاحظنا كما لاحظ غيرنا، أن الفتيان والفتيات الذين أتو من مدارس مختلطة، يكونون أكثر رزانة واعتدالا في سلوكهم مع الجنس الآخر، فقد يكتفي الواحد منهم من بين الجمع الحاشد من الطلبة والطالبات، بصديق أو صديقين من الجنس الآخر، ممن تكون الصداقة قد بدأت معهم في المدارس الثانوية.

أما الذين أتوا من مدارس من جنس واحد، فيشاهد إقبالهم الشديد على الجنس الآخر، والتعرف بأفراد كثيرين وعلى الأخص في أول عهدهم بالجامعة، وقد ينهمك بعضهم في تلك الناحية بدرجة يتعذر معها استمرارهم في الدراسة.

وهذا ما حصل في بعض الحالات فعلا، فتراهم لا يفوتهم أي اجتماع يضم الجنسين، وعلى الأخص مجتمعات السرور واللهو والرقص، بحجة إقبالهم وتشجيعهم للحياة الاجتماعية بالجامعة. وفي كثير من الأحيان نرى انضمامهم لجمعية من الجمعيات، لا بدافع الإقبال على العلم، بل لوجود فرد خاص، مرغوب فيه من محبذي تلك الجمعية، ومن المواظبي على

اجتماعاتها، ولو أن هذا قد يكون أحيانا مفيدا لكلا الطرفين. فإقبالهما على المحاضرات العامة، والاجتماعات العلمية، يفيدهما من طريق غير مباشر، كما يحدث أن اثنين يلازمان المكتبة سويا، لأنها المكان الوحيد الذي يستطيعان أن يجلسا فيه جنبا إلى جنب، من غير اعتراض. ويحدث أحيانا أن يكتفي كل منهما بالجلوس إلى جانب الآخر، من غير أن يقطع عليه متابعته لعمله، راضيا بكلمة أو ملاحظة قصيرة من آن لآخر. كما لا يخفي ما قد يقدمه أحدهما للآخر من المعونة، في المواضيع التي يصعب عليه فهمها، أو بحثها مستقلا، وفائدة ذلك طبعا لا تنكر.

ويميل كثير من الأطباء الذين مارسوا علاج الاضطرابات العصبية والشذوذ الخلقي، وكذلك الكثيرون من علماء الاجتماع، إلى تعضيد الجمع بين الجنسين، وإعطائهم فرصة التعارف، فيقول أحدهم في هذا الصدد "إن من حق الفتيان والفتيات أن يتعلموا جنبا لجنب، فإن الفتيان إذا نشأوا لا يعرفون سوى الفتيان، والفتيات لا يعرفن سوى الفتيات، كان من الصعب تربية كل منهما تربية خلقية سلمية من الشوائب".

ويقول آخر: "هناك كثير من الجدل حول الجمع بين الجنسين في التعليم، ولكن من حسن حظ الحياة العائلية، أن الغالبية متجهة الآن نحو الجمع بينهما.. فالرغبة الجنسية شئ طبيعي عادي في دور المراهقة، فلا الجمع بينهما ينشئها من العدم، ولا الفصل يميتها ويمحوها من الوجود. فهي تظهر لأنها من خواص ذلك الدور. وليس لدي الهيئة الاجتماعية لعلاجها طريقة أفضل من إيجاد الفرصة للتعارف بينهما، في ظروف طبيعية لا يحفها الشك، ألا وهي البيئة المدرسية. فالمدرسة التي تجمع بينهما بيئة طبيعية، أما التي تفصل بينهما فليست كذلك".

ويؤيد الكثيرون من علماء النفس والأطباء النفسيون ضرورة الجمع بينهما باعتبارات سيكولوجية، سبق أن ذكرنا معظمها في مكان آخر من هذا لكتاب (راجع الفصل السابق عن الغريزة الجنسية، وما كتبناه عن أحلام اليقظة، وعن أحوال الشذوذ).

أما الاعتراض الذي يزفه أنصار الفصل، بقولهم إن قوى الجنسين العقلية ليست متساوية، ولذا لا يجوز الجمع بينهما في فصل واحد، وتعليمهما بطريقة واحدة، فمردود عليه بالحقائق السيكولوجية التي أوردناها في فصل الفروق العقلية بين الجنسين، والتي تدل على أن الجنسين متساويان في متوسط الذكاء العام. وعلى ذلك فهذه النقطة تعضد رأي الجمع بينهما.

ولكن لا ننس أن الجنسين وإن كانا متساويين من حيث متوسط الذكاء العام، فإنهما يختلفان من حيث القدرات الخاصة، فتجد الذكور يتفوقون في بعض تلك القدرات، ويتفوق الإناث في البعض الآخر. فمثلًا تدل الاختبارات العقلية على تفوق الإناث في جميع أنواع التذكر، وعلى الأخص عندما يكون الحفظ بطريقة آلية؛ أي بدون التفكير في معنى ما يحفظ. كذلك يتفوقون في التصور imagery، فصورهم العقلية تكون في العادة أوضح من صور الذكور. غير أن هؤلاء يفوقونهن في تذكر المسموعات أحسن من المرئيات. كما يفوقونهن في التخيل، وعلى الأخص التخيل الإبداعي، أي الذي يقتضي الابتكار والاختراع.

ولذا نجد أن النساء أصلح للأعمال التي تحتاج إلى عادة مستمرة، وإلى صبر وطول أناة، وإلى الإحاطة بنواحي العمل المختلفة وأطرافه الشاردة، ولكن الأعمال التي تحتاج إلى ابتكار واختراع، وإلى إجراء أبحاث، فإن الذكور يكتسحون الميدان فيها.

أما في المواد الدراسية، فالبنات يفقن الصبيان في المواد الأدبية، كالمطالعة والهجاء والإنشاء وما شابه ذلك، بينما يفوقهن الصبيان في الرياضيات. غير أن العمليات الرياضية التي تحتاج إلى مجهود آلي من غير تفكير متجدد، تعطي فرصة للبنات لإظهار التفوق، كبعض الأعمال الحسابية الآلية، والتي تعتمد على جداول محفوظة عن ظهر قلب. وفي الجغرافيا يتفوق الصبيان، ولكن البنات يتفوقن في التاريخ.

ومن المفيد هنا أن نقتطف شيئا من تقرير اللجنة الاستشارية لوزارة المعارف الانجليزية، التي طلب منها في سنة ١٩٢٠ أن تضع تقريرا عن موضوع التفرقة بين الجنسين، من حيث البرامج في المدارس الثانوية، فكتبت تقول: "لم نستطع بعد البحث أن نجد فروقا بين الجنسين، يعتمد عليها في بناء سياسة تعليمية خاصة. نعم صادفنا أقوالا ساذجة عامة، يشتم منها وجود فروق بين الجنسين، ولكننا لم نقتنع بشئ منها. وقد أكد لنا الشهور الذين استشرناهم في الأمر، أن الصبي يختلف عن الصبي، والبنت تختلف عن البنت، أكثر من اختلاف الصبيان في مجموعهم عن البنات في مجموعهن. وكلما أيد شاهد تفوق الصبيان في ناحية من النواحي عادله شاهد آخر بتفوق البنات في تلك الناحية أيضا. وليس من السهل أن يمتنع المرء عن التحيز لأحد الجنسين، غير أنه مادامت الأبحاث النفسية قائمة في الوقت الحاضر على قدم وساق، وما دامت الإحصائيات لا تزال تترى، الواحدة بعد الأخرى، فقد يأتي وقت نستطيع فيه أن نجزم بحقيقة ملموسة ثابتة. أما في الوقت الحاضر فليس من الحكمة أن نفترض وجود فروق أو تساو بينهما، بل يجب أن نترك المسرح حرا لظهور كل منهما".

ومهما يكن من أمر اختلاف الجنسين في القدرات الجسمية أو العقلية فليس المفروض أن يدرس كلاهما نفس المواد. فالفرق بين الجنسين ليس قاصرا على قدرتهما الحاضرة بل يجب على المدرسة أن تنظر إلى مستقبل كل منهما، أي إلى الأعمال التي سيقوم بها كل من الجنسين بعد ترك المدرسة. فالبنات يهمهن تعلم الطهي والحياكة والغسيل والعناية بالأطفال وغير ذلك من المسائل التي تستدعي الأعمال المنزلية العناية بها. ولكن ليس معنى ذلك أن تهمل الرياضيات أو الكيمياء أو اللغات أو غيرها. فهذه معلومات عامة يحتجن إليها في حياتهن سواء في المنزل أم في غيره. ويجب أن لا ننسى أن البنات منهن من سيستمررن في الحياة العملية العامة كالطب والتدريس والتمريض وغير ذلك. ولذا يكون الإعداد المهني ذا أهمية كبيرة لهن. وعليهن حينئذ العناية بالعلوم التي تؤهلهن لمهنهن. ومن الناحية الأخرى نجد أن المواد المنزلية التي ذكرناها لا تقتصر أهميتها على البنات. فالكثيرون من الرجال يحتاجون إليها سواء في حياتهم الخاصة أم في أسفارهم، ولذا تعني الكشافة بتعاليم الفتيان الطهي وغير ذلك.

وتلك الاعتبارات السابقة لها محلها سواء أكان الجنسان في مدرسة واحدة أم منفصلين. فمنهاج البنين لابد وأن يختلف عن منهاج البنات في أشياء معينة، كما أنه لابد وأن يتحد معه في أشياء أخرى، ولا يغير الموقف اجتماع الجنسين أو انفصالهما.

وفي هذا الصدد يقول جيمس أيرل رسل James Earl Russell عميد كلية المعلمين بجامعة كولمبيا بنيويورك.

(من البله أن نقول إن الجمع بين الجنسين في المدارس معناه إعطاء نفس المنهاج لكل منهما. فلقد مضى زمن طويل منذ أن كان المنهاج عقيما

خاويا إلى ذلك الحد. وهب أننا أعطينا البنين والبنات نفس الدروس، فليس من المحتم أن يصلوا جميعا إلى نفس النتيجة أو الفائدة، فليس هناك تلميذان يستجيبان استجابة واحدة سواء أكان ذلك عقليا أم روحيا).

ويقول الدكتور رسل أيضا:

(يجب أن تمهد الفرصة لكل من البنات والبنين ليجنوا من ثمار التعليم ما يفيدهم في حياتهم، وهذا هو السبب في أن الكثير من المدارس قد أدخلت التعليم المعني ضمن برامجها.

ولقد مضت الأيام التي كانت فيها مدارسنا الثانوية صورة مصغرة لكلياتنا الجامعية، وهذه لم تعد لشئ سوى خدمة الكنيسة والحكومة. فكانت بذلك معاهد أرستقراطية لخدمة البعض الذين كان في استطاعتهم دفع نفقاتها. ولكن ما دامت المدارس الثانوية الحالية يصرف عليها من خزينة الدولة، فالجمهور الذي يتحمل نفقاتها يهمه أمر البنين والبنات على السواء، فأصبح الجمع بين الجنسين أمرا ساريا فيها).

ونورد هنا أيضا رأي الأستاذ رسل عن التفرقة بين منهاجي البنين والبنات.

(نظرًا لأن ٨٠٪ على الأقل من البنات سيتزوجن ويقررن في بيوتهن، فإن المدرسة الثانوية عليها مسئولية تزويدهن بالعلوم الخاصة التي يحتجن إليها، حتى أنه ليس ثمة مدرسة ثانوية لا يشمل منهاجها المواد المنزلية اليوم. وسيستمر هذا الاتجاه حتى يصبح منهاج المدارس الثانوية الذي يعطي للبنات اللاتي لا يعتزمن الالتحاق بالجامعة شديد الاختلاف عن ذلك الذي يعطي للاتي يعتزمن الاستمرار في دراستهن).

يتحدث الأستاذ رسل عن الحالة في أمريكا، ونرى أن ما قاله في هذه العبارة شديد الانطباق على مصر والشرق، بل نحن أحوج من أمريكا إلى إعطاء برنامج خاص للبنات نظرا لقلة من يسرن في دراستهن إلى النهاية وكثرة اللاتي يتزوجن قبل الالتحاق بالجامعة.

ولننظر الآن للموضوع من وجهة أخرى، فقد ذكرنا عند الكلام عن الفروق الجسمية بين الجنسين، أنهما يختلفان في القوة البدنية، وفي قوة احتمال أعصاب كل منهما للجهود والاضطرابات، وفي سرعة تأثر كل منهما بالتعب.

ويلوح لنا أن في تلك الفروق عضدا لأنصار التفرقة بينهما، إذ أن الحكمة تقضي بأن لا يكلفا بنفس الأعمال، إذا كانا مختلفين في القوة البدنية، وفي قدرة احتمال أعصابهما للجهد والتعب. فمثلًا لا يجوز تكليفهما بحضور دروس من طول واحد، أو بعمل مجهد من نوع واحد.

كما أن معاملة المدرسين والإدارة المدرسية لكل من الجنسين لابد وأن تتنوع ما دامت أعصاب كل من الجنسين تختلف في احتمالها وفي تأثرها. فالبنات أسرع تأثرا، وعلى ذلك فهن في حاجة إلى أنواع خاصة من التأديب، وعلى الأخص عند توقيع العقاب، أو منح الثواب.

وإزاء تلك الاعتبارات، نجد أنصار الجمع يسلمون بالنتيجتين الآتيتين، وإن كانوا لا يسلمون بوجوب الفصل كلية وهما:

أولًا – أن يفصل بينهما في الألعاب والتمرينات البدنية فصلا تاما، بمجرد ظهور الفروق الجسمية بينهما، وبعبارة أخرى بعد انتهاء المرحلة الابتدائية مباشرة. فليس من الإنصاف عندئذ إجبار البنات على الانخراط مع البنين في ألعابهم الخشنة، وألعاب القوى، فهن ضعيفات من تلك الناحية،

فضلا عن أنهن لا يحتملن الألعاب التي تستلزم جُهدًا مُتواصلًا، لسرعة تأثرهن بالتعب، وإلا تعرض قلبهن للضرر.

كما أنه ليس من الإنصاف إجبار البنين على مجاراة البنات في ألعابهن الهادئة الناعمة، أو السريعة الرشيقة، وحرمانهم من ألعابهم التي تمرن عضلاتهم وتهيئتهم للمستقبل الذي ينتظرهم، والذي لا شك يتطلب منهم قوة جسمية عالية، فضلا عن السرور الذي يجدونه في مزاولة مثل تلك الألعاب.

غير أن أنصار الجمع، وإن قبلوا ما سبق على أسس طبية، يرفضون كل الرفض أن يسلموا بالفصل في الألعاب والرياضة على أسس اجتماعية، كأن يقال إنه ليس من اللائق اجتماع الجنسين في ملاعب المدرسة، للريبة في سلوكهما، أو لخروج ذلك على التقاليد والآداب. ولذلك لا يرون مانعا ما من اجتماعهما في الملاعب لشهود حفلات رياضية، يقوم بها أحد الجنسين، أو أن يلاعب الصبيان البنات في لعبة التنس، أو أن يشتركوا في الرقص، ويقولون إن اجتماع الجنسين في الملاعب، وفي النشاط المدرسي خارج أوقات الدراسة، يساعد على زيادة التعاون، فهو لذلك مرغوب فيه كل الرغبة، ويندبون سوء الحظ الذي جعلهما مضطرين للانفصال في الألعاب الرياضية، فيحرما من التعاون في تلك الناحية أيضا. ولقد حاول بعضهم تنظيم ألعاب مشتركة، يستطيع الجنسان القيام بها معا. حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.

غير أن تلك المحاولة فشلت، إذ سرعان ما رجحت كفة الصبيان، الذين أخذهم الحماس، فاخشوشنوا في لعبهم، ونسوا زميلاتهم الناعمات، ولذا أهملوا تلك المحاولة، ولو أن البعض الآخر لا يزال مصرا على الاستمرار فيها.

ولنلخص المناقشة السابقة فيما يلي: إن المدرسة التي تجمع بين الجنسين تمهد لكل منهما فرصا ثمينة للتعاون، ولذا فإنه من الخطل حرمانهما منها، ولكن ما دامت طبيعة كل منهما تحتم الانفصال في بعض الظروف، فليكن الفصل في تلك الظروف الخاصة فقط، حتى لا تنتج نتائج وخيمة، من الإصرار على جمعهما في كل مظاهر الحياة المدرسية.

ثانيًا – لما كانت البنات أسرع تأثرا من الوجهة العصبية، وأقل احتمالا للتعب، فلا داعي لتكلفهن بنفس الأعمال التي تطلب من البنين. كما أنه يجب أن يعطين وقتا أطول لتحاشي الإجهاد. ولقد أخذ ولاة الأمور بهذا الرأي في انجلترا، ودعمته اللجنة الاستشارية الانجليزية التي بحثت التعليم الثانوي، فقررت وجوب تأخر البنات سنة عن البنين في التقدم لإمتحان الدراسة الثانوية أو بعبارة أخرى أن الفتى الذي بلغ من العمر ١٦ سنة يعادل من الوجهة الدراسية، الفتاة التي بلغت من العمر ١٧ سنة.

والبعض ينقضون الاعتبارات السابقة من أصلها، فيقولون إن ما قيل عن تعرض الفتيات للإجهاد العصبي، وسرعة التأثر بالتعب، مبالغ فيه كثيرا. ويقولون هب أنها ليس مبالغا فيها، فإن النتائج الوخيمة المزعومة يمكن تحاشيها لا بفصل الجنسين كلية، بل يجعل نظام الدراسة مرنا، يسمح للضعفاء من الذكور والإناث بالسير حسب سرعتهم الخاصة بهم، من غير إجهاد لهم.

غير أننا نرد على هذا الاعتراض، بأن تلك المرونة إذا كانت لتوافق طبائع الضعفاء من كلا الجنسين، فإنها يجب أن تكون مرونة واسعة النطاق، تكاد لسعتها تحتم وجود ما يشبه نظامين داخل المدرسة الواحدة. وهذا لا شك يزيد من مشاكل الإدراة المدرسية.

ويقول أنصار الجمع، إن المدرسة المختلطة توفر في تكاليف البناء، فبناء مدرسة واحدة أقل تكاليفا من بناء مدرستين، فضلا عن أنه يوفر في مرتبات النظار والمدرسين والكتبة والخدم. فإذا فرضنا أن بلدة من بلاد الريف في مصر مثلا، ليس بها من البنين وحدهم، أو البنات وحدهن، ما يكفي لشغل مدرسة ثانوية قائمة بذاتها، فإن الجمع بينهما يكفل ملء تلك المدرسة، ويوفر تكاليف بناء مدرستين، أو حرمان أحد الجنسين من وجود مدرسة في تلك البلدة، ويوفر مؤونة السفر إلى بلدة أخرى توجد بها مدرسة ثانوية. أما مشكلة احتياج البنات إلى مواد دراسية خاصة، كأشغال الإبرة والتدبير المنزلي فيمكن التغلب عليها بفصل الجنسين في بعض الحصص، حيث يدرس كل من الجنسين مواده الخاصة، ثم يجتمعان في المواد التي لا تستدعي التفرقة، كاللغات والرياضيات والتاريخ والجغرافيا.

ولكننا وإن تغلبنا على تلك العقبة الصغيرة. لابد أن نسلم بأن إدراة مدرسة يجتمع فيها الجنسان، أصعب من إدراة مدرسة بها جنس واحد. فكما يجتمع فيها تلاميذ من جنسين مختلفين، يجتمع فيها كذلك معلمون ومعلمات من جنسين مختلفين، ولكل منهما معاملة خاصة من الناظر أو الإدارة. كذلك لابد من عمل ترتيبات خاصة لكل من المعلمين والمعلمات في حجر الجلوس، وترتيب الحصص، وفي الاجتماعات والحفلات المدرسية. كما يلزم لكل من التلاميذ والتلميذات أيضا حجر خاصة، غير حجرة الدراسة، كحجر الاستراحة، والنظافة، والمذاكرة، وكل ذلك يجعل المراقبة الدائمة والإشراف التام على كل صغيرة وكبيرة من ألزم المستلزمات. كذلك عمل الجدول، وتخصيص حصص به للطبخ والكي والغسل وأشغال الإبرة والأشغال اليدوية وفلاحة البساتين وأشغال المعادن والخشب ومعامل الكيمياء

والطبيعة والتاريخ الطبيعي، وترتيب حصص خاصة لكل من الجنسين في الملاعب أيضا، كل ذلك لا شك يشغل جزءا كبيرا من وقت الناظر أو الناظرة، ولا ننس أيضا ضرورة مقابلة أولياء أمور التلاميذ والتلميذات، وهم في تلك الحالة من الجنسين أيضًا، وهما يأتيان للمناقشة في أمور أبنائهم وبناتهم الخاصة والعامة.

غير أننا نرى رغم الصعوبات المذكورة، أن تلك المدارس تسير في كل من انجلترا وأمريكا سيرا حثيثا، وتنجح في مقابلة كل تلك الصعوبات بشكل يدعو إلى الإعجاب، وتخرج فتيانا وفتيات ناجحين وناجحات في الحياة. ولا ننسى أن بعض تلك الصعوبات الناشئة من الفروق الجنسية قد تكون أحيانا مصدر معونة. فالحفلات المدرسية التي يشترك في إقامتها الجنسان، أنجح من التي يقيمها جنس واحد. فتعاون البنين والبنات في تلك الحفلات، لا شك له قيمة، فالبنات مثلا يستطيعون إعداد المشروبات والمأكولات، وإعداد الموائد وتنسيقها، وصف الأزهار، وإعداد الملابس للحفلات التمثيلية وحياكة السنز إلى غير ذلك. بينما البنون يقيمون أخشاب المسرح، ويقطعون الأخشاب اللازمة لأعمال الكشافة، ويخططون ملعب المدرسة وينظفونه، ويصفون الكراسي، ويضعون المصابيح الكهربائية، ويستقبلون المدعوين، ويمكن للجنسين أن يشتركا في التمثيل، أو في فرقة الموسيقى وهكذا.

ولا شك أن الحياة المدرسية التي يكون هذا شأنها، تكون أقرب إلى الحياة الطبيعية خارج المدرسة، حيث يعيش الجنسان جنبا لجنب.

ومهما تكن نتيجة الموازنة بين حجج الفريقين، نجد أنفسنا أمام نتيجة لا جدل فيها، ولا يعارض فيها أنصار الرأيين، ألا وهي أن الجمع بين الجنسين في المدارس الابتدائية والأولية أمر مرغوب فيه، حيث لم يبلغ الطفل المراهقة

بعد، فلا خوف من اجتماع الجنسين حينئذ، إذ أن نظرة كل منهما للآخر تكون بريئة، خالية من كل فكرة جنسية أو ميل شديد، ويتخذ الطفل عندئذ أصدقاء من الجنسين على حد سواء من غير تفرقة أو تحيز. ومع خلو ذلك النظام من الضرر، نجد أن له الفوائد التي يذكرها أنصار الجمع، والتي أوردناها سالفا، والتي من أهمها عدم جعل الجنسين غريبين عن بعضهما، وتمحو ذلك الغموض القائم في ذهن كل منهما.

وليس أدل على سلامة نية الأطفال وصفاء سريرتهم، فيما يختص بالأمور الجنسية من أنهم بعد أن يروا رواية سينمائية مثلا، كثيرا ما يتحدثون عن القبلات والحب والحياة الزوجية، من غير أن تعلوهم حمرة الخجل، أو يرتابوا فيما يقولون، كأنها حقائق عادية.

وما أشد دهشتهم عندما تنظر إليهم أمهم او مربيتهم تلك النظرة القاسية، التي تسكنهم وتعقد لسانهم، فتقطع سلسلة حديثهم، من غير أن يفهموا لذلك من سبب، اللهم إلا أن الخوض في ذلك عيب، ولا يظفرون بأكثر من ذلك، فيظل هذا الغموض قائما في أذهانهم حتى تكبر سننهم، ويبدأون في فهم اصطلاح المجتمع على كتمان كل ما يتعلق بالأمور الجنسية، ولكن هيهات بعد فوات الوقت، إذ تكون الأمور الجنسية قد اقترنت في أذهانهم بالغموض والخفاء والعار والاحتقار.

الفصل العاشر

المدرسة الثانوية

المبادئ التي تقوم عليها تربية المراهق وتعليمه

كما أن دوري المراهقة والبلوغ يتميزان عن دور الطفولة بمميزات تجعلهما مرحلة خاصة في حياة الإنسان، فكذلك المدرسة الثانوية التي يعهد إليها تربية الفتيان والفتيات في دور المراهقة، يجب أن تختلف لحد ما عن المدرسة الابتدائية، التي يعهد إليها تربية الأطفال.

وكما أن النمو الجسمي والعقلي والوجداني يكون تدريجيا، فكذلك الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية يجب أن يكون تدريجيا. فالمواد التي تدرس بالسنة الأولى من المدرسة الثانوية، يجب أن لا تكون أصعب بكثير مما يدرس في نهاية المرحلة الابتدائية، والمُعاملة كذلك يجب أن تقرب مما كان متبعا في نهاية تلك المرحلة، حتى لا يصطدم الناشئ فجأة بمعاملة مختلفة، قد يظهر له أنها خالية من العطف، مع أن نفس المعاملة قد تظهر عادية لتلميذ السنة الرابعة أو الخامسة الثانوية، الذي كبر وأصبح على قاب قوسين من مرحلة الرجولة.

وكنا نود أن يلاحظ ذلك التدرج أيضا في كثير من النواحي الأخرى من المدرسة الثانوية، كطول الحصص وغيرها، لولا أنه تقوم دون ذلك عقبات في النظام العام للمدرسة، بمعنى أننا لو جعلنا طول الحصص في السنتين الأولى والثانية يختلف عنه في السنوات الثالثة والرابعة والخامسة، لارتبك جدول الدراسة، وعلى الأخص إذا كان بعض معلمي المدرسة سيشترك في التدريس

للفرق كلها. كذلك فترات الراحة تصبح متداخلة في بعض الفرق، مع الحصص في الفرق الأخرى، بمعنى أنه في الوقت الذي تتريض فيه بعض الفرق، تكون الأخرى مستمعة للدرس، ولا يخفى ما في ذلك من شوشرة على الدراسة، فضلا عن أن وجود نظامين في مدرسة واحدة يجعل مهمة ناظر المدرسة شاقة، تكاد تكون مستحيلة في المدارس الكبيرة الحجم.

ومهما كان من أمر التدرج، فإن المدرسة الثانوية ما دامت قد عهد إليها بتربية المراهقين، فيجب أن تكون ملائمة لتلك الميزات التي ذكرناها سابقا في مكان آخر من هذا الكتاب.

إلا أن الملاحظ أن المدارس الثانوية، لا في مصر فحسب بل في كثير من بلدان العالم المتمدين، كانجلترا وفرنسا مثلًا، لم يراع حتى الآن في نظامها ميول الفتيان وطبيعتهم، بل نراها وكأنها جامعة صغيرة، همها كله موجه نحو المواد والدراسات العقلية، التي تشبه كثيرا الدراسة الجامعية، ولا تختلف عنها إلا في قلة الكمية. إن ذلك النظام وليد فكرة خاطئة عن الغرض من التعليم الثانوية، بل عن التربية أجمع، ألا وهي فكرة الإعداد لكسب العيش مع إهمال طبيعة التلميذ وميوله في الوقت الحاضر وتضحيتها في سبيل المستقبل البعيد.

فإن الملاحظ في مناهج تلك المدارس إعداد التلاميذ للمرحلة العالية أو الجامعة، حيث يتلقى الطلبة العلوم التي تساعدهم على القيام بأعباء الوظائف والمهن في الحياة العامة ليس منا من ينكر أن بعض تلاميذ المدارس الثانوية سوف يتلقون علومهم يوما ما في المدارس العليا أو الجامعة، وليس منا من ينكر كذلك، أن الدراسة الجامعية، تقوم على أساس الدراسة الثانوية، ولكن هؤلاء التلاميذ الذين نعني بمستقبلهم الجامعي وما بعده، لهم حياة نامية

تحتاج إلى العناية بها في الوقت الحاضر قبل المستقبل، وهذا لن يتحقق بإرهاق عقولهم بمواد عقلية معنوية جافة، لا تغني في حياتهم الحاضرة شيئا، فتطرد الشوق من حياتهم وتجعلها شقية في مرحلة من أزهر مراحل النمو الإنساني، تنبثق فيها روح الآمال، وتطمح فيها النفس إلى مستقبل زاهر بديع، وتتفتح أمام الفتى، أو الفتاة دنيا جميلة من الخيال البديع، تنسجه أحلام اليقظة، وآمال الشباب. كل ذلك تفسده عليهم المدرسة الثانوية الحالية بدراساتها الجافة، التي لا حياة فيها، والتي لا يمت الكثير منها إلى الحياة الخارجية بصلة ما.

فضلًا عن أن كثرة المواد وكثرة العمل العقلي، ترهق جسم المراهق وعقله، في وقت هو أحوج ما يكون في للراحة والاعتدال في العمل، نظرا للنمو السريع، ولتعرضه للأمراض والعلل، في وقت قد بدأت فيه صحته وحواسه ووجدانه تنمو لتأخذ شكلها النهائي، فإذا نمت معتلة بقيت كذلك طول الحياة، وصعب فيما بعد علاجها، كما تبين ذلك الإحصاءات عن العلل المنتشرة بين تلاميذ المدارس الثانوية، وتلميذاتها، كضعف البصر والتواء العمود الفقري وانتشار السل والأنيميا واصفرار الوجه وغير ذلك.

إذن يحسن بنا هنا قبل البدء في بحث الخطة والمنهاج للمدرسة الثانوية، أن نحدد الغرض منها، لأن الغرض يتحكم في كل خطوة من خطوات بحثنا.

تأتي المدرسة الثانوية كمرحلة وسطى بين المدرسة الابتدائية والجامعة، كما أن المراهقة مرحلة وسطى في النمو الإنساني بين الطفولة والشباب أو الرجولة. هذا المركز المتوسط يجعل لها معنى خاصا في حياة الفرد، فالفتى لم يكتمل نموه بعد، بدليل ظهور تلك التغيرات الجسمية والعقلية والوجدانية

التي ذكرناها، وهذه التغيرات تأخذ وقتا قبل أن يستقر بدنه وعقله ونفسه، وتأخذ شكلها النهائي الذي يتمثل في دور الرجولة. وما دام الفتى لم يصل إلى هذا الحد، فهو في حاجة إلى العناية، حتى لا يلحقه الضرر الذي قد يلبث معه طول حياته، وهذه العناية لا تتوفر له إذا دفعنا به إلى ميدان الحياة، وأرغمناه على كسب عيشه، وخوض غمار العمل، الذي كثيرا ما يحتاج إلى تضحيات كثيرة من الفرد، في وقت لم يكتمل فيه نموه، ولم يتوفر له الجلد على مجابهة صعاب الحياة، جنبا لجنب مع غيره من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحياة، وعرفوا مرها وحلوها، فلا يلبثون أن يعرفوا مواضع الضعف في الصغير الناشئ، ونالون منه أي منال، فيهزل جسمه من الكد، وتخور عزيمته، لأنه لم يلبث أن خرج من عهد الطفولة الناعمة.

وقد حدت هذه الاعتبارات بالحكومات المتمدينة إلى تحريم استخدام الأطفال الناشئين في الأعمال الصناعية والتجارية مطلقا، حتى لا تضحي صحتهم ونموهم في سبيل دراهم معدودة، يجنيها آباؤهم من ورائهم. بل إن بعض الحكومات مثل انجلترة مثلا، تحرم على الطفل الانقطاع عن المدرسة قبل سن الخامسة عشرة، فكأن ولاة الأمور لا يكتفون بحماية الطفل من عبث أرباب الأعمال، بل يجبرون أبويه على تربيته، حتى يمر من دور المراهقة على الأقل، ويجتازه من غير أن يعوق نموه أي عائق. وليس من شك في أنه من المرغوب فيه أن تستمر تربية الفتى على الأقل حتى السابعة عشرة من عمره، وهذا فعلا ما يفعله الآباء القادرون على الإنفاق، إذ أنهم ليسوا بحاجة إلى الدراهم التي يكسبها فتاهم، ويفضلون استكمال تربيته. كما أن فتاهم ليس بعالة على الحكومة ومالية الدولة؛ لأن أبويه يستطيعان الإنفاق على تعليمه وتربيته.

غير أن العوامل الاقتصادية تحول دون تعميم ذلك على الشعب بأسره، لأن إجبار الفتيان على الذهاب للمدرسة لغاية سن السابعة عشرة، معناه الإنفاق على هذا الجم الغفير من التلاميذ، وذلك مالا تتحمله مالية الدولة، رغم أنه أمر مرغوب فيه. كما أن حرمان الأبوين من ثمرة كسب الفتى إلى ذلك الوقت المتأخر، واضطرارهم إلى الإنفاق عليه طول تلك السنين الطويلة، قد يكون أكثر مما يستطيعان.

نرى إذن أن المدرسة الثانوية من أهم أغراضها العناية بنمو الفتى الناشئ وتعهده بالغذاء الصالح، وتزويده بالخبرة اللازمة للحياة المقبلة. فكأن غرضها مزدوج، ناحية منه ترمي للحاضر، والناحية الأخرى ترمي للمستقبل. أما عن الحاضر، فهو العناية بالفتى وبنموه من جميع النواحي، البدنية والعقلية والخلقية والنفسية. أما عن المستقبل، فهو إعداده للمرحلة التي تلي المدرسة الثانوية، ألا وهي الجامعة. هذان الاعتباران هما الأساسان اللذان يحددان خطة الدراسة، واختيار مواد المنهج، وسنرى كيف تنمو المدرسة الثانوية كنتيجة لهذين الاعتبارين.

ولكن قبل أن نفعل ذلك، دعنا نوضح التباسا يقع فيه الكثيرون من أولياء أمور التلاميذ الذين يذهبون للمدارس الثانوية. فالكثيرون منهم يظنون تلك المدرسة غاية في ذاتها، تؤدي في النهاية لكسب العيش بالحصول على وظيفة أو بالعمل الحر. غير أن الملاحظ أن المنهاج الثانوي لا يمت بصلة إلى تلك الوظائف أو تلك الأعمال الحرة، فالطالب الذي يحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، ويعمل ككاتب بأحد دواوين الحكومة، لم يعد لمهنة الكتابة، ولو كان المقصود منه ذلك، لتعلم الآلة الكاتبة مثلا، والاختزال، وحُسن الخط، وطرق مسك الدفاتر، وترتيب الدوسيهات والمكاتب، وطرق

كتابة الخطابات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، بدلا من الجغرافيا والتاريخ والهندسة الفراغية والكهرباء الاستكاتيكية وحل معادلات الجبر والجذور وغير ذلك. ولذا فإننا ننصح لهؤلاء الذين يرغبون في اختصار الطريق، والنحو في الحياة نحوا عمليا، أن يذهبوا إلى المدارس الفنية، فهي تؤدي بهم إلى حيث يريدون من الطريق المختصر. وحتى هذه المدارس يجب أن تراعي كذلك الناحيتين اللتين ذكرناهما سابقا، وهما الإعداد للمستقبل مع العناية بالحاضر. فهي يجب أن تعطي التلميذ فرصة كافية للعناية بجسمه وبصحته وبأخلاقه وبحياته الاجتماعية، جنبا لجنب مع المواد التي يتعلمها بقصد الاستفادة منها في الحياة العملية بعد التخرج من تلك المدارس الفنية.

نرى إذن أنه بناء على كل ما سبق أن قلناه عن نمو المراهقين، والتغيرات التي تنتابهم في ذلك الدور، ضرورة العناية بالتربية البدنية، فالألعاب والأعمال التي يأتيها الفتيان في الهواء الطلق خارج حجر الدراسة، تحدث لهم سرورا، ويتمتعون بها أكثر من تمتعهم بالأعمال التي في حجر الدراسة. وليس هذا قاصرًا على فريق دون فريق، فالأذكياء وغير الأذكياء يحبونها حُبًا جمًا.

ومهما يكن من أمر حبهم لها فهي ضرورية لهم. وإنه رغم العناية التي بدأ ولاة الأمور يولونها للتربية البدنية في السنوات الأخيرة في مصر، فإنها لم تنل العناية الكافية ولا تزال ينظر إليها كأنها مضيعة للوقت، ويعتدى على أوقاتها بشغلها بمواد الدراسة الأخرى أحيانا، وعلى الأخص إذا ما قرب الامتحان. وفي ذلك لا شك ضرر على المراهقين، وعلى الأخص إذا ما قرب الامتحان. وفي ذلك لا شك ضرر على المراهقين، وعلى الأخص الفتيات منهم. فالمراهق في حاجة إلى راحة كافية يستجم فيها قوته المنهوكة، كما أنه في حاجة للرياضة التي بها تنسيط للأعضاء الساكنة أثناء الأعمال العقلية.

وإن الإكثار من الوجبات المنزلية، في ذلك الدور لا شك خطر على نمو المراهقين؛ لأنه يحرمهم الراحة والتنزه بعد انتهاء اليوم المدرسي، فضلا عن أنه يحرم عليهم اتباع الهوايات التي تنفق وميولهم الطبيعية. وإذا كنا سنخرج إلى الحياة بعد المدرسة الثانوية، شبانا ضعاف الأجسام، ضعاف العقول، مصفري الوجوه، بأيديهم شهادات تدل على نجاحهم في امتحانات المدرسة، نكون قد دفعنا الثمن لتلك الشهادات التي لا قيمة لها غالبا، أضعافا مضاعفة، فإن الحرمان من الرياضة البدنية لا يؤثر على جسوم الفتيان فقط، بل على عقولهم ونفوسهم أيضا، فالفتى الذي يرهق عقليا من غير أن يعطي فرصة للترويح، يخرج من المدرسة كالإناء الذي طفح فلا يقبل الزيادة، فتراه يكره العلم والقراءة، ويميل إلى حياة لا نشاط ولا عمل ولا إجهاد فيها، وليس هذا بغريب، فهو رد فعل للإرهاق السالف. وهذا لا شك مشاهد لدينا في مصر، فالفتى الذي يتخرج من المدرسة الثانوية أو الجامعة، لاشك أنه ينتظر أقرب وظيفة ليحط رحاله، ويبدأ حياة الراحة والخمول. وفي وظائفنا مجال لأمثاله، فهو لا ينفع إلا لمثل تلك الأعمال، أما الأعمال الحرة التي تتطلب نشاطا دائما وتيقظا، فيقبل عليها من لم يطفح كيله من الشبان الأجانب، وهم ناجحون فيها كما نرى بأعيننا.

وفي رأينا أن تكليف التلاميذ بالواجبات المنزلية العديدة، وحرمانهم من وقت فراغ كاف، لا يؤدي إلى زيادة عملهم ونشاطهم العقلي، فإنه كلما ازداد زمن العمل أخذ التعب من الإنسان، فيقل محصوله، ويقل مقدار ما يستفيده. وقد أجريت تجارب في هذا الموضوع فأثبتت تلك النتيجة بشكل لا مراء فيه، فقد وجد في بعض تلك الأبحاث أن العامل الذي يشتغل ٥١ ساعة في الأسبوع ينتج كمية أكبر ممن يعمل ٦٦ ساعة، مع تساوي الظروف الأخرى.

وليس ذلك إلا لأن العامل الأول عنده من وقت الراحة ما يكفل له النشاط في وقت العمل، وبذا يكون إنتاجه في كل ساعة من ساعاته كبيرا. أما الذي يعمل ٦٦ ساعة فهو متعب، ولذا فإنتاجه في كل ساعة قليل، فكانت النتيجة أن مجموع إنتاج الأول في ساعاته على قلتها، زاد عن مجموع إنتاج الثاني في ساعاته على كثرتها.

وإذا طبقنا هذا في عالم التربية، وجدنا أن التلميذ الذي يلعب في فترات معينة، تكون كمية إنتاجه أكبر من التلميذ الذي يواصل العمل طول يومه. ومهما يكن من أمر الكمية، فمما لا شك فيه أن نوع العمل الذي ينتجه الأول أفضل من الذي ينتجه الثاني، نظرا لنشاطه وشوقه إلى العمل واستجمامه لقواه.

هذا إذا نظرنا للموضوع من وجهة العمل ذاته، أما من وجهة التلميذ، فالواجبات المنزلية تحرمه الراحة في دور المراهقة، وتضره أيما ضرر. وعلى الأخص البنات.

وبالإضافة إلى الرياضة البدنية فإن المراهقين يجب أن تتوفر لديهم فرصة لتدريب العقل والجسم معا. وتلك تتوفر في الأعمال اليدوية التي تتطلب تفكيرا وإعمال عقل، أو الأعمال الجسمية التي تتطلب يقظة وانتباها. أو الأعمال العقلية التي تتطلب حركة جسمية. وهذا طبعا يكون بوساطة بعض أنواع الرياضة البدنية. ثم بالأشغال اليدوية والفنية. كالتصوير وأشغال الخشب والورق والصلصال والرسم والفوتوغرافيا وغير ذلك، وعلى الأخص الأعمال التي تستدعي من التلميذ الابتكار وإخراج أشياء جميلة.

ولقد ظل الاعتقاد سائدا زمنا طويلا بأن الأعمال اليدوية لا تصلح إلا لغير الأذكياء. أما الأذكياء فخير عمل لهم هو الأعمال العقلية المحضة،

ولكن الأخذ بهذا الرأي يقتضي حرمانهم من مصدر سرور كبير، فضلا عن أن به سوء فهم للأعمال اليدوية على أنها مجرد أعمال آلية. ولكن الحقيقة أن الكثير منها يتطلب إعمال الفكر والجسم معا، ويتضح هذا أكثر إذا علمنا أن من مقاييس الذكاء ما هو عملي محض، لا يتطلب كتابة أو قراءة بل العمل باليد، فالمشاكل تحد باليد لا باللسان، وفي الحالتين العقل يعمل ويفكر.

وقد دلت أبحاث الأستاذ بير Pear السيكولوجية، على أن الأعمال اليدوية وأعمال المهارة كالألعاب مثلا، تتطلب عمليات عقلية عليا، كالتحليل واستنباط مبادئ معنوية عامة، كما في تعود اللاعب الدقة في إصابة الهدف، والخروج من المآزق التي تصادفه في لعبه، والتغلب على خصمه وهكذا. وعلى ذلك فيجب أن لا نظن أن هناك هوة واسعة بين العمليات العقلية اللازمة لاكتساب المهارة، والعمليات العقلية اللازمة لاكتساب المعلومات.

والفنون والأشغال اليدوية، وإن تكن ذات أثر في حياة التلميذ العقلية، إلا أن هذا ليس الأساس الوحيد الذي يجب أن تقوم عليه فائدتها له، فهي جليلة الفائدة لجسمه. من حيث ما تحتويه من الحركة، وما تقتضيه من تضامن العقل والجسم في العمل، فضلًا عن فائدتها في تربية الانفعالات الجمالية وتغذيتها، مما يدخل السرور على نفس التلميذ، ويستثير شوقه لبذل الجد، ثم إن لها فائدة للمراهق خاصة، ألا وهي القضاء على أحلام اليقظة، التي هي من مميزات ذلك الدور، فهي علاج ناجع لها، بينما الأعمال العقلية المحضة، فضلا عن أنها كثيرًا ما تبعث الملل في نفس المراهق لعدم التغير والحركة بها، فإنها تعطي فرصة للخلوة والسكون والتعمق في التفكير ومتابعة الخيالات، مما يؤدي إلى أحلام اليقظة. تلك هي الأسس التي نبني عليها قولنا بضرورة الأعمال اليدوية والفنية، لا للأغبياء فقط، بل للأذكياء أيضا، فهم كما تقول

الأستاذة هويلر "في حاجة إلى تربية أيديهم مع ألسنتهم، وعقولهم مع انفعالاتهم، وإعدادهم لوقت الفراغ كما نعدهم لوقت العمل، وليس من العدل أن نحرمهم من فرصة نتيحها لمن هم أقل ذكاء".

والتربية الاجتماعية من أهم الأمور للمراهق. فهذه يجب الاهتمام بها لتعادل التربية الفردية، فإننا في عنايتنا بالفرد ومواهبه وقواه وشخصيته، يجب أن لا نغالي في جعله وحده مركز العناية، وإلا قضينا عليه من الناحية الاجتماعية، وأصبح تعاونه مع إخوانه أمرا عسيرا. فكما أن حب النفس والذود عن حياضها أمر مرغوب فيه، إلا أن المغالاة فيه تبعد الفرد عن إخوانه في الإنسانية، وتجعل النظام الاجتماعي مستحيلا. وكذا المنافسة في المدرسة، وما فيها من تشجيع للتلميذ على الثقة بنفسه، والتفوق على أقرانه، يجب أن لا يغالي فيها، بل يجب أن تعادل بالتعاون، الذي هو أساس نجاح الأمم في الأيام الحديثة. وإن تربية التلميذ على التعاون، وتعويده حسن السلوك والتصرف في الحياة الاجتماعية، لا شك يفيده عندما يخرج من المدرسة إلى الحياة، ويجد نفسه مضطرا لخوض معامع الحياة الاجتماعية، وعلى تخطي عقباتها من غير أن يتعثر، والاستفادة من الفرص التي تسنح لخدمة نفسه وخدمة أمته. فالفرد مهما كان كفئا في حد ذاته لابد له من العمل مع آخرين، فإذا استطاع الانسجام معهم نجح، وإلا قضى عليه بالفشل، فيطفق يشكو من الناس.

ومن مبادئ هذه التربية، العناية بفرق الكشافة، والمعسكرات الخلوية والجمعيات المدرسية، سواء أكانت جمعيات تمثيل أم جمعيات رياضة أم جمعيات علمية، فإن تنظيم هذه الجمعيات وتحميل التلاميذ عبء المسئولية فيها، ضرب من ضروب التربية الاجتماعية.

ولا شك أن الامتحانات الحالية، أكبر عقبة في سبيل نجاح التربية الاجتماعية في المدارس، فإن قياس كفاءة التلميذ والمدرس بمقدار نجاحهم في الامتحان، لا يعطي فرصة للتربية الاجتماعية أن تظهر، مهما كانت عناية المدرسة بها، ولا يسمح إلا للمتفوقين في المواد والعلوم أن يظهروا.

ولا شك أن تلك المواد ليست أهم ما في المدرسة، فالتلميذ قد يكون أول الناجحين في الامتحان لتفوقه في الحفظ والاطلاع، ولكنه أقلهم صلاحية للحياة الاجتماعية التي سيزج به إليها، بعد الخروج من المدرسة.

ولا نرى في المنهاج محلا لمواد تدريبية، أي التي تدرب العقل وتزيده قوة ومهارة، فإن نظرية التدريب الشكلي قد انهارت، بعد أن أثبتت الأبحاث الحديثة أن التدريب المزعوم لا يأتي بفائدة في كثير من الأحيان، وأن الفائدة لو حدثت تكون عادة طفيفة، وأنها تتوقف على العناصر المشتركة بين العمل الذي يتدرب عليه الإنسان، والعمل المطلوب انتقال التدريب إليه.

ولقد دلت الأبحاث على أن طريقة التدريب عليها المعول الأكبر في انتقاله. فإذا كان المتعلم يوجه انتباهه إلى تلك العناصر المشتركة بين العمليتين فإنه يحتمل انتقال التدريب. فيظهر لنا من ذلك أهمية طريقة التعلم في انتقال التدريب، فهي أهم من الإصرار على مادة معينة كوسيلة لإنتقال نتائج التدريب من مادة معينة إلى الحياة العامة للتلميذ.

وبناء على الاعتبارات السابقة، نستطيع أن نضع المنهاج للمدرسة الثانوية بالطريقة الآتية:

نجد أن هناك مواد تصلح للمراهقين كلهم، أو غالبيتهم، وهذه يجب أن تتناسب مع مميزات دور المراهقة العامة. ولنطلق على تلك المواد اسم (اسم الأصغر) أي أقل عدد من المواد يجب أن يعطى، وما دام متمشيا مع طبيعة

كل التلاميذ، فلابُد لهم أن يدرسوه جميعهم على حد سواء.

وإلى هذا القدر تضاف مواد أخرى، يكون لكل فرد حرية اختيار بعضها حسب ميوله واستعداداته، وترك البعض الآخر الذي لا يلائمه، ولنطلق على تلك المواد اسم (القدر المتغير) أي الذي يتغير من فرد لآخر.

القدر الأصغر أو القدر الدائم

رأينا عند الكلام على نمو المراهقين، والتغيرات التي تنتابهم، أن الجسم محتاج للعناية به، ولذا كان من اللازم جعل التربية البدنية جزءا من المنهاج.

كما أن تدريب العقل والجسم معًا؛ لإيجاد التوافق والانسجام بينهما، يستدعي إدخال الأشغال اليدوية، والأعمال الفنية، فهي فضلًا عن فائدتها المذكورة بها تربية للذوق، وتنمية للحاسة الجمالية، وهي منبع للسرور، والحركة والنشاط للتلاميذ.

أما تعلق المراهقين بالطبيعة، وشغفهم بالاستزادة من الحقائق العلمية عن الحياة، والظواهر الطبيعية، فيجد مجالا في دراسة بعض المواد العلمية الدقيقة، كالعلوم، وعلم النبات، وعلم الحيوان.

أما ميل المراهق نحو الحياة الاجتماعية، فيستخدم في دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانيات والدين، ويدخل تحتها أدب اللغة، واللغات الحية، والتاريخ والجغرافيا، وهي تفهمه حياة أمته، وبلده، وعلاقاتها بالأمم الأخرى، وتقدم المدنية في العالم بوجه عام. والتربية الوطنية أيضا ذات قيمة في تغذية تلك الميول، وليس من الضروري أن تدرس منفصلة، بل الأفضل أن تدرس بالاشتراك مع المواد الأُخرى في مناسباتها.

نرى إذن أن "القدر الأصغر" يشمل المواد الآتية:– التربية البدنية، بعض الفنون أو الأشغال اليدوية، مشاهد الطبيعة، اللغة الوطنية، الأدب، التاريخ والجغرافيا، التربية الدينية والاجتماعية.

أما العلوم الرياضية والطبيعة والكيمياء فلا ترى الأستاذة أولف هويلر محلا لها في القدر الأصغر، لأنه القدر الذي يكتفي به مع التلاميذ الضعفاء، فهؤلاء يجب أن يكون البرنامج مناسبا لقوتهم وسرعتهم، كافيا لسد حاجاتهم العقلية والنفسية والجسمية، مذكيا لشغفهم، على أن لا يزيد عن ذلك، وإلا أصبح فوق طاقتهم، وبعث في نفوسهم الملل، وبعبارة أخرى أصبح مرهقا لجسومهم وعقولهم. ومع ذلك فتلك الزيادة لن يستفيدوا منها لإرتفاعها عن مستواهم. وهذا فعلا ما نشاهده في المدارس الحالية، التي يرغم فيها كل التلاميذ والتلميذات على دراسة نفس المواد، بنفس السرعة، وفي نفس الوقت. ولاشك أن رسوب الكثيرين في الامتحانات، وارتفاع شكواهم في آخر كل عام، راجع إلى هذا العيب في المناهج المكتظة، التي لا تفرق بين القوي والضعيف، الذكي والغبي. فنرى أن التلاميذ رغم كثرة اشتغالهم بالأعمال الدراسية، ورغم إحاطتهم بالجم الغفير من الحقائق العلمية المتناثرة، لا يستطيعون هضم ما تعلموه. وليست لديهم القدرة على التفكير المستقل.

ولذا فإننا نرى وننصح كل النصح أن يقتصر في الدراسة الإجبارية (أي القدر الأصغر) على المواد التي ذكرناها مع ضعفاء التلاميذ، وأن يعطي لهم المجال فوق ذلك لاختيار بعض المواد من "القدر المتغير" التي يشعرون نحوها بميل ورغبة.

ويقول ساندروسون المربي الشهير الانكليزي، صاحب التجربة المعروفة في بلدة (أوندل) بانجلترا، إنه لو أعطيت لكل تلميذ حرية اختيار العمل، لما كان هناك تلميذ ضعيف. فإن التلميذ المتوسط الذكاء، أو الذي دون المتوسط، لابد وأن له ناحية يتفوق فيها ويحيا ويجيدها. وإن اكتشاف تلك الناحية بالذات، وإعطاء الفرصة له ليشبع ميله إليها وليجيدها، لابد وأن يعيد

إليه احترامه لنفسه وثقته بذاته. وذلك بلاشك له أثر عظيم في نموه وتطوره. فإذا نجحنا في ذلك نكون قد قمنا بواجب من أسمى واجبات المربي، وكلما خف الحمل عن كاهل ذلك التلميذ الضعيف. كانت فرص اتجاهه نحو تلك الناحية أكثر وأضمن.

وتقول الأستاذة هويلر إن من يحاولون إرغامنا على إدخال الرياضيات ضمن (القدر الصغير) يمكن الرد عليهم بما يأتي:

أولًا – إن المراهقين قد مروا بالمرحلة الابتدائية حيث درسوا شيئا عن الحساب.

ثانيًا – إن التلميذ بالمدرسة الثانوية ستسنح له، أثناء دراسة المواد المختلفة، فرص لإستعمال الرياضيات ودراستها من غير أن تخصص لها حصص محددة، كالقراءة والكتابة التي تستخدم في المواد المختلفة فوق ساعاتها المقررة.

ثالثًا – أما ما يقال عن الفائدة العملية في الحياة للرياضيات كما تدرس الآن في المدارس الثانوية، فمبالغ فيه.

رابعًا – أما فائدتها التدريبية فأقل مما هو معتقد بكثير. وهنالك كثير من كبار رجال التجارة والصناعة يقومو بعملهم خير قيام، مع استخدام النزر اليسير من الرياضيات، أقل بكثير مما يتعلم في المدارس الابتدائية.

وعلى ذلك ترى الأستاذة هويلر أن إرغام كل المراهقين على دراسة الرياضيات ليس مستحبا، كمادة مستقلة.

القدر المتغير

يُمكن أن نضيف إلى المواد السابقة مواد أخرى، للتلاميذ الذين هم أكثر ذكاء من الضعفاء والمتوسطين. وعدد هذه المواد ونوعها يختلف تبعا لمقدرة كل تلميذ على حدة، وتبعا لميوله واستعداداته أيضا، كما يختلف أيضا تبعا لنوع البيئة التي يعيش فيها وما تتطلبه منه.

ولقد دلت الأبحاث على أنه يمكن تقسيم المراهقين بالتقريب إلى قسمين:

أولًا – هؤلاء الذين ميولهم علمية أو لغوية، والذين يميلون إلى المباحث المعنوية النظرية ويستطيعون متابعتها.

ثانيًا – هؤلاء الذين ميولهم عملية، وهم الذين يحبون الأعمال التي تتطلب التطبيق والعمل والحركة، ويحتاجون إلى تمثيل المعنويات في محسات.

وكلا القسمين يستطيعان دراسة القدر الأصغر وزيادة، وتكون هذه الزيادة من القدر المتغير متنوعة تبعا للميول السالفة الذكر فيعطي للقسم الأول الرياضيات واللغة الأجنبية الأصلية والإضافية والطبيعة، مع الاحتفاظ بأحد الفنون. أما القدر المتغير فيختار من بين الأشياء العملية، كالفنون العملية والعلوم التطبيقية.

وبناء على ما سبق، يدرس النوع الأول منهاجا يشبه كثيرا المنهاج المتبع في المدارس الثانوية في الوقت الحاضر، ومنها يستمرون إلى الجامعة.

أما أفراد النوع الثاني، فلا فرصة لهم في المدارس الثانوية الحالية، ويضطرون تحت الضغط إلى قمع ميولهم واتباع المنهاج النظري المعنوي الذي تتبعه الفئة الأولى. وخير لهم أن يذهبوا إلى المدارس التي تهيئ لهم

تلك الفرصة العملية، كالمدارس الفنية والصناعية. ومن الأسف أن تلك المدارس الآن ينظر إليها لا كأنها نوع من المدارس التي تزدهر فيها المراهقة، بل كأنها نوع أقل من المدارس الثانوية المعروفة، ولذا بالخطر في أن تحاول هذه المدارس التشبه بالمدارس الثانوية، فإدخال نفس المواد في برامجها، فتسلب هذا النوع من المراهقين فرصتهم الذهبية للنجاح والتفوق.

وتدل الأبحاث السيكولوجية على ضرورة وجود أنواع ثلاثة من المناهج للمراهقين، يختارون منها ما يتناسب مع طبيعتهم.

النوع الأول: يحتوي على "القدر الأصغر" مع بضعة مواد متغيرة ذات صبغة نظرية، ولو أن هذه المواد المتغيرة قد يدرس بعضها بطريقة عملية أحيانا.

النوع الثاني: يشمل "القدر الأصغر" أيضا ومواد متغيرة ذات صبغة عملية تطبيقية.

النوع الثالث: ويشمل "القدر الأصغر" فقط، وهذا يناسب الضعاف، الذين لا يستطيعون القيام بأعباء شئ ما فوق القدر الضروري الذي يناسب كل الأفراد وعامتهم.

ولقد بحثت هذا الموضوع في انجلترا، اللجنة الاستشارية التي أصدرت تقريرها في سنة ١٩٢٦، وهو المعروف بتقرير هادو المشهور Hadow Report فضمنته المقترحات الآتية:

أن مرحلة التربية التي تلي المرحلة الابتدائية يجب أن تتيسر لكل مراهق في إحدى المدارس الآتية:

(١) مدارس ثانوية، من نوع المدارس الثانوية الموجودة الآن (في انجلترا، وهي تشبه في مناهجها المدارس المصرية لحد ما) وهي تسير بوجه

عام على نظام الدراسة العلمية أو الأدبية، وتضم تلاميذها إلى سن السادسة عشرة (١٦+).

(٢) مدارس "مركزية" وهي تشبه مدارسنا الصناعية (ولكنها أقل تخصصا من الوجهة العملية)، مدتها أربع سنوات ابتداء من سن (١١+)، على أن يكون بالسنتين الأخيرتين شئ من التوجيه العملي.

(٣) مدارس "مركزية" من نوع أقل من الأولى، تضم التلاميذ الذين لا يستطيعون دخول المدارس (المركزية) السابقة.

(٤) فصول للكبار من تلاميذ المدارس الابتدائية، الذين لا يستطيعون دخول إحدى المدارس السابقة، لعدم وجودها في المنطقة أو لسبب آخر وهي تبدأ من سن ١١.

وأن رأي الأساتذة أو لف هويلر ليمثل النزعة الانكليزية في التربية. وتختلف عنها النزعة الأمريكية، في اتساع المدى وكثرة الابتكار والاحتفاء بكل جديد، شأن الأمريكيين في نواحي معاشهم الأخرى. وتمتاز المدارس الأمريكية فيما تمتاز به بشدة عنايتها بعلم النفس، والصحة العقلية والصحة البدنية، والألعاب الرياضية. كذاك ميلها إلى الناحية العملية والمهنية أشد من ميل التربية الإنكليزية، ولذا تشمل أغلب المدارس الثانوية الأمريكية عددا هائلا من العلوم العملية والمهنية بين موادها الاختيارية. ونقصد بالعلوم العملية غير النظرية، وبالمهنية نقصد تلك التي تعين الطالب أو الطالبة على الاستعداد لمهنة ما. وإن الكثيرين من الطلبة والطالبات يستطيعون الحصول على وظائف على أساس القدر البسيط الذي درسوه من تلك المواد العملية والمهنية، كالآلة الكاتبة مثلا أو اللغات الأجنبية، كاللغة الاسبانية التي لها أهمية تجارية في أمريكا.

أما عن احتفاء المدارس الأمريكية بالجديد والآراء المبتكرة، فحدث عنها ولا حرج، وليس من سبيل لحصرها، نظرا لاتساع البلاد الأمريكية وترامى أطرافها وحرية تصرفها. فمثلا تعني إحدى مدارس البنات الثانوية بتدريبهن على أعمال المنزل وإدراته. فتسكنهن بيوتا يعشن فيها، ويعنون بها عناية عملية، بل إنهن ليعنون بأطفال يقترضنها من ملجأ قريب ليتدربن على حياة الأمومة. وتتبع مدرسة أخرى عادة توظيف الصبيان في مصانع أو جاراچات لمدة أسبوعين، ليكتسبوا التدريب العملي والمهني، وليتعلموا الناحية التجارية مع الناحية الصناعية كدراسة السوق وكيفية معاملة الزبائن إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره، في كتابنا هذا.

وخلاصة القول، أن المدارس المصرية في حاجة إلى نسخ برنامجها وتوسيعها لقبول الآراء الجديدة، ونلخص أوجه الإصلاح في النقط الآتية:

أولًا: الإقلال من أهمية المواد النظرية كالرياضيات والجغرافيا والتاريخ.

ثانيًا: فتح الباب لاختيار الطلبة والطالبات، ما يروق لميولهم الحاضرة وما يتناسب مع مستقبلهم.

ثالثًا: العناية بالمواد التي تحافظ على سلامة الناشئين، الجسمية والنفسية وعدم اعتداء المواد الأخرى عليها.

رابعًا: الإقلال من سطوة الامتحانات وجعلها أكثر مرونة لتتمشى مع روح التقدم.

خامسًا: العناية بالعلوم العملية والمهنية من غير إعطائها صبغة مهنية محضة.

سادسًا: تشجيع المدارس على إجراء التجارب واعتناق الآراء الجديدة المناسبة لحالة كل مدرسة من الوجهتين الجغرافية والصناعية.

الفصل الحادي عشر

تابع تربية المراهق وتعليمه

تكلمنا في الفصل السابع عن المبادئ العامة التي يجب أن تقوم عليها تربية المراهق، ثم بينا كيف نختار مواد المنهاج التي تؤدي تلك الرسالة بوساطتها والآن نبحث في الطرق التي نستطيع بها أن ننفذ ذلك البرنامج، والروح التي يجب أن تسود تنفيذنا له.

مما لا شك فيه أن تلك الطرق التي سنتبعها في تعليم المراهق، يجب أن تكون مناسبة للميزات التي ذكرناها عن دور المراهقة، حتى تكون النتيجة سارة مثمرة. ومن أهم تلك المميزات من الوجهة النفسية والخلقية، نزعة المراهق إلى الاستقلال في التفكير والحكم، وعدم التأثر بالإيحاء أو الاستهواء كما كان أيام الطفولة. فنزعته الفردية الاستقلالية تزداد، كما تزداد قدرته على التفكير، وتزداد مرونته واستعداده لمطابقة النظام الاجتماعي والتمشي معه. تلك النزعات الاستقلالية تحدو به إلى الرغبة في الابتكار، وإخراج شئ ينسب إليه،ويظهر فيه مقدرته الخاصة بدلا من مجرد التقليد والتكرار. ولذا فإن تلك الرغبة يحسن أن تجد مجالا في نظام تعليمه. فالطرق الفردية تلذ له وتشوقه. لا نقول بمحو طريقة التعليم الجمعية في الفصول، المعروفة الآن، فهي وإن كانت سلبية، إلا أنها لها مزايا لا نود حرمانه منها.

فيجب أن نجمع إليها الطرق التنقيبية والابتكارية، التي تعطيه فرصة لأن ينقب عن المعلومات بنفسه، ويبحث في الكتب، ويطلع في المجلات والموسوعات، ويستقي الحقائق ويجنيها جنيا، ثم يخرج نتيجة بحثه، وكأنها

شئ جديد، بدلا من الانتظار حتى يصب المعلم الحقائق في أذنيه صبا. ولا شك أن تلك الرغبة في البحث تضطرنا لأن نترك له شيئا من الحرية والاستقلال، في آرائه وبحثه وفي حركاته وسكناته، وفي تنظيم أوقاته وعمله. والأشغال اليدوية من الأعمال التي تعطيه تلك الفرصة للأبتكار والاستقلال في الإنتاج، وتستلزم أيضًا شيئًا من الحرية في طريقة العمل وتنظيمه. ولكن إذا وضعنا قواعد ثابتة للمتعلم، وطلبنا منه أن لا يحيد عنها، أخرجنا منها عنصر الشوق والابتكار والاستقلال، وأصبحت عملية جامدة مملة.

ولذا يجب في بدء اشتغاله بها، أن نتركه يشعر بلذة الحرية، في الاختيار والعمل والإنتاج، وأن لا نشتد في البدء بالتمرينات الأولية للتدريب على الدقة، ومراعاة القواعد الخاصة في إمساك الآلات، وكيفية الجلسة، وكيفية البدء والانتهاء إلى غير ذلك، فإن التدريب الجاف كان يناسب الطفولة أكثر من المراهقة، حيث اتسع أفق الفتى، وأصبح يرغب في خوض معامع الأشياء الغامضة، والمغامرة لمعرفة النتائج المجهولة، إلى ركوبه الأخطار واستسهاله المشاق في سبيلها. أما إذا طلب منه تكرار عمل من الأعمال أو تلقيده، جمد عقله واستولى عليه الخمول والملل.

وتسنح الفرص للطريقة الفردية الابتكارية في كل مادة من مواد الدراسة في المدرسة الثانوية أو الفنية، وعلى المعلمين أن ينتهزوها، ويعطوا الفتيان والفتيات فرصة للإستفادة منها في تربيتهم وتعليمهم.

ومن المُستحسن أن لا يزود المعلم تلاميذه من المراهقين بتعليمات مفصلة كل التفصيل، عند تكليفهم بعمل من الأعمال، أو عند خروجهم برحلة أو زيارة، لأن ذلك يقيد حريتهم، ويسلبهم حرية التصرف، ولا يعطيهم فرصة الاستقلال في العمل والحكم. وإنما يحسن أن تكون الإرشادات على قدر

اللازم، وأن نترك لهم مجالا لإستخدام مواهبهم.

ولا شك أن الجمع بين شئ من طريقة البحث الفردية، وطريقة التعليم في الفصول، يناسب مرحلة المراهقة، لقضائه على الملل، ولإعطائه فرصة للنزعة الاستقلالية الابتكارية، التي نتحدث عنها.

ومن الطرق التي استحدثها المربون لتحقيق التربية الفردية، ثلاث طرق اشتهرت في القرن الحاضر وهي طريقة دولتون The Dolton Plan وطريقة موريسون The Morrison Plan وطريقة ونتكا The Winnetkla Plan وهي مع اختلافها في تفاصيل نظامها، تتحد كلها في إلقاء عبء العمل على التلميذ، وجعله يستقصى العلم بنفسه. وهي كلها تجزئ المنهج إلى وحدات، يكلف التلميذ بدراستها كل على حدة.

ويوضح لكل جزء من المنهج صحيفة خاصة تسمى "صحيفة التعيين"؛ أي الجزء المعين على الطالب لدراسته. وفي هذه الصحيفة، يجد الطالب الغرض من الدراسة، والمصادر التي يجد فيها المعلومات، والتاريخ المحدد لإنهاء دراسة ذلك الجزء. وعند الانتهاء على الطالب أن يجوز اختبارا مقننا يدل على كفايته وحسن تحصيله. وإن ذلك الأسلوب ليعطي المعلم فرصة الإطلاع على النقص في عمل الطالب، وفرصة العمل على إصلاحه.

وفي طريقة دولتون قد حولت الفصول إلى "معامل" لكل مادة على حدة، يذهب إليها التلميذ عندما يرغب في دراسة مادة مُعينة. أما المعلم فقد أصبح مستشارا يلجأ إليه التلميذ لحل مشكلة أو صعوبة، ولا يملي أو يلقي، كما يفعل المعلم في الطريقة الجمعية.

وفي طريقة ونتكا يخصص الصباح لدراسة المواد بالطريقة الفردية، وبعد الظهر بالطريقة الجمعية التعاونية. ولا شك أن ذلك يتمشى مع الاتجاه

الحديث في التربية نحو النواحي الاجتماعية والوجدانية، بعد أن كان الاهتمام كله بالدراسة العقلية، واستوعاب الحقائق.

وإن حب المراهقين للتجوال والمخاطرة ليدفعهم للإقبال على الرحلات البعيدة، إلى الأماكن ذات الأهمية التاريخية أو الجغرافية أو الجمالية، كالآثار التاريخية، ومنابع الأنهار ومنعطفاتها ووديانها، والجهات التي تأثرت بفعل الرياح أو عوامل التحات والتعرية أو حدائق الحيوانات، أو مشاتل الزهور وحدائق النباتات الغريبة، أو المصانع الشهيرة. فهذه كلها بالإضافة إلى إذكائها للسرور والشوق، تفيد المراهق وتوسع مداركه، وتشعره بأنه في موقف الباحث الذي يستقي الحقائق من منابعها الأصلية. كل تلك الطرق ترضي النزعات الفردية الاستقلالية، التي تزداد قوتها الحيوية الدافعة في وقت المراهقة.

ولقد مضى على المدارس المصرية حين من الدهر، قبل أن تتنبه إلى أهمية الرحلات المدرسية والزيارات العلمية، ولكنها توجه لها الآن عناية محمودة. فبرنامج كل مدرسة يشمل عددا معينا من الرحلات، إلى البقاع الأثرية ذات الأهمية التاريخية أو البقاع ذات الأهمية الجغرافية ودور الصناعة، إلى غير ذلك مما تغص به بلادنا. ولكن الملاحظ أن الغالبية العظمى من تلك الرحلات في يومي الخميس والجمعة؛ أي في غير أوقات الدراسة، فكأن الرحلات والزيارات لا يزال واضعو البرامج ينظرون إليها كأنها شئ إضافي إلى البرنامج فلا محل لها في أوقات الدراسة. وإنا بلاشك لنرى أهمية الرحلات تعدو ذلك بكثير، فهي نوع من الدراسة ونعدها في أغلب الأحيان أفيد من الدروس الجافة التي يتلقاها التلاميذ داخل جدران المدرسة واجمين، فالمدرسة يجب أن تكون صورة للحياة، ومهمتها أن تعد التلاميذ للحياة، فلم

نحبس التلاميذ إذن عن الحياة الحقيقية لنعطيهم صورة مصغرة منها. أليس الأجدر أن نستقصي الحياة الحقيقية ونتتبعها، حتى يكون التلاميذ على اتصال بها أثناء تلمذتهم، مستعدين لمجابهتها عند خروجهم من المدرسة. فخلاصة القول إذن أن الرحلات المدرسية والزيارات العلمية يجب أن تعتبر جزءا لا يتجزأ من الدراسة. بل إنا لنزيد على ذلك فنقول حبذا لو خصص ردح من السنة الدراسية للمران العملي كما تفعل بعض المدارس الأمريكية. فيحسن أن يخرج بعض التلاميذ ليقضوا أسبوعا أو أسبوعين في عزبة من العزب مثلا، حيث يلاحظون كيفية الزراعة من حرث وبذر وري وحصاد، وكذلك كيفية العناية بالماشية وجلب اللبن وجمعه وتوزيعه.

ويُمكن إرسال بعض التلاميذ كذلك إلى بعض المصانع، كمصانع المحلة الكبرى حيث يلاحظون كيفية غزل القطن ونسجه وطبعه وحزمه وإرساله إلى الجهات المختلفة. كما أن بعض التلاميذ قد يذهبون إلى دار أحد البنوك أو إحدى الشركات التجارية أو إلى مصلحة البريد إلى غير ذلك، ويكون الزمن الذي يصرفونه هناك مناسبا لأهمية العمل وسهولة الإحاطة به.

وتزداد حيوية الغرائز الاجتماعية ونشاطها في دور المراهقة، فيزداد ميل المراهقين للألعاب الجمعية، ككرة القدم وكرة السلة، والأعمال التي تستلزم تعاون بضعة أفراد، كما يزداد ميلهم لتأليف الجمعيات والعصابات، حتى إن بعض الكتاب ليسميه دور العصابات The Gang Age، ولا شك أن هذه أول فرصة يحاول فيها الناشئ أن يخبر كنه الحياة الاجتماعية، ويزج بنفسه فيها.

ولذا نجد أن طرق التعليم الجمعية أيضا تناسب المراهقين. وليس من تناقض في الجمع بين الطرق الفردية والطرق الجمعية، لأن الفتى يجب أن

يتعاون مع غيره، وأن يشعر بأنه جزء من نظام عام يقوم بعمل كبير، ولكن الجزء الذي يعطي له لينجزه، يود أن يعطي له من الحرية والاستقلال في إنجازه، ما يكفل له الابتكار وبذل الجهد والشعور بالسرور من العمل المستقل، فمثلا إذا كانت المدرسة تنوي القيام بحفلة تمثيلية تاريخية، فلابُد لها من عدة تلاميذ يشتركون في إخراجها، والمراهقون يلذ لهم التعاون في إخراج مثل تلك الأشياء، إلا أن كلا منهم سيلقي على عاتقه جزء من ذلك العمل، فأحدهم سيكلف بكتابة الرواية، والآخر بوضع الرسوم والتصميمات للستر والمناظر، وثالث سيرأس فرقة الموسيقى، وقد يكون بينهن فتيات تقوم كل منهن بحياكة فستان لبعض شخصيات الرواية. وكل من هؤلاء يبغي بذل الجهد في العمل الذي وكل إليه، وإظهار قوته على الابتكار، ويود أن ينسب عمله إليه. وكذلك في لعبة كرة القدم وغيرها من أوجه النشاط المدرسي.

وهذا النوع من الأعمال يمكن الاتساع فيه في المدرسة، وهو يفيد في تربية التلاميذ، من الوجهتين الخلقية والاجتماعية، فالانضواء تحت علم الرئيس، سواء أكان رئيس الفرقة الرياضية أم الموسيقية، أم رئيس الجمعية العلمية أم الأدبية، والخضوع لرأي محرر الجريدة أو المجلة، والتعود على بذل الطاعة والنُصح بالطرق النظامية، ثم تعود كل فرد التكاتف مع إخوانه من الأعضاء الآخرين، وعدم التعدي على حقوقهم، والمحافظة على حقوقه هو نفسه، ثم منافسته لهم بالطرق السليمة المشروعة، من غير إعطاء فرصة للغرائز الأولية، كل ذلك يمهد الطريق لاشتراك الفتى في الحياة الاجتماعية بعد خروجه من المدرسة، فضلا عن أنه يكون مصدرا للسرور أثناء الدراسة، والإقبال على المدرسة ونشاطها، لإتفاقه مع ميوله ونزعاته الطبيعية.

والصحافة من الأعمال التي تلذ المراهقين وتعطي مواهبهم فرصة كبيرة. فهي مشجع للكتابة، وحافز إلى دراسة اللغة والعناية بها، وطرق المواضيع العلمية أو الاجتماعية أو الأدبية، ولذا فهي حافز للتلاميذ إلى الإطلاع.

ولغير الكتاب مجال بها، فالمصورون بآلات التصوير الشمسي يلذلهم نشر صورهم، فهي كمعرض لهم فتكون بذلك مشجعا لهم على الاتقان، وميدانا للتنافس الفني. ولغير من ذكرنا مجال بها أيضًا. فالمديرون لهم مجال لإظهار قدرتهم على الإدارة والتنظيم لإخراج المجلة المدرسية في أحسن ثوب وأرفع مستوى وأجمل طبع بأرخص ثمن، وليس ذلك بالأمر اليسير، وفائدة ذلك لا تنحصر في المواضيع العلمية بل إنها تزود المراهقين بالخبرة العملية في إدارة الأعمال والشراء والبيع والحساب إلى غير ذلك.

وليست فائدة مجلة المدرسة بقاصرة على أعضائها الذين يشتركون فيها، أو الكتاب والمصورين الذين يزودونها بثمرة يراعهم، بل هي معرض لأفكار تلاميذ المدرسة، ففيها يعبرون عن آرائهم العلمية والاجتماعية، وهي وسيلة يعبرون بها لأساتذتهم عن مطالبهم وآمالهم بشكل مشروع، كما أنها مجال يعبر فيه الأساتذة عن آرائهم لتلاميذهم بشكل تقبله النفس، فهي أفضل من التنبيهات التي يمليها ضبط المدرسة على التلاميذ، أو المنشورات التي يصدرها الناظر أو الوزارة مثلا.

ولا شك أن الأعمال الفردية تستلزم وجود مكتبة مستوفية على قدر الاستطاعة، إذ أن توزيع أجزاء العمل على الأفراد، ومطالبة كل منهم بالبحث المستقل، يستلزم وجود كتب يستطيع كل منهم أن يبحث فيها عما يكلف به من المشروع أو العمل العام.

وأن كلا الأعمال الفردية والاجتماعية لعظيمة القيمة في التربية الخلقية للمراهقين، تلك التربية التي تفوق في قيمتها كل ما يحصله الفتى أو الفتاة في المدرسة. فهذه الأعمال المدرسية التي ذكرناها يجب أن لا ينظر إليها، كوسيلة لجمع المعلومات فحسب، بل يجب أن تستغل في سبيل تقويم أخلاق النشء وتدعيمها، وإعدادهم للحياة السعيدة الكاملة الفاضلة.

وإننا حين نتحدث عن الأخلاق لا نقصد مجرد التعفف عن المحرمات، أو الإقلاع عن التدخين مثلا بل نقصد معنى أوسع من ذلك بكثير. نعم إن التعفف عن المحرمات والعادات الضارة بالصحة جزء لا يتجزأ من الخلق المحمود القويم. ولكننا نرى أن لا تكتفي المدرسة بالناحية السلبية من التربية الخلقية. فالشاب المستكين ضعيف الخلق وإن كان أكثر الناس ابتعادا عن الفساد، وعلى المدرسة أن تعد الناشئ؛ لأن يكون وثابا يقظا منتهزا للفرص غير هياب ولا وجل، كما يجب أن يكون كذلك مؤدبا مطيعا محترما للضعيف، ومحترما للقانون وحقوق الغير.

وإن طريقة الوعظ، على أهميتها ليست كافية في التربية الخلقية ويجب، أن تقرن بالتدريب على الحياة المرغوبة، فالعادة السيئة صعبة الاستئصال، ولا يكفي في علاجها الزجر والوعظ، بل أفضل طريقة هي تكوين عادة محمودة تناهضها وتحل محلها. وليست التربية الخلقية للناشئين بقاصرة على الأخلاق الشخصية، كقول الصدق والاستقامة والإقلاع عن المحرمات، إلى غير ذلك مما يخص الفرد في حياته الشخصية. فالمراهق على وشك دخول الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعلى المدرسة أن تعينه على الاستعداد لها بتقويم خلقه في معاملاته مع غيره وفي استقصائه لأسباب الرزق وأسباب التمتع، وفي محافظته على حقوقه الاجتماعية والوطنية.

ومع اعتقادنا بأهمية دروس الأخلاق والديانة في التربية الخلقية، ومع اعتقادنا بضرورة تخصيص ساعات معينة لها في برنامج المدرسة الثانوية، نود أن لا ينصرف المعلمون عن التربية الخلقية بمجرد انتهاء حصة الأخلاق، بل يجب أن تنتهز كل فرصة لاختبار خلق التلميذ وتزويده بالنصائح، والتدريب اللازم لتقويم المعوج فيه. فالتلميذ الذي ييأس من حل مسألة جبرية قبل بذل مجهود لحلها ضعيف الخلق، وعلى المدرسة تعويده المثابرة وبث روح الصبر والجلد فيه، ولن يتأتى ذلك بتعويده الصبر والجلد في دروس الجبر أو الرياضة فقط، بل يجب أن تنتهز كل فرصة في أي درس ما، سواء أكان في الجغرافية أم اللغات أم الرياضيات أم غير ذلك. كما يجب تدريبه على الجلد في الألعاب الرياضية وفي الرحلات وفي منافسة الخصوم في الانتخابات المدرسية، وكذلك في البيت وفي الشارع وفي السوق، وهكذا في جميع نواحي حياته. عندئذ تتكون لديه عادة المثابرة ويصبح خلقه متينا. أما إذا اكتفينا بتعويده المثابرة على حل المسائل الجبرية فقط، فليس هناك ما يضمن انتقال تلك العادة إلى نواحي الحياة الأخرى.

وتسنح في المدرسة الثانوية فرص عديدة لتقويم الخلق، فالمناقشات التي تجرى في كل درس، والمناظرات المدرسية العامة مجال صالح لتعويد التلميذ احترام رأي الغير، لأن التلميذ الذي يسفه رأي كل من يختلف معه، والذي يؤيد رأيه بسبب الآخرين والتحامل عليهم ضعيف الخلق، والأجدر أن يعود التأني وضبط النفس في المناقشة، سواء أكانت هذه مناقشة علمية أم سياسية أم دينية وأن يعود تأييد الرأي بالحجج البينة، ودحض رأي الخصوم بتلك الحجج لا بالاعتداء.

كما يجب أن يعود احترام رأي الخصم حتى ولو كان خطأ، والاعتراف

بالحق إذا ثبت له حتى ولو كان صادرا من الخصوم. وما يُقال عن المناقشات والمناظرات يقال عن الألعاب الرياضية والمسابقات. فالفتى الذي يحتد ويخرج عن قانون اللعبة إذا ما هزم ضعيف الخلق أيضا، ويجب أن يعود قبول الهزيمة بروح طيبة، وأن يستخدم قوة في انفعالاته لا في الشجار مع الخصم بل في التدرب للمسابقة القادمة.

والتلميذ الذي يغش في الامتحان أو في المسابقات ضعيف الخلق أيضا، ويجب أن يعود الأمانة والاعتماد على النفس. ومجال ذلك بالمدرسة متسع، فهو يسنح أثناء الاختبارات والواجبات المدرسية، وعند اقتراض كتب المكتبة، وتسنح عندما تسلم للتلميذ أموال جمعية من الجمعيات إذا ما عين أو انتخب أمينا للصندوق.

والمجال واسع للتدرب العملي على الأخلاق القويمة، في أعمال النشاط المدرسي كالرحلات والمناظرات، وإدارة المجلة المدرسية، وإدارة الجمعيات والانتخابات المدرسية وهكذا.

ولا يغيبن عن الذهن أن التربية العلمية وحدها خطر، لأنها قوة قد تستخدم في الشر أو في الخير، والتربية الخلقية توجهها نحو الطريق المحمود.

ووجود طريقة التدريس في الفصول يفيد أيضا، نظرا لاقتصادها في الزمن، ولأنها تعطي التلميذ فرصة للإستماع والراحة. إذ لو كان كل العمل بالمدرسة عملًا تنقيبيًا، يلقي عبؤة على التلميذ، لأجهد وقل محصوله.

وليلاحظ هنا أن طريقة التدريس يجب أن تكون ملائمة للعقلية الجديدة، والميزات التي ذكرناها في غير هذا المكان. فإذا علمنا مثلا أن تفكير الطفل

الذي كان عمليا محتاجا إلى المحسات لمعاونته، أصبح الآن، حوالي منتصف دور المراهقة، قادرًا على التخلص من تلك المحسات، والسمو وحده، فأصبح تفكيرًا معنويًا مُجردًا إلى حد ما، فهمنا حاجة المراهق عندئذ إلى فرصة للإستنتاج المنطقي الدقيق، فذلك يلذ له، ويعوده التفكير المستقيم، فالخطوة التنقيبية أو الاستقرائية التي تجمع فيها الحقائق، والقوانين الطبيعية التي يوصل إليها بالتجارب، يحسن أن تتمم بالخطوة الاستنتاجية أو الاستنباطية، التي توضع فيها المقدمات أمام التلميذ فيستنتج منها ما تؤدي إليه، وبذا يستطيع تطبيقها عمليا.

غير أن التربية العقلية ليست كل شئ يهمنا في حياة التلميذ، والواقع أن مدارسنا توجه إليها اهتماما يمنع العناية بأي شئ آخر، فيتسبب عن ذلك إهمال للتربية الجمالية والانفعالات الجمالية، وهي ناحية من نواحي التربية لها قدرها، والوسيلة إليها هي الفنون، كالموسيقى والتصوير والشعر والأدب. وإنا لا نرمي إلى تدريس هذه المواد لمعرفة قوانينها وقواعدها فقط، فذلك تقليل من أهميتها، وفيه فقدان لروحها ومغزاها الأسمى، وإنما الغرض تعويد الفتى على تقديرها وفهمها، وتسهيل سبيله إلى الجميل منها، وإعانته على إتقانها حتى يستمتع بها في وقت فراغه وحيثما يجدها، ففي ذلك تهذيب لنفسه، وسمو بها فوق أفق المادة. ولذا يجب أن يكون التدريس مناسبا لذلك الغرض، ومحققا له، فحماس المعلم وتقديره هو للجمال يساعد التلاميذ على التحمس له وتقديره أيضا.

أما الطرق العلمية الدقيقة، التي تقتضي البحث، والتحليل والاستنتاج والتعميم والتطبيق إلى غير ذلك، فلا مجال لها هنا، لأنها تسلب الفنون روحها ومعناها السامي. خذ مثلا دراسة قصيدة من الشعر، فإنا لو قطعناها

إربا، وفصلنا أجزاءها لدراسة المعنى كل كلمة وكل بيت على حدة، لفقدت قيمتها الجمالية، وانصرف الذهن عما بها من روعة وجمال، كما لو حللنا قطعة موسيقية، وسمعنا كل جزء على حدة فإنها تفقد قيمتها وجمالها، إذ أن تلك المقاطعات تعكر صفو تقدير الإنسان لها.

ولقد أبان علم النفس الحديث ما للعمليات العقلية اللاشعورية من تأثير على العمليات العقلية الشعورية، وعلى سلوكنا الظاهر، فكثير من هذا السلوك ناجم عن دوافع لا ندري ولا نشعر بها؛ لأنها محتفية في قرارة اللاشعور. وتقدير الجمال يتوقف لحد كبير على تلك العمليات اللاشعورية. فكأن التربية الجمالية في الحقيقة تربية لتلك العمليات اللاشعورية.

أما التحليل والتمحيص، فاحق به العلوم التي تحتاج إلى عمليات شعورية. ولكن الفنون يتوقف تقديرها وإدراكها إلى حد كبير على عوامل مضت وتجمعت في نفوسنا وأصبحت جزءا منها، وميراثًا ثابتًا لا نشعر بأنا نحمله بين طيات عقولنا.

ومن هنا نشأ الاختلاف بين الأفراد في إدراك الأشياء الفنية، وتقدير ما بها من جمال وسحر. ولذا كانت الحاجة ماسة إلى إعطاء التلميذ فرصة للتأمل فيها على استقلال، في شيئ من الهدوء، وإدراك الأجزاء كلها مع بعضها، بدلا من فصلها.

ويبدو ذلك الضعف في طرق تعليمنا واضحا عند دراسة الظواهر الطبيعية. فكل اهتمامنا يعرض إلى التحليل والبحث عن القوانين التي تحكم تلك الظواهر وإجراء التجارب في المعمل، إلى غير ذلك من الطرق التي يقتضيها بحث العلم الدقيق. ولكنا نغفل عما بتلك الظواهر من جمال وروعة.

فإذا أخذنا التلاميذ إلى منطقة خلوية جبلية مثلًا، وجهنا نظرهم إلى شكل الجبال، ومقدار ارتفاعها عن سطح البحر، وعن تأثير الرياح والأمطار بها، ثم ذكرنا أسماء ما بها من أودية، وتأثير مياه النهر في شكل الوادي وهكذا. وكذلك في دراستنا للنبات والأزهار، نوجه الاهتمام نحو عدد أوراق الزهرة وما بها من أعضاء تذكير وتأنيث، ومن أية فصيلة هي وإلى شكل أوراقها، وكيفية تنفس النبات من أوراقه وهكذا.

ففي كل هذا نحن نغفل عن تقدير الجمال، ولا نعطي الفتى فرصة للتأمل فيه، وترقية حواسه ومشاعره، حتى يسمو ولو إلى حين، عن عالم الماديات، وحتى يشعر أن الحياة المدرسية تكون أحيانا مصدرا للسرور الراقي.

الفهرس

هذا الكتاب ٥

الفصل الأَول: تمهيد..... ٦

الفصل الثاني: التغيرات التي تحدث في دور المراهقة ١٠

الفصل الثالث: الفروق بين الجنسين..... ٤١

الفصل الرابع: الأنواع الرئيسية للمراهقين..... ٦١

الفصل الخامس: تأديب المراهقين..... ٧٩

الفصل السادس: فطام الشباب ١٠٢

الفصل السابع: الغريزة الجنسية في دور المراهقة..... ١٢٧

الفصل الثامن: التربية الجنسية..... ١٧٠

الفصل التاسع: الجمع بين الجنسين في المدارس ١٩٢

الفصل العاشر: المدرسة الثانوية ٢٠٩

الفصل الحادي عشر: تابع تربية المراهق وتعليمه..... ٢٢٧